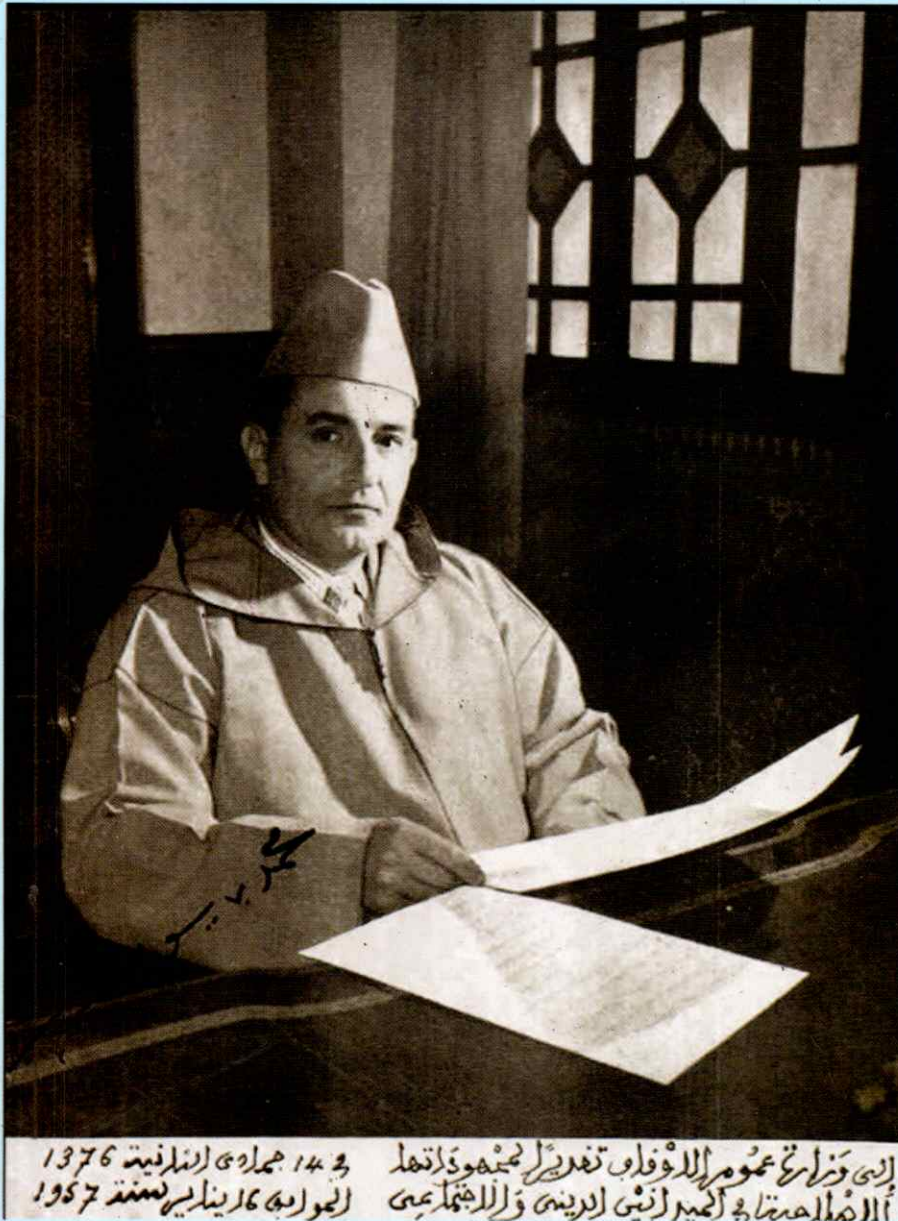


دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية



إلى وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية
الأمانة العامة في المحمدية الربيعية واللاهية على
الحواري ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٧٦
١٩٥٧

عدد خاص بذكرى ثورة الملك والشعب

409

العدد السابع والخمسون

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة السابعة والخمسون - العدد 409 - شوال 1435 هـ / غشت 2014 م



إلى وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
في شهر يوليوز 1957
إلى "مجلة دعوة الحق" بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957



أسسها

جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376 هـ / 1957 م

"... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصفة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تُعالج مختلف
الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وحييد الأمل في أن يلتفت
حولها دُعاة الفكر والثقافة والإصلاح في هذه البلاد وغيرها
لتؤدّي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة "دعوة الحق" سبل النجاح والتوفيق."

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى "مجلة دعوة الحق" بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لاتعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط
الموقع الإلكتروني: www.daouatalhq.ma - البريد الإلكتروني: daawatalhak@mhai.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة: 05 37 66 06 74

فاكس: 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس: 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط:

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة: الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 درهما

ثمن العدد : 15 درهما

الخارج : 300 درهم

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الإخراج الفني والطباعة: مطبعة الكرامة - الرباط

مدير المجلة:

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير:

عبد الحميد العلمي



أمير المومنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد



الافتتاحية

من المقرر عند أهل التحقيق أن مسمى البيعة يصدق على التزام أمير المؤمنين بحراسة الدين وسياسة الدنيا بهذا البلد الأمين، كما يصدق على التزام المغاربة بوجوب الصلابة ولزوم الجماعة، والناظر في تاريخ المغرب الحديث يجد أن موجبات ذلك الالتزام تجسدت في حدث المسير من البلاد والقائم على شأن العباد جلالة المغفور له محمد الخامس هيب الله ثراه، حيث أدى ذلك إلى ثورة شاملة في التحام تام بين الملك والشعب أسفرت عن انقشاع الغم وتوالي مولف النعم.

ومن باب من يرى حمل الأمر على الوجوب في قوله تعالى: (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فقد تمالأ كل المغاربة على التعلق بهاته الذكرى التي أصبحت عيداً وطنياً اتخذ له تاريخ 20 غشت من كل سنة.

وجرياً على ذلك السنن فقد حرص أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله على الاحتفال بهذه المناسبة بمشاركة المغاربة أجمعين، كما دأبت مجلة دعوة الحق والقائمون عليها على تخليد هذه الذكرى كل عام، ويسعدنا أن تواكب هذه المناسبة بمساهمة ثلة من العلماء والأماة الأجلاء الذين شاركوا بأبحاث ضافية ومقالات شافية تؤرخ لهذه المناسبة الغالية.

رئيس التحرير

النداء التاريخي للسلطان سيدي محمد بن يوسف 3 شتنبر 1939

ذة. بهيجة سيمو

مديرة الوثائق الملكية

إن النداء التاريخي للسلطان سيدي محمد بن يوسف بتاريخ 3 شتنبر 1939 يشكل نصا تاريخيا يختلف من حيث حمولته الدلالية عن النصوص التاريخية الأخرى، وأولى الإشارات التي نستهل بها الحديث، أن النص الموجود بين أيدينا، تنوعت تسمياته، فهناك من سماه نداء باعتباره دعوة لتعبئة المغاربة، وهناك من أطلق عليه خطابا لكونه قد تُلّي على منابر المساجد، وهنالك من اعتبره رسالة بحكم كونه كتابا متضمنا لمبادئ وتوجيهات سامية وجهت إلى الشعب المغربي. غير أن تقييم دلالات هذه المصطلحات الثلاثة، يسمح بالوقوف على تكامل المعنى وتقاربه إلى حد بعيد.

وغني عن البيان، أن النص التاريخي يولد عادة بناء على طلب صريح تمليه ظروف بارزة، ومن هذا المنظور، جاء النداء التاريخي للسلطان سيدي محمد بن يوسف المؤرخ في 3 شتنبر 1939 مندرجا في سياق تاريخي متميز بمجموعة من المعطيات الهامة، التي لها اعتبار في التحليل التاريخي.

فقد جاء الخطاب بعد مرور عشرين سنة على انتهاء الحرب العظمى التي مازالت ذكرياتها المؤلمة راسخة في الأذهان، وماثلة للعيان، كما شهدت أوروبا في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي، أزمات واضطرابات سياسية ميزت بشكل لافت للنظر، مرحلة ما بين الحربين، وتصاعدت حدتها منذ سنة 1933، وهي السنة التي انتخب فيها أدولف هتلر مستشارا لألمانيا.

وكان الوضع الدولي يشهد توترا في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط نتيجة الحرب الأهلية التي اندلعت بإسبانيا سنة 1936، وهي نفس السنة التي صادفت صعود الجبهة

الشعبية إلى الحكم في فرنسا (Front populaire). كما أثارت الأطماع المتزايدة لإيطاليا تجاه ليبيا سنة 1939، استتكار المغاربة وعداءهم للأنظمة الشمولية. وقد أذكى هذا العداء المستحكم، الغزو الإيطالي لآلبانيا وإدانة المسلمين له. هذا في الوقت الذي تمكنت فيه كل من فرنسا وإنجلترا من احتلال موقع متميز في قلوب المغاربة بعد توقيعهما لاتفاقية التعاون المشترك مع تركيا سنة 1939.

لم يكن المغرب في منأى عن هذه الأوضاع، فقد كان حينها يمر بمراحل تاريخية خاصة - وهي كما تعلمون - مرحلة الحماية الفرنسية الإسبانية المفروضة عليه، حيث كان الشعب المغربي آنذاك قد قطع أشواطاً في مطالبه الوطنية منذ اعتلاء صاحب الجلالة سيدي محمد بن يوسف عرش أسلافه المنعمين، وصار ينادي بعدة إصلاحات في نطاق مدلول عقد الحماية، وهو ما جاء بارزا في خطاب عرشه سنة 1933، حيث قال رحمه الله: "إن الشعب المغربي ينتظر منا مجهودا مستمرا لا من أجل تنمية سعادته المادية وحدها، ولكن لنكفُل له أيضا الانتفاع من تطور فكري يكون متلائما مع احترام عقيدته، ويستمد منه الوسائل التي تجعله يرتقي درجة عليا في الحضارة بأكثر ما يمكن من السرعة". ووفقا لذلك، تميزت المرحلة بتطور الفكر الوطني من حيث بنياته وهياكله، كما ظلت المقاومة المغربية ضد الفرنسيين والإسبان متوهجة في القبائل الجبلية والصحراوية.

ففي زمن كان فيه المغرب يعيش أوضاعا صعبة يعاني خلالها من ويلات السياسة الجهنمية للمقيم العام "توكيس" وإجراءاته القاسية تجاه رموز الحركة الوطنية من جهة، ويكابد من جهة أخرى أزمة اقتصادية خانقة ارتفعت خلالها الأسعار وقلت الأقوات وتضررت جميع الشرائح الاجتماعية من مزارعين وحرفيين وعمال. وزاد الوضع تأزما عقب الأحداث الأليمة التي واكبت توقيع ظهير 16 ماي 1930 الذي سماه البعض فيما بعد "الظهير البربري". كما كان المغرب في هذه المرحلة يعيش أجواء مشحونة، فهو الخارج لتوه من مظاهرات الدار البيضاء سنة 1936.

في هذه الظرفية الدقيقة على المستويين الدولي والوطني، وفي زمن عانى فيه العالم من الانقسام بين النازية وعالم الحرية والديمقراطية، كان السلطان سيدي محمد بن يوسف على علم تام آنذاك بما وجب عليه عمله بالنسبة لشعبه وصالح بلاده التي سُلِبَت الحرية والاستقلال. وكان منطق الأحداث وطبيعة الظرفية من شأنه أن يجعل السلطان منخرطا في توجه معاكس

ذ. بهيجة سيمو

لتوجه فرنسا، غير أن ما حدث هو العكس، فما أن اندلعت الحرب سنة 1939، حتى نادى السلطان سيدي محمد بن يوسف المغاربة إلى التعبئة لمساندة فرنسا وحلفائها حتى النصر من أجل الحرية.

انطلاقاً من هذه الجرأة السياسية وتحدي الظرفية بجميع تناقضاتها وملابساتها، يمكن طرح النص الملكي للدراسة من خلال المساءلات الآتية : ما هي الأبعاد الحضارية للنص؟ وما مدى ترابط مفاهيم الحرية بالتحريك في الفكر السياسي للسلطان سيدي محمد ابن يوسف ؟ وكيف تمكن النداء السلطاني من إرساء قواعد أخوة السلاح بين الجنود الفرنسيين والمغاربة ؟ هذا ما سنعرض له في الفقرات الآتية :

من الناحية الحضارية، فإن قرار المغرب في تلك الظروف كان قراراً متزنًا ينم عن خلفية حضارية وأبعاد سياسية رصينة. فالمغرب معروف عبر العصور بنصرة القيم الإنسانية والمبادئ الوطنية، ويكفي المغاربة فخراً استحضار مواقفهم مع إخوانهم المسلمين في المشرق كلما دعت الضرورة إلى ذلك¹. فالمغفور له سيدي محمد بن يوسف لم يتوان لحظة عن إبداء الحزم والشهامة في آن واحد لمواجهة الطارئ من الأزمات على العلاقات الدولية، انطلاقاً من الخصال الضاربة الجذور في عمق سجايها جلالته، وتمسكه القوي بالأعراف السياسية السامية، ومن ثم لم يتردد في الوقوف إلى جانب فرنسا، بمجرد أن هددت الجيوش الألمانية النازية ترابها، مُعبِّراً عن ذلك بكل حكمة ودراية في نداء يوم 3 شتبر 1939.

حفاظاً على القيم الثقافية والتقاليد المغربية الراسخة، استند جلالته إلى قواعد شرعية باستشارة العلماء، وأهل الحل والعقد، قبل الصّدّع برأيه. واحترامه للشورى بوصفها مبدأ من مبادئ الديمقراطية في الإسلام، ودليلاً على كونه جلالته سلطاناً وأميراً للمؤمنين والمدافع الأمين عن الديمقراطية دفاع المتشعب بقيمها. وليضفي على النص مصداقية دينية أكبر، أمر جلالته بتلاوته على منابر المساجد بأهم الحواضر المغربية. وفي نفس السياق، ولتعميم الخبر في زمن انعدمت فيه وسائل الاتصال، وجه جلالته الرسالة إلى الأمة المغربية وخص بالذكر "الشرفاء والعلماء والأعيان"، وهي النخبة التي كان لها وزن ثقيل في ترجيح خيارات الأمة وإقناع الرعية بجدوى مفاهيمها ومعانيها.

¹ - نصرة يعقوب المنصور الموحي صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين، وإغاثة المغاربة للأندلسيين المسلمين منهم واليهود، الذين تم استقبالهم وإنقاذهم من جور وطغيان محاكم التفتيش التي نكلت بهم في إسبانيا إثر سقوط غرناطة سنة 1492م.

وسيرا على هذا النهج القويم، عمل السلطان سيدي محمد تلك السنة على ترسيخ التبرير الشرعي لمشاركته في الحرب العالمية الثانية في الذاكرة المغربية والتعريف بها وبتطابقها مع القيم الإسلامية والإنسانية. فلم يترك فرصة تمر خلال تلك السنة، دون التذكير بذلك؛ فخلال مشاركته في موسم مولاي إدريس في 21 شتبر 1939، ألقى جلالته خطابا بهذه المناسبة، ربط السلطان فيه بين مفاهيم الحرية في الحضارة الإسلامية وكذا ما قام به مولاي إدريس حين قدومه للمغرب، وبين مفاهيم الحرية المطالب بها من قبل دول الحلفاء. وقد عمل السلطان على تمرير هذه الخطابات البعيدة التجليات، على طول السنة، عبر قنوات مختلفة، خلال الاحتفاء بعيد العرش في 18 نونبر من نفس السنة، ثم كذلك على أمواج إذاعة المغرب في 31 دجنبر 1939، وخلال قيامه بالعديد من الأنشطة الاجتماعية والثقافية في السنة الموالية، كاحتفال بعيد الأضحى، وبالعيد النبوي الشريف، وأثناء وضع الحجر الأساسي لبناء خزانة القرويين الجديدة بفاس.

لم ينحصر موقف العاهل المغربي على هذا النداء فحسب، فقد شَفَعَه بموقفه الرسمي، فبعد أن أكسبه التبرير الشرعي من خلال استفتاء العلماء، احتراماً والتزاماً لواجبات إمارة المومنين، فإنه لم يغفل الأوضاع القائمة بالمغرب، فراسل مختلف الهيئات السياسية الفرنسية. وفي هذا السياق، وجه جلالته رسالة في 1 شتبر من نفس السنة، إلى الجنرال نوغيس أخبره فيها بعزمه على قراءة نداء موجه للشعب المغربي في كل مساجد المملكة². كما وجه في 6 شتبر رسالة تضامن أخرى لرئيس الجمهورية الفرنسية ألبر لوبران عن طريق الإقامة العامة³ عبر فيها عن استعداد المغرب لمساندة فرنسا في حربها ضد الاستبداد النازي، مما جعل الرئيس الفرنسي يقدر هذا الموقف متعهدا للعمل للحفاظ على الصداقة مع المغرب ودعم مصالحه.

بتفحص الرسالة، نرى أن العاهل المغربي استلها بمرجعية تاريخية استحضرت من خلالها ويلات الحرب العالمية الأولى، حيث قال: " فكلكم يذكر ما تركته الحرب العظمى من سوء الذكرى للناس، إذ لم تنسُ عليه عناكبُ النسيان ولم تُزَلْهُ من الأفكار مراسيمُ الالتباس". ونوه جلالته بجهود فرنسا وحلفائها خلال الحرب العظمى مذكرا بمشاركة

² - البرقية رقم 463 بتاريخ 1 شتبر 1939 الموجهة لوزارة الشؤون الخارجية.

³ - البرقية رقم 472 بتاريخ 3 شتبر 1939 الموجهة لوزارة الشؤون الخارجية.

المغاربة في هذه الحرب. وانتقل العاهل المغربي في سرد تاريخي محكم ليربط بين الحريين، معتبرا أن الحرب العالمية الثانية ليست سوى إيقاد لنار الفتنة من جديد، واغتتم الأعداء "الفرص وأدنى الأسباب ليوقدوا نار العدوان وتعم أقطار الوجود زوابع الفتنة وعواصف الاضطراب، وقد قال صلى الله عليه وسلم : الفتنة نائمة، لعن الله موقظها"⁴. غير ناسٍ الإلقاء باللائمة على ألمانيا النازية. ولتهيي الرأي العام المغربي لاستقبال ندائه بالرضى والقبول الكاملين، استشهد السلطان سيدي محمد بن يوسف بالحديث النبوي: "من أسدى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تقدرُوا فادعوا له" وأن "المومن إذا عاهد وفى".

وقد ذهب بعض الفرنسيين في تحليل "المعروف" تحليلا استعماريًا أو على الأقل يبقى خاصا بهم باعتبارهم "المعروف" هنا، هو تحقيق الأمن أيام الحماية. ولا يمكننا أن نقبل بهذا التحليل انطلاقا من قناعتنا أن السلطان سيدي محمد بن يوسف نذر حياته مستنكرا الحماية ورافضا لها، والصواب في اعتقادنا هو أن السلطان كان يذكّر من خلال هذا النداء بالعقود والاتفاقيات المبرمة مع فرنسا قبل الحماية، رابطا الماضي بالحاضر، معتبرا الحماية مرحلة عابرة، وأنه سلطان وملك دولة مستقلة تخاطب دولة أخرى ندا للند.

مضى السلطان في تحليل عميق، مبينا ما قد ينجم من انعكاسات سلبية على البشرية جمعاء من جراء الحرب، سواء على الأنفس والأرواح والأرزاق، أو على مستقبل الأجيال، مستخلصا هذه الصورة، قبل أوان حدوثها، من ويلات الحرب العظمى، وهذه كلماته السامية: "وكلكم يتذكر عدد الأسر المنكوبة والنواحي المغصوبة والمدن المهدمة والثروات المحطمة".

الجدير بالملاحظة، أن جلالته اعتبر الحرب إلى جانب الحلفاء حرب شرف، لأنها تدافع على مبادئ عليا مثل السلم والحرية والديمقراطية؛ والإيمان بهذه القيم النبيلة، والالتقاء عند نفس المثل، وهو ما وحد المصير بين المغرب وفرنسا على الرغم من اختلاف الأوضاع. ومن هذا المنظور، تجاوز السلطان مرحلة اعتبرها عابرة ليذكر بأواصر العلاقات المتينة التي ربطت المغرب بفرنسا عبر التاريخ، مستحضرا العهود والاتفاقيات، معتبرا بذلك نصرة فرنسا وحلفائها احترامًا لتلك العهود والالتزامات الدولية وامتنالا للأسس الإسلامية الداعية إلى

⁴ - مقتبس من نص الرسالة التي وجهها السلطان سيدي محمد بن يوسف إلى الأمة المغربية عند قيام الحرب العالمية الثانية، بتاريخ 3 شتبر 1939.

الالتزام بالوفاء بالعهد، حيث قال جلالتة: " فقد كنا معاهدين لفرنسا ومشاركين في ساعة الرخاء، ومن الإنصاف أن نشاركها اليوم في ساعة الشدة والبأساء حتى يكلل النصر أعمالنا ويزهر سرور النجاح أيامها والله ولي النصر والتوفيق". وهذا ما يؤكد مرة أخرى، أنه انطلاقا من مرجعية تاريخية عريقة ومن قناعات إنسانية، ومن تبصر سياسي محنك، صاغ السلطان سيدي محمد بن يوسف موقفه وخطابه هذا.

جاء نص الرسالة من واجهة أخرى، عبارة عن التزام ملكي بنصرة فرنسا طيلة مدة الحرب بدون أن يحدد جلالتة طبيعة المساهمة، بل اعتبرها واسعة وبكل سخاء تشمل الأرواح والممتلكات:

"فمن هذا اليوم الذي اتقدت فيه نيران الحرب والعدوان إلى اليوم الذي يرجع فيه أعداؤنا بالذل والخسران، يتعين علينا أن نبذل لها الإعانة الكاملة ونعضدها بكل ما لدينا من الوسائل غير محاسبين ولا باخلين".

كل قراءة دقيقة لسياق الرسالة الملكية تعبر تعبيراً واضحاً عن اكتمال النضج السياسي للعاهل المغربي، لكون النداء يجمع بين العديد من الأفكار الحسيفة والمبادئ النبيلة، أبرز ما فيها انسجامها مع القيادة الوطنية المتبصرة، والسياسة الحكيمة التي تسلك بها العاهل المغربي، وعيا منه بطبيعة الظروف الدولية وتطوراتها، وما قد ينجم عنها من أوضاع قد تكون كفيلة بمساعدته على رعاية مصالح الأمة المغربية.

فالخطاب يعبر عن جرأة سياسية ضمت عناصر مختلفة، جمعت بين الحرية والتحرير، فأصبح السلطان بجرأته قدوة يحتذى بها في دول أخرى. فقد كانت للنداء أصداء قوية في دول أخرى، حيث اقترح باي تونس، سيرا على نهج جلالتة، قراءة نداء بالمساجد التونسية، يؤكد فيه ارتباط تونس بفرنسا بموجب برقية من المقيم العام بتونس "إريك لابون" لوزير الشؤون الخارجية الفرنسي بتاريخ 8 شتبر 1939. وفي أقل من سنة، أصدر الجنرال "دوكول" نداءه الشهير يوم 18 يونيو 1940 على أمواج الإذاعة البريطانية المعروفة ب BBC .

لقي النداء الملكي السامي استجابة قوية شملت النخب المغربية من أعيان البلاد وشرفائها ووجهائها وشيوخ زواياها ورجال المخزن، وتقاطرت رسائل التأييد على السلطان من كل حذب وصوب. كما أعلنت الحركة الوطنية تضامنها مع موقف السلطان. وعلى المستوى

الشعبي، كانت الاستجابة سريعة وواسعة، وتسابقت الجهات إلى التسجيل في مكاتب التجنيد، وهي لا تملك من النظم العسكرية سوى تقاليدها الحربية، ولا يحركها وزع داخل منطق الحرب، سوى تشبثها بملكها والاستجابة له. فكانت للجنود المغاربة في هذه الحرب أدوار قتالية حاسمة دوخت العالم بأسره، شغلت السياسيين وكبار الاستراتيجيين العسكريين والصحافيين والفنانين الرسامين والروائيين والمخرجين السينمائيين، وإذا كانت هذه الإبداعات كلها تلتقي في الاعتراف لهم بصنع النصر، فإن سر ذلك يكمن فيما كان يمثلته لهم نداء ملكهم والاستجابة له.

يعتبر نداء السلطان سيدي محمد بن يوسف لسنة 1939 محطة أساسية في مسار الاستقلال المغربي، ولا أدل على ذلك من تسارع الأحداث وتسلسلها صوب تحقيق هذا الهدف الأسمى.

لم يغير السلطان سيدي محمد موقفه تجاه فرنسا حين انهزمت سنة 1940 أمام الاكتساح الألماني، بل أكد تضامنه معها معتبرا ذلك وفاء بالعهد. فدخل من ثمة في علاقات جديدة مع فرنسا حيث مارس سيادته بشكل يختلف عن ما كان عليه الأمر قبل النداء. لقد رفض خلال هذه السنة التعامل مع رجال الهدنة ورفض تطبيق القوانين المجحفة ضد اليهود المغاربة باعتباره زعيما روحيا لكل المغاربة، وفي سنة 1942 اغتتم السلطان فرصة الإنزال الأمريكي على الساحل الأطلسي ليستقل برأيه، محاولا الانعتاق من الهيمنة الفرنسية، فعارض السلطان موقف "نوكيس" من الحلفاء وأكد تضامنه مع الأمريكيين. واتضح هذا التوجه في لقاء أنفا سنة 1943 حيث كان اجتماعه مع الرئيس "روزفلت" فرصة أخرى للدفاع عن قضيته وإبلاغ صوته لشخصية دولية نافذة.

في السنة الموالية، صدع الوطنيون وصاحب الجلالة سيدي محمد بن يوسف بالمطالب المشروعة للشعب المغربي من خلال عريضة الاستقلال التي عُدَّت خطوة هامة لنهاية الاستعمار. وفي سنة 1945، وفي غمرة الاحتفاء الفرنسي بالنصر، حل السلطان سيدي محمد بن يوسف ضيفا على باريز واستقبله الفرنسيون رسميا، ورفعت لافتات تجمع بين التحرير وتنادي باستقلال المغرب، ووشح الجنرال "دوكول" صدره بوسام رفيق التحرير. وفي سنة 1947 وجه خطابه التاريخي من طنجة الذي كان محطة أساسية في رحلة نيل الاستقلال.

ذة. بهيجة سيمو

هكذا أبان السلطان سيدي محمد بن يوسف عن حنكة سياسية عالية وتبصر عميق من خلال ندائه سنة 1939 ومشاركته إلى جانب الحلفاء في مقاومة النازية ونصرة الديمقراطية، مما مكنه من تبوء مكانة مرموقة بين زعماء العالم في ذلك العهد، متحديا ملابسات وحيثيات أوضاع الحماية التي اعتبرها مرحلة عابرة، رابطا بين تحرير فرنسا واستقلال المغرب، واضعا أسسا متينة سينهض عليها المغرب بمجرد نيله للاستقلال.

انتفاضة طنجة 30 مارس 1952 نموذج للنضال الوطني الممهد لثورة الملك والشعب من خلال وثيقة غير منشورة

ذ. محمد العمراني

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس - فاس

يعتبر يوم الأحد 3 رجب 1371هـ الموافق لـ 30 مارس 1952م يوماً خالداً في ذاكرة الحركة الوطنية المغربية بصفة عامة، وذاكرة النضال الوطني لأهل طنجة بصفة خاصة طلباً للحرية والاستقلال، انتفض فيه الطنجيون سلمياً على الوجود الاستعماري بالمغرب، فواجهتهم الشرطة الدولية بالرصاص الحي والمدافع الرشاشة، مما أسفر عن مقتل عدد كبير من المتظاهرين، فكان هذا الحدث الجسيم مقدمة لاندلاع سلسلة من الأعمال الفدائية ضد السلطات الاستعمارية وأعوانها بعدد من المدن المغربية مثل الدار البيضاء ومراكش ووجدة وتافوغالت وغيرها، قبل أن تنفجر ثورة الملك والشعب في 20 غشت سنة 1953 دفاعاً عن سيادة البلاد ورمز وحدتها السلطان محمد بن يوسف، الذي أقدمت الإقامة العامة الفرنسية على عزله عن عرشه وإبعاده عن وطنه.

وبالرغم من جسامه الحدث المذكور، فإنه لم يحظ بما حظيت به الأعمال النضالية المماثلة بالمناطق المغربية الأخرى من اهتمام المؤرخين والباحثين والصحافيين، إذ لم نعثر لهذه الانتفاضة - فيما نعلم - على أثر في المصادر المعاصرة أو المراجع اللاحقة. ومن حسن الطالع أن عثرنا بالأرشيف الوطني بمدينة لاهاي بهولندا على وثيقة متصلة بهذا الحدث اتصالاً مباشراً، وهي عبارة عن رسالة وجهها أهل طنجة إلى سفير دولة هولندا بطنجة احتجاجاً على الأحداث الدامية التي تعرض لها المتظاهرون السلميون بهذه المدينة من قبل الشرطة الدولية، رافعين إلى السلطة الدولية بالمدينة جملة من المطالب العاجلة سوف نعرضها في هذه الدراسة

لاحقاً¹. لكن قبل ذلك، يجدر بنا أن نلقي لمحة تاريخية موجزة على الوضع السياسي بمنطقة طنجة في ظل النظام الإداري الدولي الذي كانت تعيشه خلال عهد الحماية.

لقد فرضت فرنسا حمايتها على المغرب بمقتضى معاهدة فاس المبرمة في 30 مارس 1912 مع السلطان مولاي عبد الحفيظ. وبموجب معاهدة مدريد المنعقدة في 27 نونبر 1912 سلمت فرنسا إسبانيا السلطة التامة على المنطقتين الشمالية والصحراوية الجنوبية من المغرب، بينما خضعت منطقة طنجة لنظام إداري دولي بمقتضى معاهدة باريس 1923، إذ تم التوقيع بباريس بين الدول الثلاث إنجلترا وفرنسا وإسبانيا على الاتفاق المتعلق بالنظام الإداري الدولي لمدينة طنجة يوم 18 دجنبر 1923، والذي يشتمل على 56 فصلا. وفي يوم 23 غشت 1924 تم إعداد المدونات القانونية اللازمة للقضاء الدولي بطنجة. وفي السنة التالية 1925 شرعت لجنة المراقبة في عقد اجتماعاتها ابتداء من يوم 27 يناير، وودشن المجلس التشريعي أعماله بتاريخ 10 فبراير، وابتدأت المحكمة المختلطة تمارس اختصاصها في نفس اليوم الذي جرى فيه التدشين الرسمي للنظام الدولي لطنجة، وهو يوم فاتح يونيو 1925، ولزم الانتظار ثلاث سنوات أخرى قبل أن تتضمن إيطاليا إلى هذا النظام، وذلك بتاريخ 28 يوليوز 1928، وتعهدت لها الدول الثلاث بإدخال تعديل على الجانب القضائي والمدونات القانونية التي جرى بها العمل خلال مدة سنتين. أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد استمرت خارج النظام إلى أن انتهت الحرب العالمية الثانية وعاد النظام الدولي إلى طنجة بعد انسحاب الجيوش الإسبانية من المدينة في أكتوبر 1945، فانضمت الولايات المتحدة الأمريكية إليه بمقتضى ظهير 22 شتبر 1945، وحصلت على أربعة ممثلين داخل المجلس التشريعي، والحق نفسه أعطي للاتحاد السوفيتي بمقتضى ذلك الظهير، لكنه لم يمارس هذا الحق بالمرّة، إذ لم يرسل دبلوماسيا إلى طنجة، ولم يطالب بأي دور في الهيئات التي كانت تحكم طنجة².

ومع مرور الأيام وتوالي الأحداث، اتسعت دائرة الأطماع الأجنبية، وأصبح ذلك النظام عبارة عن دولة داخل الدولة، مستقلاً بسلطته التشريعية في المجلس التشريعي، وبتسلطه القضائية في المحكمة المختلطة، وبتسلطه التنفيذية في الإدارة الدولية ولجنة المراقبة،

¹ - انظر نص الوثيقة رفقته.

² - محمد المكي الناصري، "مساهمة طنجة في الحركة الوطنية ودورها الحاسم بعد الزيارة الملكية التاريخية"، في ندوة طنجة في التاريخ المعاصر 1800-1956، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ومدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، النشر العربي الإفريقي، الرباط، الطبعة الأولى 1991، ص 20/ روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية 1980، ص 222-223.

وبسلطته المالية في الميزانية والمرافق التي وضعت تحت تصرفه من طرف المغرب، ليتمتع بها ويتوسع على حسابها جيش عرمرم من الموظفين الأجانب يكفي لدولة بأكملها، بينما مجموع سكان منطقة طنجة إبان إقامة ذلك النظام لم يكن يزيد عن حوالي 72 ألف نسمة، والمساحة التي أقيم عليها لاتزيد عن 275 كيلو متر مربع، وعمقها لا يزيد عن حوالي 20 كيلو متر، وهكذا أصبح الأجانب وحدهم هم سادة هذا النظام، القائمين عليه، والمسيرين له، والمنتفعين به وبمزاياه سياسيا واقتصاديا، وبعد التفويض العام والدائم للسيادة المغربية الذي انتزعوه بالقهر من المغرب لم يبق للدولة المغربية في هذا النظام إلا الاسم، ولم يبق للمغاربة فيه إلا فتات الموائد¹.

وقد ندد الوطنيون المغاربة بهذا النظام الدولي ودعوا إلى إلغائه، فكتب محمد المكي الناصري مقالا في الدفاع عن طنجة نشرته جريدة «الحياة» في عددها رقم 64 الصادر بتاريخ 30 ماي من سنة 1935، جاء فيه: «فالنظام الطنجي الحالي ليس بالنظام الذي تسيل على فراقه دموع المسلمين، بل هو حمل ثقيل على كواهل المغاربة أكثر من الجاليات الأجنبية، وهو سلاح خطير بيد خصوم الأمة المغربية، وأعداء السلطة القومية، والقائلون ببقائه يعملون في صفّ خصوم البلاد، وهم أبعد ما يكون عن خدمة الإسلام أو خدمة السلطان، أو خدمة القومية المغربية، وكل من درس النظام الطنجي الحالي على ضوء المصالح الوطنية يجده نظاما جديراً بالإلغاء والتبديل من ألفه إلى يائه»².

وكانت رحلة السلطان محمد بن يوسف التي قام بها إلى طنجة في أبريل 1947 حدثا وطنيا عظيماً، إذ فجر حماس جماهير المدينة، فكان ذلك الحماس ثورة على الوضع الوهمي القائم بها، ونقطة انطلاق للصراع بين القهر والإقامة العامة، حيث أصبحت طنجة عاصمة من عواصم العمل الوطني³.

وتحت تأثير الحماس الوطني الذي أججته الرحلة السلطانية المذكورة، وفي ظل التوجيهات والأوامر القومية التي نادى بها السلطان محمد بن يوسف وولي عهده مولاي الحسن أثناء تلك الرحلة حول ضرورة وحدة العاملين المخلصين، وردا على التوتر المتصاعد من قبل

¹ - محمد المكي الناصري، مساهمة طنجة في الحركة الوطنية...، م.س، ص.21.

² - المرجع نفسه، ص.23.

³ - عبد العزيز خلوّق التسماني، «مساهمة طنجة في الحركة الوطنية (1930 - 1956)»، في ندوة طنجة في التاريخ المعاصر 1800 - 1956، م.س، ص.276 - 277.

الإقامة الفرنسية العامة إزاء القصر الملكي، انتهزت الحركة الوطنية فرصة إحياء الذكرى الثالثة للرحلة السلطانية إلى طنجة، وأعلنت يوم 9 أبريل 1951 بمدينة طنجة نفسها عن تأليف جبهة وطنية تجمع أحزاب المغرب الأربعة التي تتادي بوحدته وحرية واستقلاله في الشمال والجنوب، وذلك في اجتماع تاريخي كبير ضم رؤساء حزب الوحدة والاستقلال، وحزب الاستقلال، وحزب الإصلاح الوطني، وممثل رئيس حزب الشورى والاستقلال، حيث وقعوا جميعاً بإمضاءاتهم على الميثاق الوطني المؤسس للجبهة، ومما جاء في ديباجة هذا الميثاق: "نظراً للخطوات التي قطعها الشعب المغربي في الدفاع عن استقلال البلاد، ووحدتها وتمتعها بالحريات الديمقراطية الحق، بفضل التوجيه الصادق الذي يقوم به جلالة سلطان المغرب سيدي محمد الخامس...، وبما أن مسألة المغرب على وشك العرض على الأمم المتحدة، ومن الصالح أن يقف المغرب كله إزاء الهيئات الدولية موقف الرجل الواحد، حتى لا يجد المرجفون سبيلاً للحيلولة دون نيل الأمة لحقوقها كاملة غير منقوصة...، وبما أن المخلصين من الوطنيين يسعون في جعل "ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي" حقيقة ثابتة في الداخل والخارج لا تشذ عنه هيئة، فقد قررت الهيئات الموقعة على هذا الميثاق أن تؤيد التزاماتها السابقة في دستور لجنة تحرير المغرب العربي ولائحته الداخلية"¹.

وهكذا أصبحت مدينة طنجة تضطلع بدور بارز في الحركة الوطنية، فصارت ملجأً للسياسيين الوطنيين، باعتبارها الجزء الوحيد من البلاد حيث يمكنهم التمتع ببعض الحرية في خضم موجة القمع ضدهم في المنطقتين الإسبانية والفرنسية، فقد أقام الزعيم علال الفاسي سنوات طويلة فيها قبل أن يهرب إلى مصر سنة 1951، كما أن الصحافة الوطنية التجأت إليها بدورها بين 1946 و1952 عندما انتهجت إسبانيا سياسة القمع ضد الوطنيين بالشمال، وحظرت صحفهم، فكانت هذه الصحف مثل "صوت المغرب"، و"صوت الشعب"، و"الشعب"، و"منبر الشعب"، رمز الكلمة المضيفة، تنشد الانعتاق، وتدعو إلى السيادة، وتعكس مواقفها الواضحة من حملات القمع الفرنسية والإسبانية، واصفة أعمالهما الوحشية ضد المواطنين، مبرزة في صفحاتها الأولى تصريحات القادة الوطنيين، ونداءاتهم إلى المجتمع الدولي للدفاع عن قضية بلادهم.

¹ - محمد المكي الناصري، "مساهمة طنجة في الحركة الوطنية..."، م.س، ص. 31-32.

ذ. محمد العمراني

ومع بداية الخمسينات أصبحت المدينة مسرحاً لمظاهرات واصطدامات عنيفة، وعلى إثرها تمت محاكمة بعض الوطنيين، ومنهم علال الفاسي، الذي وُجّهت له اتهاماتٌ حسبما جاء في النص الفرنسي لقرار الإحالة المؤرخ بفاتح ماي 1951 بتنظيم تجمعات غير مرخص لها من لدن مدير المنطقة أيام 22 و30 مارس، و1، 7، 8، 9، 12 أبريل 1951، والمشاركة في تنظيم مظاهرات في الطريق العام دون تصريح مسبق للمدير، والتهيج ضد النظام القائم في أية منطقة من مناطق المغرب¹.

وسوف يزداد الوضع السياسي بطنجة اشتعالاً في السنة التالية: 1952، مع إضراب الطنجيين والمغاربة عموماً في 30 مارس من السنة نفسها تنديداً بالذكرى الأربعين لفرض الحماية الفرنسية على المغرب حسبما ورد في الوثيقة التي بين أيدينا موضوع هذه الدراسة. ترى ما الذي تحمله هذه الوثيقة بخصوص انتفاضة أهل طنجة؟ وهل استطاع أهل طنجة تحقيق مطالبهم التي رفعوها إلى الإدارة الدولية الحاكمة؟ ذلك ما سنحاول الكشف عنه في الفقرات الآتية.

مضمون الوثيقة:

هذه الوثيقة، التي نتشرف اليوم بتقديمها لقراء مجلة «دعوة الحق» الغراء، في ذكرى وطنية خالدة التحم فيها العرش والشعب للدفاع عن سيادة المغرب ورمز وحدته، هي عبارة عن رسالة محررة بطنجة في يوم 6 رجب 1371هـ/2 أبريل 1952م بواسطة الآلة الكاتبة، محفوظة بالأرشيف الوطني بلاهاي، وجهها ثلة من وجوه مدينة طنجة، منهم عبد الغني جسوس، العربي التسماني، محمد المختار الخمال، محمد القلعي وغيرهم، باسم سائر سكان المدينة على اختلاف طبقاتهم إلى سفير دولة هولندا بطنجة السيد أ.ميرانس، يحتجون فيها بشدة على الاعتداءات السافرة للشرطة الدولية التي طالت الجمهور المسالم، الذي تظاهر يوم الأحد 30 مارس 1952، وأضرب مع إخوانه المغاربة بسائر البلاد استتكاراً للذكرى الأربعين لفرض الحماية الفرنسية على المغرب (30 مارس 1912)، وأسفرت عن سقوط عدد كبير من الضحايا العزل.

¹ - عبد العزيز خلوّق التسماني، "مساهمة طنجة في الحركة الوطنية (1930 - 1956)"، في ندوة طنجة في التاريخ المعاصر 1800 - 1956، م.س، ص. 277 - 278.

د. محمد العمراني

يُعلم هؤلاء المحتجون السفير المذكور بأن سبب هذه المجزرة الشنيعة هو تدخل أحد رؤساء الشرطة الدولية ضد جماعة من الشباب المتظاهرين، الذين كانوا يهتفون لوطنهم، فأراد أن يسكتهم بالقوة المفرطة، فدافع الشباب عن أنفسهم بما في استطاعتهم، غير أن التدخل انقلب إلى اعتداء فظيع وانتقام شنيع، مضيفين أن السوق الخارجي بالمدينة كان مكتظا بالعمال والمتسوقين، مما أدى إلى سقوط تلك الأعداد الهائلة من الضحايا الأبرياء في الميدان، وذلك لأن أفراد الشرطة الدولية لم يكونوا يميزون بين الناس، وكانوا يسددون الطلقات النارية إلى الصدور، مما يدل على روح الغيظ والتشفي المستولية على حفاظ الأمن هؤلاء، حسب تعبيرهم.

ولهذه الحقائق يطالب المحتجون السفير الهولندي ببذل جهوده من أجل العمل على إيقاف اعتداءات الشرطة التي ما تزال مستمرة على الناس بالقبض عليهم وإيداعهم السجون، وتحديد المسؤولية في هذه الأحداث وإنزال العقوبة الصارمة على رئيس الشرطة وأعوانه وكل من له صلة بهذه الفاجعة المؤلمة، وتطهير إدارة الأمن والشرطة من العناصر المدسوسة التي تريد إقلاق الأمن على حساب الانتقام من المغاربة العزل، ودفع تعويضات كافية لعائلات الجرحى والقتلى¹.

فهل استجابت السفارة الهولندية، التي نعتقد أنها كانت تدير شؤون المدينة خلال هذه الفترة، لمطالب هؤلاء المحتجين؟ في الواقع، ليست لدينا معطيات صريحة تثبت استجابة السلطات الدولية بطنجة لكافة المطالب المذكورة، بيد أننا نتوفر على وثيقتين اثنتين محفوظتين أيضا بالأرشفة الوطني بلاهاي تبينان استجابة السفارة الهولندية لمطلب واحد من تلك المطالب الأربعة، والمتعلق بتطهير إدارة الأمن والشرطة من العناصر المدسوسة التي تعكر صفو الأمن بالانتقام من المغاربة العزل كما ورد آنفا، عندما عمدت إلى طرد ثلاثة هولنديين ونفيهم من منطقة طنجة في يناير 1953، كما يبدو ذلك من رسالة المندوب السلطاني بمنطقة طنجة أحمد التازي إلى الوزير المفوض القنصل العام لدولة هولندا بطنجة أميرانس، بتاريخ 17 يناير 1953م، التي يطلعه فيها على قراره الذي أصدره وفق رغبته بنفي الرعايا الهولنديين الثلاثة من منطقة طنجة، هذا نصها:

¹ - رسالة أهل طنجة إلى سفير دولة هولندا بطنجة احتجاجا على اعتداءات الشرطة الدولية، بتاريخ 6 رجب 1371 هـ/ 2 أبريل 1952م. الأرشفة الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.69، القنصلية العامة لطنجة (1907 - 1957)، رقم 2277.

«جناب المحترم الوزير المفوض المكلف بالقنصلية العامة لدولة هولاندا المحترمة المسيو أ.ميرانس، لا زال السؤال عنكم محبة أن تكونوا بخير دائماً. وبعد، فجواباً عن كتابكم عدد 16 المؤرخ في 6 يناير 1953، نتشرف بأن نوجه لجنابكم طيه نسخة من القرار الذي أصدرناه وفق رغباتكم بنفي الرعايا الهولنديين إدوارد جاك إنجلسمان، وفريرك برغويس، ويوهانس جاكوبوس، وبه الإعلام، ودمتم بخير وهناء، وحرر في فاتح جمادى الأولى عام 1372 الموافق 17 يناير سنة 1953»¹.

وهذا نص القرار المتعلق بنفي الهولنديين الثلاثة المذكورين في الرسالة أعلاه من منطقة طنجة، والمؤرخ في التاريخ نفسه:

«إن مندوب الجلالة الشريفة بطنجة، نظراً للفصل الرابع من الظهير الشريف المؤرخ في 10 رجب 1342 الموافق 16 فبراير 1924، الصادر بتنظيم الإدارة الدولية لمنطقة طنجة، ونظراً للرسالة عدد 16 المؤرخة في 6 يناير 1953، والتي طلب فيها جناب الوزير المفوض القنصل العام لدولة هولاندا بطنجة نفي الهولنديين الآتي ذكرهم من منطقة طنجة وهم: إدوارد جاك إنجلسمان، وفريرك برغويس، ويوهانس جاكوبيس فان دلدان، قرَّر: الفصل الأول: يُنفي من منطقة طنجة الهولنديون الآتي ذكرهم: إدوارد جاك إنجلسمان، المولود في مدينة أنفيرس يوم 22 مايو سنة 1912، وفريرك برغويس المولود في مدينة هارين يوم 27 غشت 1927، ويوهانس جاكوبوس فان دلدان، المولود بمدينة لاهاي يوم 11 دجنبر 1916.

الفصل الثاني: لمدير منطقة طنجة أن يقوم بتنفيذ هذا القرار.

حرر بطنجة في فاتح جمادى الأولى عام 1372 الموافق 17 يناير سنة 1953،²

أما الوثيقة موضوع هذه المقالة فهذا نصها الكامل:

¹ - نص رسالة المندوب السلطاني بمنطقة طنجة أحمد التازي إلى الوزير المفوض القنصل العام لدولة هولندا بطنجة أ.ميرانس حول قرار نفي ثلاثة هولنديين من منطقة طنجة، بتاريخ 1 جمادى الأولى عام 1372هـ/ 17 يناير 1953م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.69، القنصلية العامة لطنجة (1907 - 1957)، رقم 2260.

² - نص قرار المندوب السلطاني بمنطقة طنجة أحمد التازي بنفي ثلاثة هولنديين من منطقة طنجة، بتاريخ 1 جمادى الأولى عام 1372هـ/ 17 يناير 1953م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.69، القنصلية العامة لطنجة (1907 - 1957)، رقم 2260.

نص الوثيقة؛

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

طنجة في 6 رجب 1371هـ = 2 أبريل 1952م

حضرة صاحب السعادة سفير هولاندا بطنجة تحية واحتراما

وبعد، فإننا معشر أهل طنجة على اختلاف طبقاتهم نرفع إليكم احتجاجنا الصارخ على ما جرى في يوم الأحد الفارط من اعتداء سافر على الجمهور المسالم، واستفزاز ظاهر لشعور السكان المغاربة من طرف البوليس الدولي، الذي ما كفاه أن يفرق الجماعات بالطرق المعهودة في مثل هذه المواقف، كاستعمال أنابيب الماء والقنابل المسيلة للدموع ونحو ذلك، بل تعدى هذا من أول وهلة إلى إطلاق الرصاص على الناس واستعمال المدافع الرشاشة (المرليزات)، تحصد نفوس الأبرياء، مما أدى إلى سقوط عدد عديد من الضحايا الذين لا ذنب لهم ولا جريمة إلا وجودهم في السوق البراني مضربين عن العمل بمناسبة الحداد في ذلك اليوم الذي أضرب فيه المغاربة كلهم استنكارا لهذا الوضع الشاذ الذي يعيشون فيه.

وقد أجمع الكل على أن سبب هذه الفاجعة هو تدخل أحد رؤساء البوليس بين جماعة من الشبان كانوا يهتفون لوطنهم فأراد أن يسكتهم بقوة وخشونة لا مزيد عليها، فدافع الشبان عن أنفسهم بما في مستطاعهم، ولكن التدخل انقلب إلى اعتداء فظيع وانتقام شنيع، وكان السوق الخارجي مكتظا بالعملة والمتسوقين الذين أتوا من القرى المجاورة بمناسبة يوم الأحد، فسقط في الميدان كثير من هؤلاء البراء، لأن البوليس لم يكونوا يميزون بين الناس، وكانوا يصوبون الضربات إلى الصدور، مما يدل على روح الغيظ والتشفي المستولية على حفاظ الأمن هؤلاء.

وعليه، فنحن نطلب من سعادتكم أن تبذلوا غاية مجهودكم:

أولاً: لإيقاف هذا التعدي الذي لا يزال مستمرا إلى الآن بالقبض على الناس وإيداعهم السجون، الأمر الذي لا يمكن أن يستتب الأمن معه، ولا أن يستجيب الجمهور لنداء السلم.

ثانيا: تحديد المسؤولية في هذه الحوادث، وإيقاع العقوبة الصارمة على المسببين فيها من هذا الرئيس البوليسي وأعوانه وكل من لهم ضلع في هذه الفاجعة.

ذ. محمد العمراني

ثالثاً: أن تعملوا على تطهير إدارة الأمن والشرطة من العناصر المدسوسة التي تريد إقلاق الأمن دائماً على حساب الانتقام من المغاربة العزل الأبرياء.

رابعاً: العمل على دفع تعويضات كافية لعائلات الجرحى والقتلى، الذين أصبحوا من أول يوم يتقلبون في أحضان البؤس، الذي هو السبب الأول في هذا الاستياء العام.

وثقوا يا صاحب السعادة أن جميع أهل طنجة مسالمون لا يريدون بأحد سوءاً، وأنهم منذ كانوا وهم على صلات طيبة مع ضيوفهم الأجانب من كل جنسية، لأن شعورهم الإسلامي الإنساني لا يوحى إليهم بغير ذلك.

وأخيراً تفضلوا بقبول فائق احترامنا وتحياتنا الخالصة، والسلام" ¹.

إمضاءات معقدة لجماعة من أهل طنجة: عبد الغني جسوس، العربي التسماني، محمد المختار الخمال، محمد القلعي، وغيرهم.

¹ - نص رسالة أهل طنجة إلى سفير دولة هولندا بطنجة احتجاجاً على اعتداءات الشرطة الدولية، بتاريخ 6 رجب 1371هـ - 2 أبريل 1952م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة 2.05.69، القنصلية العامة لطنجة (1907 - 1957)م رقم 2277.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الحمد لله وحده

طنجة في 6 رجب 1371 = 2 أبريل 1952 م

حضرة صاحب السعادة سفير هولندا بطنجة

محبة واحتراما

وبعد فاننا معشر اهل طنجة على اختلاف طبقاتهم نرفع اليكم احتجاجنا الصارخ على ما جرى في يوم الاحد الفارط من اعتداء سافر على الجمهور المسالم واستفزاز ظاهر لشعور السكان الخارجية من طرف البوليس الدولي الذي ما كفاه ان يفرق الجماعات بالطرق المعبودة في مثل هذه المواقف كاستعمال اثنائيب الماء والقنابل الصلبة للدروع ونحو ذلك بل تعدى هذا من اول وهلة الى اطلاق الرصاص على الناس واستعمال المدافع الرشاشة (الريلينجات) بمعد نفوس الابرياء مما ادى الى سقوط عدد عديد من الضحايا الذين لا ذنب لهم ولا جريمة الا وجودهم في السوق البراني ضريين من العمل بمناسبة الحداد في ذلك اليوم الذي اشرب فيه الشاربة كلهم استنكارا لهذا الوضع الشاذ الذي يعيشون فيه . وقد اجتمع الكل على ان سبب هذه الفاجعة هو تدخل احد رؤساء البوليس بين جماعة من الشبان كانوا يهتفون لوطنهم فاراد ان يسكنهم بقوة وخشونة لا مزيد عليها فدافع الشبان عن انفسهم بما في استطاعتهم ولكن التدخل انقلب الى اعتداء فطبع وانتقام شنيع وكان السوق الخارجي مكتضا بالصلبة والقشوفين الذين اتوا من القرى المجاورة بمناسبة يوم الاحد فسلط في الميدان كبير من هؤلاء البراء لان البوليس لم يكونوا يميزون بين الناس وكانوا يصوبون الذريات الى الصدور مما يدل على روح العيظ والتشفي المستولية على حفاظ الامن هؤلاء . وعليه فتمن نطلب من مساعدكم ان تذلوا غاية مجهود اولاء . لايقف هذا التصدي الذي لايزال مستمرا الى الان بالقبح على الناس وايداعهم السجنون الامر الذي لايمكن ان يستتب الامن معه ولا ان يستحب الجمهور لتداع السلم .

ثانيا . تحديد المسؤولية في هذه الحوادث وايقاع العقوبة الصارمة على السببيين فيها من هذا الرئيس البوليسي واعوانه وكل من لهم صلح في هذه الفاجعة .

ثالثا . ان تعملوا على تطهير ادارة الامن والشرطة من العناصر المدسوسة التي تريد افلاق الامن دائما على حساب الانتقام من العارية الخزل الابرياء .

رابعا . العمل على دفع تعويضات كافية لماللات الجرحى والقنلى الذين اصبحوا من اول يوم يتقلبون في احضان البؤس الذي هو السجى الاول في هذا الاستياء الملم .

ونفوا يا صاحب السعادة ان جميع اهل طنجة مسالمون لا يريدون باحد سوا وانهم منذ كانوا وهم على صلات طيبة مع ضيوفهم الاجانب من كل جنسية لان شعورهم الاسلامي الانساني لا يوحى اليهم بغير ذلك .

واخيرا نفضلوا بابلول فائق احترامنا وتحياتنا الخالصة والسلام

مواثيق النخيل

رسالة أهل طنجة إلى سفير دولة هولندا احتجاجاً على اعتداءات الشرطة الدولية، بتاريخ 6 رجب 1371 هـ / 2 أبريل 1952م.

المؤسسة الملكية وعلماء المغرب

"قراءة في زمن حكم السلطان المغفور له محمد الخامس"

ذ. عبد المجيد معلومي

جامعة القاضي عياض - مراكش

ينتسب جلالة الملك المرحوم محمد الخامس قدس الله ثراه إلى أسرة عربية، ضاربة الجذور في العراقة، هي الأسرة العلوية، التي يرجع أصلها إلى أبناء الإمام علي بن أبي طالب، وفاطمة الزهراء رضي الله عنهم أجمعين.

نشأ محمد الخامس تحت رعاية والده السلطان مولاي يوسف، فعنى بتربيته تربية دينية، رغم المناهج التي كانت قد وضعتها فرنسا للتعليم، لكن الأحداث تعاقبت عليه بسرعة وهو ما يزال في ريعان شبابه، إذ توفي والده يوم 17 نونبر 1927م، وهو لم يتجاوز ثمانية عشر ربيعا، فحمل عبئا ثقيلا، والعجيب أن السلطات الفرنسية بعد أن رأت فيه ملامح الطيبوبة، وأصدرت حكما عليه: بأنه شاب مسالم أرادوا أن يجعلوه وفق هواهم، ويوجهوا فكره وثقافته ووجدانه نحو فرنسا، والغرب بصفة عامة، فعينوا له موظفين سامين فرنسيين، وكان الهدف السيطرة على مكونات عقله وفكره في الولاء لفرنسا، لكن الأقدار لا تتعاق مع الأماني دائما، فقد أرادوه فرنسيا، وأراده الله بطلا عربيا إسلاميا، حفظ لبلاده كرامتها وعزتها ومجدها؛ فشخصية محمد الخامس رحمه الله شخصية فريدة في التاريخ تحتاج في كل زمان إلى إبراز معالمها، يقول أبو بكر القادري:

"لا زالت شخصية محمد الخامس في حاجة إلى إبراز معالمها، وتحليل جوانبها التي تمثل الملوك الصالحين، الذين لم يجد الدهر بأمثالهم إلا في القليل النادر، وإذا كان الكثيرون من المغاربة والأجانب كتبوا وتحدثوا عن الأعمال الخالدة التي أداها لصالح شعبه، والكفاح المتواصل الدؤوب، الذي قام به طوال حياته، والتجاوب العميق الذي كان بينه رحمه الله وبين شعبه، فإن شخصية محمد الخامس ستبقى مع ذلك موضوعا يستثير للحديث عنه، وتعداد مزاياه ومفاخره، وستبقى هذه الشخصية محتاجة لكثير من التحليل، لتبرز البروز الواضح

ذ. عبد المجيد معلومي

المعالم، وليستطيع الباحثون، والدارسون، والمؤرخون، التعرف على مفتاح هذه الشخصية الفذة في التاريخ الحديث.¹

إن مفتاح شخصية محمد الخامس رحمه الله هي الإيمان؛ فقد كان مؤمنا بربه، مؤمنا بشعبه، مؤمنا بحقه، مؤمنا بنفسه، وكل المواقف التي وقفها في نضاله وجهاده كان يستمد قوتها من إيمانه وصدق يقينه.

وشاءت الأقدار الإلهية أن يكون محمد الخامس رحمه الله ملكا على المغرب في ظروف الحماية، وبذلك كان يشعر بثقل المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتقه. فكان دائما حريصا على أن يكون للسلطان رمز سيادة المغرب وقاره الديني والدنيوي، وأن يقع تكريس هذا المبدأ في التسيير اليومي للشؤون المغربية. وكان هذا الموقف الواعي النبيل يدعم شخصية المغرب بصفته دولة قائمة بذاتها في أشد ظروف الحماية قسوة وهي ظروف ما بين الحربين العالميتين.

انطلق محمد الخامس رحمه الله في مقاومة سياسة فرنسا، فكان سلاحه في مواجهة المستعمر الدين والقرآن مجسدا في عنصرين أساسيين: المساجد، ضمنها جامع القرويين، باعتبار أنها مواطن إقامة الشعائر الدينية، والكتاتيب القرآنية التي يلقي فيها أبناء المسلمين كلام الله ومبادئ دينهم.

خاض محمد الخامس رحمه الله معركة القرويين والتعليم الحر بنفس طويل، ونظر بعيد، وصبر وأناة، وكانت خطب العرش كل سنة مناسبة للتذكير بهذا الموضوع الذي يشغل حيزا مهما في تفكيره وبرامجه عمله، فكان مما قاله رحمه الله في آخر خطبة له يوم 18 نونبر 1952م:

"وقد علمنا ما كان للمعاهدة الدينية من أثر في حفظ الشريعة ودفع الشبهات عنها، وبث الأخلاق الفاضلة، ونشر العربية، فوجهنّا عنايتنا لجامعة القرويين التي كان لها الحظ الأوفر في المحافظة على كيان الحضارة الإسلامية، وإمداد البلاد بعلماء أعلام، كانوا مفخرة في تاريخ الإسلام. فما تركنا وسيلة ترد لها مجدها وتعيد إليها سمعتها إلا اتخذناها،

¹ - محمد الخامس ملامح من حياته وصور من جهاده لأبي بكر القادري، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، الطبعة الأولى (1415 هـ - 1995 م): ص 15.

ذ. عبد المجيد معلومي

فوضعنا لذلك نظاما توخينا فيه أن يسائر المعاهد الدينية الناهضة في البلاد الإسلامية، وطبقناه في جامع ابن يوسف وفي معهدي مكناس وطنجة. وكان أملنا أن يزدهر هذا النظام ويعم تطبيقه سائر المعاهد في أمد يسير، لولا ما يعترض هذا العمل من عراقيل نحن جادون في تذليلها.

يقول المؤلف البريطاني روم لاندو في كتابه:

"السلطان في المغرب هو أمير المؤمنين أي أنه يجمع بين المهام الدينية والدنيوية، وكان إيمان محمد الخامس يؤهله لذلك الدور، فلقد ترعرع في جو ديني جعله يستقي قوته الروحية من الإسلام. ولذلك فإن أداءه لصلاة الجمعة في المسجد كل أسبوع كانت تفرضه عوامل أهم من مجرد الواجب العرفي. وكان يؤدي صلاة الجمعة في المسجد الصغير المقابل لقصره في الرباط، كما كان يصلي بالناس في الأعياد عادة" كلما زار إحدى عواصم ملكه الأخرى: فاس، مكناس أو مراكش.²

وبذلك يعد محمد الخامس رحمه الله ملكا عظيما صنع تاريخ بلاده، فكان إلى جانبه ثلة من علماء المغرب الأبرار، حيث تخرج معظمهم من جامعة القرويين، فكان لهم موقف صارم وهو طرد المستعمر وإخراجه من أرض الوطن.

وجامعة القرويين - كما أسلفنا الذكر - كان لها دور في تكوين العلماء والمصلحين في مرحلة الاستعمار، ومنهم المفكر علال الفاسي وغيره، فكانوا يرون في توجههم الإصلاحي أن تكون الخطوة الأولى في بداية الإصلاح بعد طرد المستعمر هي محاربة الأفكار الهدامة الناتجة عن الأمية المسيطرة على العوام.

ولذلك كان هدف جامعة القرويين منذ تأسيسها هو التكوين العلمي والديني والثقافي والإصلاحي لطلبتها، وفعلًا خرجت نخبة من العلماء الوطنيين الأحرار الذين أسهموا في تحرير المغرب من عبودية المستعمر، وكان لهم الفضل في تنوير عقول الشباب المغربي الذين خاضوا معركة الكرامة. ولعل المفكر والعالم علال الفاسي واحد من هذه النخبة الوطنية المثقفة التي قامت بهذا الدور الريادي في تاريخ المغرب، وإن كتابه "النقد الذاتي" يقدم الصورة الجلية

² - محمد الخامس منذ اعتلائه عرش المغرب إلى يوم وفاته للمؤلف البريطاني روم لاندو، تعريب ليلي أبو زيد، منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت، الطبعة الأولى (1399هـ - 1979م)؛ ص 45 - 46.

لهذا التوجه الفكري والإصلاحي الذي كان يطمح إليه الوطنيون الأحرار من أجل تحرير البلاد مما ورثه في عهد الاستعمار من جهل وأمية وفقير مدقع، وتخلف شمل جميع الميادين.

وقد اهتم هذا الكتاب، بالإصلاح الاجتماعي خاصة باعتباره بوابة لإصلاح بقية الميادين الأخرى ولاسيما الإدارية والسياسية والقضائية، وركز في هذه الرؤية الإصلاحية الاجتماعية على عامل أساسي وضروري لا يمكن أن ينجح أي إصلاح بدونه، ألا وهو تعميم التعليم ومحاربة الأمية التي كانت آفة تهدد كل خطوة من أجل الإصلاح.

إن العلوم التي تلقاها العلماء الوطنيون الأحرار في جامعة القرويين وهي العلوم الإسلامية، والأدبية والفكرية، قد أسهمت في تكوين شخصيتهم.

وانطلاقا من هذا التكوين الموسوعي، قاموا بدورهم التاريخي الذي يحتم على كل عالم وصاحب فكر ودعوة أن يقوم به، وبذلك استطاع العلماء والمفكرون الأحرار أن يفكوا تلك القيود التي كبل بها المستعمر المغرب.

والمرحلة التي اجتازها المغرب في عهد الحماية هي مرحلة تتطلب بذل الجهود الجبارة، وتحمل الصعاب للحاق بركب الأمم المتقدمة التي جعلت العقل رائدا في كل إصلاح، والمغاربة بصفة خاصة والمسلمون بصفة عامة أحق بهذا المنهج لما في دينهم من دعوة لتحرير العقل والعمل به، ولما في تاريخهم من تجربة رائدة في التوفيق بين الدين والعلم على أساس لا يتعارض مع ما تدعو إليه الشريعة.

وهكذا بدأ العلماء والأساتذة وزعماء الحركة الوطنية يربون الأجيال في المدارس الحرة والمساجد والحفلات الدينية والوطنية تربية وطنية مستمدة من العقيدة الإسلامية الصافية، ويزودونها بطاقات روحية قوية، تهيئ الشباب وتعدده لمقاومة الاستعمار الدخيل وخوض معركة التحرير بإيمان قوي، وثبات نادر.

ولأجل المزيد من نشر الوعي الديني والوطني، والشعور القوي والثقة بالنفس، والصبر الإيجابي على المكاره، والاستعداد لبذل الدم والروح دفاعا عن العقيدة والدين والوطن والعرش، والاستشهاد في سبيل الثبات على المبدأ والتخطيط المحكم البعيد المدى لمقاومة الاستعمار مقاومة سياسية وفكرية، استعدادا للمقاومة المسلحة التحريرية.

ذ. عبد المجيد معلومي

وبما أن الكلمة والصحيفة والمجلة والدروس الإصلاحية بالمساجد تعتبر أهم أنواع المقاومة السياسية التي تزرع في النفوس الضعيفة قوة الإيمان، وتبعث فيها الحماس لمقاومة طغيان الاستعمار، نظم العلماء أو من يطلق عليهم الزعماء الوطنيون دروسا بجامعة القرويين في السيرة النبوية وتاريخ الإسلام البطولي.

ولما أتم الاستعمار احتلال أقاليم المملكة، بدأت المقاومة في شكلها السياسي بدءا من 16 ماي 1930 م عند صدور الظهير البربري الذي أريد منه تقسيم الأمة المغربية إلى عرب وبربر، وإلى المس بكرامة القبائل البربرية والتتقيص من إيمانها بإرغامها على التحاكم للعرف الذي يعارض في كثير من بنوده شريعة الإسلام، واللّٰه تعالى يقول: "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما"³.

وكثير من رجال القبائل البربرية علماء بالشرعية، حافظون لكتاب اللّٰه، ولا يرضون بحكمها بديلا. ولذلك قامت المظاهرات انطلاقا من معقل الإسلام جامعة القرويين، حيث احتشد الناس يقرؤون اللطيف المعروف: "اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير لا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر".

وشاع هذا اللطيف بصيغته فقرأه الناس في القرى والمدن، واعتقل بسببه كثير من علماء الشباب والشيوخ في الرباط وفاس وسلا ومراكش وغيرها. وكان ذلك منطلقا للعمل السياسي الذي تكونت من خلاله كتلة العمل الوطني التي قدمت مطالب مستعجلة للملك محمد الخامس رحمه اللّٰه والمقيم العام وذلك سنة 1934 م. ومن يومئذ والعمل مستمر ومتصل بين الملك الشاب وعلماء ومثقفي المملكة المغربية. وكان هذا الملك الشاب قبل مبايعته يدرس في ثانوية مولاي إدريس بفاس على نخبة من علماء أمته وفي مقدمتهم شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي المدغري، وهو من أجل العلماء الذين كونوا جيلا من شباب جامعة القرويين والذين ظلوا على صلة مع العاهل الشاب ينسقون معه العمل الوطني، وقد تكونت منهم فرقتان هما:

الحزب الوطني بزعامة علال الفاسي، والحركة القومية بزعامة محمد بن الحسن الوزاني، إلى جانب شباب منطقة الشمال الذين أسسوا حزب الإصلاح وحزب الوحدة.

³ - سورة النساء، الآية: 64.

ذ. عبد المجيد معلومي

وهؤلاء العلماء كانوا يرون في حكم الأجنبي مذلة وهوانا، وفي الاعتداء على حرمة المغرب عارا، لأن هناك أحداثا مأكرة تعاقبت على بلد المغرب، وخاصة اتفاق سنة 1904م بين فرنسا وبريطانيا حيث اتفقا على تنازلات متقابلة ومتعادلة بينهما، تنازلات تنص على إعلان بريطانيا اعترافها بأن لفرنسا بوصفها دولة مجاورة للمغرب أن تسهر على الهدوء، وتقدم مساعداتها لتحقيق الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والعسكرية التي يحتاج إليها، مقابل ما أعلنته فرنسا بأنها لن تعرقل عمل بريطانيا في مصر، ولن تطلب تحديد أجل الاحتلال البريطاني لها، وبعد ستة أشهر من توقيع الاتفاق الفرنسي البريطاني بدأت المفاوضات الفرنسية الإسبانية، وانتهت إلى اتفاقين أحدهما علني والآخر سري.

أما العلني فهو تصريح أقرت فيه اسبانيا أن من حق فرنسا السهر على الهدوء في المغرب، وتقديم مساعداتها إليه لتحقيق كل الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والسياسية التي يحتاجها، مع تأكيد الدولتين على تمسكهما بتمام السلطة المغربية تحت سيادة السلطان.

وأما السري فقد حدد منطقة النفوذ الإسباني في شمال المغرب، وأعطى لإسبانيا فيها من الحقوق ما أخذته فرنسا في الجنوب، ونص على إقامة وضع خاص في طنجة.⁴

وهكذا طالب المولى عبد العزيز بعقد مؤتمر دولي من شأنه أن يقضي على الامتيازات التي اعترف بها مؤتمر مدريد لفرنسا، ويقضي على كل معاهدة سرية بينهما وبين غيرهما من الدول، وأعطى أمره بأن يكون هذا المؤتمر في طنجة.⁵

وفعلا عقد المؤتمر، ولكن بالجزيرة الخضراء سنة 1906م بعد أن خرجت مفاوضات ومشاورات حول برنامجه ومكانه، وتناول المؤتمر الحديث عن الأمور الآتية :

1- مشكلة الأمن بالمغرب.

2- مشكلة تهريب الأسلحة.

3- مشكل إنشاء مصرف الدولة.

⁴ - تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب للدكتور محمد خير فارس، طبعة دمشق (1972م)، ص: 109.

⁵ - حضريات من الحركة الدستورية في المغرب قبل الحماية لعلال الفاسي، مطبعة الرسالة الرباط (د.ت)، ص: 208.

ذ. عبد المجيد معلومي

وإذا كان علماء القرويين قد استبشروا خيرا بهذا المؤتمر الذي اعترف بسيادة البلاد وسيادة السلطان، فإنهم كانوا يحسون بتضييق شديد على هذه السيادة بسبب بعض القرارات التي وافق عليها المؤتمر، ومن ذلك مثلاً:

1- إعطاء حق مراقبة تهريب الأسلحة لفرنسا في الحدود الشرقية، وإسبانيا شمال المغرب.

2- وضع مراقبة دولية على كثير من المشاريع الاقتصادية والعمرانية، الشيء الذي جعلهم يثورون في وجه الدسائس الفرنسية الاستعمارية، للمحافظة على وحدة المغرب وضمّان استقلاله، وفي ظل هذه الظروف الصعبة تنازل المولى عبد العزيز عن الملك لفائدة أخيه عبد الحفيظ، حيث تمت البيعة من طرف علماء القرويين الذين كانوا سبباً في خلق المقاومة المغربية، إذ كان روح النضال بين المواطنين في السهول والجبال، وفي البوادي والحوضر.

وبعد أن أعلن علماء القرويين بيعتهم للمولى عبد الحفيظ، قيدوا بيعتهم بالشروط الآتية:

- 1- النضال من أجل المحافظة على استقلال البلاد ووحدة ترابها.
- 2- عدم الاعتراف ببعض المقررات التي وافق عليها المؤتمر في معاهدة الجزيرة الخضراء، لأنها تتنافى مع المصلحة الوطنية.
- 3- استرجاع المناطق المغربية المحتلة.
- 4- طرد جيوش الاحتلال.
- 5- إلغاء الامتيازات الأجنبية.
- 6- عدم تدخل الأجانب في الشؤون الداخلية للبلاد.
- 7- العمل بكل جدية على إشراك الشعب المغربي في المفاوضات التي تقام بينه وبين بقية الدول الأخرى.

8- العمل على نشر العلم بين جميع المواطنين، واختيار أهل الصلاح والتقوى والورع للمناصب الدينية.⁶

إن بيعة علماء القرويين للسلطان تنص على أن الشعب المغربي محب للإصلاح، وتعبير المرحوم علال الفاسي: "ميثاقا قوميا ودستوريا من الطراز الأول".⁷

وأمام هذه المواقف الجليّة والشجاعة لعلماء القرويين، قامت سلطات الحماية بعمل مشين حيث حجزت هؤلاء العلماء وقادة الأحزاب سنة 1936، ووزعتهم على معتقلات في أطراف البلاد، وأخذت علال الفاسي إلى الكابون إحدى مستعمراتها في وسط إفريقيا، حيث ظل فيها تسع سنوات، وأخذت محمد بن الحسن الوزاني إلى قرية إتزر بالأطلس المتوسط، ويومئذ قامت حركة احتجاج وخرج الجمهور في مظاهرات صاخبة في شوارع فاس والرباط ومراكش ووجدة وغيرها من المدن المغربية، ولقد كان لهذه الإجراءات أثر عظيم في تكتل الجهود وتنظيم العمل الوطني، وسريان فكرة المقاومة في نفوس عامة الشعب المغربي.

وتتلاحق الأحداث ويضيق الاستعمار ذرعا من توسيع المقاومة السياسية والوطنية، وانتشارها في الأوساط الشعبية، كما ضاق الاستعمار أيضا من المواقف الصلبة الشجاعة والقوية التي كان يعارض بها علماء المغرب السياسة الاستعمارية.

يقول المرحوم عبد الله كنون:

"ومن الألفاف الخفية للمغرب أنه في الوقت الذي كانت قوى الشر والطغيان تأتمر به وتتآمر عليه، وقبل فرض الحماية الأجنبية والإعلان عنها سنة 1912م بسنة أي عام 1329هـ الموافق سنة 1911م كان قد استهل بالقصر الملكي بفاس المولود السعيد الذي يعيد إلى البلاد حريتها واستقلالها، فيحق في الاستعمال ما قيل: يدبر ابن آدم والقدر يضحك".⁸

وبعد أحداث الظهير البربري سنة 1930م الذي أشعل المظاهرات والاحتجاجات، انتخب العلماء أعضاء الوفد الذي سيرفع العريضة والمطالب لصاحب الجلالة، وكانوا عشرة، على

⁶ - إتخاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس لمولاي عبد الرحمن بن زيدان، المطبعة الوطنية بالرباط، الطبعة الثانية (1410هـ-1990م): 443/1.

⁷ - الحركة الاستقلالية لعالل الفاسي، طبعة شارع المنصور طنجة (د.ت)، ص: 96.

⁸ - موسوعة مشاهير رجال المغرب لعبد الله كنون، طبعة دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية (1414هـ - 1994م): 6/5.

د. عبد المجيد معلومي

رأسهم الشيخ عبد الرحمن بن القرشي. وفي 26 غشت 1930م سافر الوفد المنتخب إلى الرباط باستثناء السيدين : محمد علال الفاسي، ومحمد بن الحسن الوزاني بحجة تذرعت بها الإدارة المستعمرة، وهي أنهما سجنا معا في القضية البربرية.

وإذا ما رجعنا إلى الوثائق الوطنية، فسنجد أن المطالب المقدمة من العلماء تتضمن ما ورد في المجلد الثالث من مذكرات المرحوم محمد بن الحسن الوزاني:

1- احترام نفوذ جلاله السلطان أيده الله، وتثبيت سلطته الدينية والدينية، وذلك بجعل الولاة المخزنيين من قضاة، وقواد، وباشاوات، ومحتسبين، ونظار، وأمناء الأملاك مسؤولين أمام الحكومة الشريفة.

2- إصدار ظهير مولوي يجعل سائر الحواضر والبوادي خاضعين لحكم الشريعة.

3- تنظيم المحاكم الشريفة وإصلاحها وتولية الأكفاء فيها سواء الشرعية منها أو محاكم الباشاوات والقواد والمحتسبين، وتعميمها في سائر القطر المغربي، لا فرق بين حواضره وبواديه.

4- توحيد برنامج التعليم في سائر المدارس التي تؤسس لتعلم الأهالي سواء في المدن أو القبائل، وتعميم اللغة العربية التي هي لغة القرآن فيها، وتعميم تعليم الدين الإسلامي.

5- احترام اللغة العربية لغة البلاد الدينية والرسمية في الإدارات كلها، وكذلك في سائر المحاكم.

6- إيقاف حركة المبشرين على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم، ومنعهم من التجول بالقبائل والحواضر في الأسواق والمواسم، ونشر أي شيء يمس بكرامة الإسلام وحرمة النبي صلى الله عليه وسلم بأي نوع من أنواع النشر.

7- عدم التعرض لفقهاء الكتاتيب والمشارطين بالقبائل، وإعطاء الحرية للوعاظ والعلماء وشيوخ الطرق الصوفية للتجول بالأنحاء المغربية بقصد تعليم الناس أحكام دينهم، وحثهم على إقامة شعائره.

8- إسقاط جوازات التنقل بداخل المملكة المغربية، والاكتفاء عند التنقل بورقة التعريف الشخصية.

9- اعتبار جميع السكان الموجودين بالبلاد المغربية، ماعدا الأجانب، تحت رعاية مولانا السلطان وسلطته، خاضعين للمحاكم الشرعية والمخزنية التي تؤسس باسمه الشريف.

10- منح العفو العام على جميع المسجونين والمنفيين في سبيل هذه القضية، وعدم التعرض لكل من خاض فيها.

والواقع أن العلماء الذين ناهضوا السياسة البربرية، تعرضوا لكل أنواع الضغط والقمع. وكان من أثر هذا أن حرمت جماعة منهم من الاعتراف بشهاداتهم العلمية، بالرغم من نجاحهم في الامتحانات النهائية، كما فعل المستعمر مع الفقيه علال الفاسي الذي منع من ولوج القرويين رغم نجاحه حتى تدخل العاهل الكريم، ورفع عنه الحيف هو ورفاقه.

وقد قبل تدخل السلطان بارتياح من لدن علماء الشباب وغيرهم. وبعد انتصار الحلفاء على المحور سنة 1944م تقدم علماء الحركة الوطنية بوثيقة أعدها رجالها باتفاق مع محمد الخامس تطالب بالاستقلال، قدمت لجلالة الملك والمقيم العام، وقدمت أثناءها عرائض التأييد تحمل العديد من التوقيعات من جميع أطراف البلاد. ومن جميع الطبقات، مما كان له رد فعل عنيف من حكومة الحماية، فاعتقل العلماء والمثقفون والزعماء والموظفون السامون وفي مقدمتهم شيخ الإسلام محمد بن العربي العلوي الذي كان وزير العدل، وقدم استقالته احتجاجا على ما شاهده من تعسف حكومة الحماية، فأخذ ونفي إلى مسقط رأسه (مدغرة) حيث عاش هناك في حراسة سرية قرابة سنتين.

ولما انتهت الحرب ظل المرحوم محمد الخامس صامدا يلح على تلبية طلب الاستقلال الذي قدم له في 11 يناير 1944م، وزكاه الشعب المغربي بأسره.

ومنذ هذه الفترة بدأت المؤامرة الحاقدة ضد جلالته، فبدأت الاعتقالات في صفوف الحركة الوطنية من علماء ومفكرين، وامتلأت بهم السجون والمنايا.

تلك لمحات من ارتباط شعب المغرب بعلمائه الأبرار وأبطاله الكبار وعرشه العزيز المبني من حجارة الإيمان بحق الحرية والكرامة، ولا غرابة فهو عرش شيد على قواعد الإيمان بالله ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وحب الرسول وآله المنبثق من حب الله وطاعته، ولذلك لم يكن المساس بحقه في الوجود في متناول أحد مهما كانت قوته وجبروته، هو عرش

ذ. عبد المجيد معلومي

مبني على حب عقيدة التوحيد وما يواكبها من عدل ورخاء ومساواة وتضامن وتكافل، والله تعالى يقول في محكم كتابه:

"إن تتصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"⁹

اللهم ارحم فقيدي العروبة والإسلام جلالة الملك المغفور له سيدنا محمد الخامس الذي كافح ضد الاستعمار كفاح الأبطال، وناضل نضال المجاهدين الأبرار.

وارحم يارب محرر الصحراء، ومبدع المسيرة الخضراء، وباني المغرب الحديث جلالة المغفور له مولانا الحسن الثاني طيب الله ضريحه، وبوئه مقعد صدق عندك.

اللهم وفق وارث سرهما جلالة الملك المحبوب سيدي محمد السادس، واحفظه يارب بحفظك وارعه بعين عنايتك التي لا تنام.

واحفظ يا كريم صاحب السمو الملكي المحبوب مولاي الحسن وسائر الأسرة الملكية، وزده رشدا وتوفيقا، إنه سميع مجيب.

⁹ - سورة محمد، الآية: 8.

اهتمام جلالة السلطان محمد الخامس بالتعليم

ذ. أحمد بلخيري

خلد المغرب الذكرى الخمسين لعودة المغفور له محمد الخامس وإعلان الاستقلال، وحظيت هذه المناسبة بالكثير من الدراسات والتحليلات والندوات، تناولت دور محمد الخامس في الحركة الوطنية والمقاومة المسلحة، ودعمه لحركات التحرير، ووقفت معظم الكتابات على دلالات الذكرى لاستخلاص العبر والدروس.

ويندرج موضوع "اهتمام جلالة السلطان محمد الخامس بالتعليم" في اهتمام جلالة وحرصه المتواصل على نشر التعليم ودمقرطته باعتباره الركيزة الأولى في نهضة الأمم وتقدمها، وهو ما عبر عنه صاحب الجلالة محمد السادس.

إن احتفال الشعب المغربي بذكرى عودة جلالة الملك المغفور له محمد الخامس إشادة بالقيم المثلى التي جسدها محمد الخامس طيب الله ثراه.

- اهتمام محمد الخامس بالتعليم خلال فترة الحماية:

حرص محمد الخامس على إعطاء مسألة التعليم أهمية قصوى، إذ اعتبر أن نشر العلم، ومحو الأمية هي الوسيلة الوحيدة للنهضة. وأعطى المثل بنفسه كما يشير إلى ذلك الكاتب البريطاني "روم لاندر": "كان ذكيا. أي محمد الخامس - يميل إلى التأمل ويقبل على التحصيل، وغالبا ما كان ذكاؤه وبصيرته يلهمان الحل الصحيح"⁽¹⁾.

آمن محمد الخامس منذ اعتلائه العرش سنة 1927 وهو في سن السابعة عشرة، أن الطريق الصحيح للخروج من التخلف والحصول على الاستقلال، هو طريق التعلم. فآمن بأن تحرير الوطن يبدأ بتحرير المواطن من الجهل والامية.

ويظهر من خلال خطبه ومواقفه أنه خاض حربا لا هوادة فيها لنشر التعليم، كما يؤكد ذلك المغفور له الحسن الثاني في الكثير من أحاديثه: "لقد كان أبي مقتنعا اقتناعا

⁽¹⁾ - الحسن الثاني سيرة وأمجاد، منشورات جمعية رباط الفتح، 2000.

ينزل من نفسه منزلة الإيمان بأن التعليم له مركز الصدارة في قائمة احتياجاتنا" وكان لا يتعب من التكرار على مسامع السادة "ستيغ، Steeg" و "بونسو، Ponsot" الذين تعاقبوا على منصب الإقامة العامة :

"في عالمنا العصري هذا، ما من شعب لا يتقدم في ميادين العلوم العصرية والتكنولوجيا، إلا ويصاب بالتخلف والتقهقر".

لقد وضع محمد الخامس يده على العطب الذي أوصل الأمة إلى فرض الحماية عليها. فكان همه الأول تعليم أبناء شعبه، سالكا مختلف السبل، من محاربة الأمية، ونشر التعليم، وتعلم المرأة، وبناء المدارس، وتكوين الأطر، وإرسال البعثات التعليمية إلى الخارج.

- نشر التعليم وبناء المدارس :

أدرك محمد الخامس أنه ليس هناك تطور، طالما بقي التعليم مهملا، وردا على هذا الإهمال الفرنسي، شرع السلطان في بناء المدارس من ماله الخاص، وحث المواطنين على اتباع خطواته، واهتدى لطرق التمويل دون الاعتماد على الحماية، منتقدا سلوك الأغنياء وتبذيرهم قائلا : "كثيرا ما شهدنا بغاية الأسف تبذير الناس في الحفلات العائلية، كالأعراس وما شابهها، من الإنفاق الخارج عن كل حد، ولو أنفق الناس في سبيل التعليم نصف ما يصرفون في تلك المناسبات، لكان المغرب اليوم روضة من رياض العلم، ولتحلى شبابنا بحلية التهذيب والثقافة، التي تؤهله لنفع بني جنسه وبلاده، لذلك جعلنا أساس النهوض بالبلاد والجد وراء مصلحة العباد، الاعتناء بمعاهد العلم ونشر وسائله بكل ما نستطيع من الجهود".

ولم تذهب نداءات محمد الخامس سدى، فسرعان ما زف إلى الشعب المغربي بشرى افتتاح 28 مدرسة جديدة: "وإليكم إجمالا ما تيسر في هذه السنة من أعمال، أمكن الأمة أن تسعى سعيا حميدا، إذ فتحت بجهودها المتوالية ثمانية وعشرين مدرسة جديدة يتعلم فيها ما يقرب من خمسة آلاف تلميذ وتلميذة، وقد تقرر بناء مدارس متعددة احتفل بوضع حجر الأساس بمحضرنا إن أمكن وبمحضر ولي العهد مولاي الحسن أصلحه الله، والقصد من ذلك تشجيع العاملين وتحقيق البرهان للأمة المغربية جمعا، على كبير عنايتنا بالتعليم في كل سبله".

- الوضع التعليمي بالمغرب خلال فترة الحماية :

انصب اهتمام الحماية أولاً على تعليم الأوروبيين، فلم يتجاوز أعداد التلاميذ المغاربة بالتعليم الابتدائي الفرنسي 18 ألف تلميذ سنة 1937 من بين ساكنة تجاوزت خمسة ملايين. مما دفع محمد الخامس في خطاب العرش لسنة 1944 لانتقاد الأوضاع التعليمية التي يعيشها المغرب في ظل الحماية، محملاً إياها كامل المسؤولية في سياسة التجهيل التي تعتمدها في حق أبناء الشعب المغربي، الذي من حقه ولوج المدارس. فقال في إحدى خطبه: " ثبت لدى كل عاقل أن لا صلاح لأحوال البشر بدون انتشار العلم الحقيقي النافع، فهو أساس العمران ومنبع الرشاد لبني الإنسان ... يقدر عدد مسلمي المغرب الأقصى بثمانية ملايين، منهم ما يقرب من ربع هذا العدد فتيان وفتيات، يتعين علينا جميعاً، أن نعتني بتعليمهم وتثقيفهم، حتى إذا آن لهم أن يقتحموا بحار الحياة العملية، وجدوا في أنفسهم كل الاستعداد ليكونوا أعضاء عاملين، لا أثقالاً رازحين، فكم من هذين المليونين توجه إلى المدارس ؟ لا نجد منهم العشر".

- تعليم المرأة:

انتبه محمد الخامس مبكراً إلى ضرورة تمدرس الفتاة، وواجه الأمر بشجاعة عالية، متخطياً الأعراف والتقاليد السائدة، ودعاية المغرضين من المتواطئين مع الاستعمار، التي اعتبرت خروج الفتاة للتعليم خروجاً عن التقاليد. واتخذت سلطات الإقامة العامة من مشروع محمد الخامس تثقيف شعبه دون تفريق بين ذكوره وإناثه وسيلة من مؤامراتها المتعددة ضد السلطان. فقد طلب الجنرال جوان بمجرد حلوله بالمغرب، من بعض العلماء المناصرين لفرنسا إعداد فتوى تدين نشاطات العاهل التقدمية كفتح المدارس وتحرير المرأة.

ولم يقنع محمد الخامس رحمه الله للمرأة المغربية بالتعليم الابتدائي فقط، بل ألح أن تواصل الفتاة تعليمها الثانوي، مؤكداً على ذلك في خطاب العرش لسنة 1947: " ولنستكمل الجهود في كل سبل الإصلاح، أصدرنا أمراً الشريف بتأسيس تعليم ثانوي للبنات، إذ الابتدائي إنما هو الخطوة الأولى في تنوير أذهانهن، فلا مندوحة عن إيرادهن حياض ما يستكمل استعدادهن للقيام بمأمرية التربية والتعليم".

- مطالب الحركة الوطنية :

أثمرت جهود السلطان الدؤوبة ثماراً طيبة فأصبح التعليم قضية مشتركة بين محمد الخامس والحركة الوطنية، كما ظهر من خلال مطالب الإصلاحات المقدمة إلى جلالته وإلى

سلطات الحماية سنة 1934، حيث خص التعليم بأكثر من خمسين مادة تطالب فيها كتلة العمل الوطني بما يلي :

- تنظيم شؤون التعليم.
- إجبارية التعليم الابتدائي في الحواضر والبوادي.
- إحداث باكلوريا مغربية مساوية للباكلوريا الفرنسية.
- تخصيص الحصص الكافية لتعليم اللغة العربية والثقافة الإسلامية وتاريخ وجغرافية المغرب.
- تكوين إطارات المعلمين باللغة العربية.

وقد أدرك محمد الخامس المفارقة بين الخطاب الفرنسي وضحالة المنجزات التعليمية، فلم يتجاوز عدد الأطفال المدربين 145 ألف تلميذ في حين أن أعداد البالغين سن الدراسة كانت تفوق 1,8 مليون. كما انتبه محمد الخامس إلى هيمنة اللغة الفرنسية ومحاربة سلطات الحماية للغة العربية التي أصبحت مهمشة باعتبارها لغة أجنبية.

وللحفاظ على مكانة اللغة الفرنسية وضمان سيطرتها الثقافية عملت فرنسا على إفشال مقترحات محمد الخامس الذي كان يدعو إلى تأسيس لجنة مختلطة لوضع ميثاق تربوي بهدف تحسين الأوضاع التعليمية في البلاد، وإقرار مجانية التعليم وإجبارية الطور الابتدائي وإعادة الاعتبار للغة العربية.

- خطاب طنجة : البعد التعليمي في الخطاب :

كان خطاب طنجة قنبلة فجرها الملك في وجه الاستعمار، أربك بها مخططاته وترك آثارا بعيدة المدى على الصعيدين الخارجي والداخلي، ومما ورد فيه: "وكما علمنا أن لا حياة لهذه الأمة إلا بما تقدم به سلفها الكريم، أخذنا على عاتقنا نشر التعليم سواء منه الجديد أو القديم، فأخذت بحمد الله وكمال عونه كل النفوس تحس بحسن النتائج من تربيته وتطمح للمزيد، فتأسست مدارس يتلقن فيها الشباب المغربي بذور الصلاح، وأخذت تلوح في أفق الرشاد شمس الفلاح، واستيقظت الأمة متنبهة لحقوقها، وسلكت لإدراك مجدها أنفع طرقها".

- خطاب ولي العهد الأمير مولاي الحسن :

ذكر في مستهله بالوضعية التي أصبح يعيشها الشعب المغربي، مستهضا الهمم بدور المغفور له محمد الخامس في هذا المجال فقال : "فقيض لهم جل جلاله في فجر نهضتهم، ملكا أخذ من تراثنا الفكري كل ما كان سببا في ترعرع مدنيتنا وازدهار حضارتنا، واستمد من العلم العصري ما يؤهل الأمة المغربية لتبوء مكانها الممتاز بين الأمم وترفع رأسها عاليا بين الدول. فإذا زارها اليوم^(*) صاحب الجلالة ملك المغرب فما زيارته لها إلا تشجيع لرجالها المخلصين الذين شمروا عن ساق الجد وإحياء معاهد العلم الذي كاد ينضب معينه، وإعدادها لأخذ نصيبها من ذلك البرنامج الإصلاحي الشامل الذي تتلخص فصوله في كلمات ست، إسلام وعروبة، علم وعمل، وجدة وتعاضد".

- خطاب سمو الأميرة للا عائشة :

ذكرت فيه بالتضحيات التي قدمها الشعب المغربي والإنجازات التي حققها، ولاسيما في مجال التعليم ... من أراد الدليل فليجل الطرف في عشرات المدارس التي ارتفعت جدرانها بسرعة فائقة في حواضر المغرب وبواديها، هي أعمال مغربية بالرجال القائمين بها، مغربية بالبرامج المطبقة فيها، مغربية بالأموال المنفقة عليها، مغربية بالأهداف التي تسعى لتحقيقها، لقد فتحت التجربة عيون المغاربة وأنارت المعرفة أذهانهم.

- البعثات التعليمية وتكوين الأطر :

لم تقتصر جهود محمد الخامس على نشر التعليم، فقد أولى للعنصر البشري عناية خاصة تتجلى في كل خطبه، مرغبا الشباب في ولوج مهنة التعليم فقال في إحدى خطبه : "والذي لا نزال ندعو إليه كل الشباب المتعلم، هو الإقبال على وظائف التعليم، فزيادة على ما فيها من الأجر الديني، والشرف الدنيوي، فهو عنصر خدمة البلاد إذ لا يوجد تعليم بدون إعداد المعلمين، فإن معهدي القرويين وابن يوسف أخذا يخرجان جزءا وافرا ممن يتعاطى مهنة التدريس، ولكن لا نزال نطالب بالزيادة في هذا الضروري الحميد، ونحث الطلاب على توجيههم إلى مدارس المعلمين ليكونوا باجتهادهم وإخلاصهم جندا للثقافة والرشاد ويقوموا أساسا متينا لهيكل إصلاح العباد".

(*) - يقصد مدينة طنجة.

وألح في خطاب آخر على ضرورة إعداد المدرسين فقال : " وأهم المهمات التي لا نزال نحث عليها بإلحاح إعداد المدرسين لقوة احتياج البلاد إليهم، لا يتم لنا إصلاح حالة التعليم حتى نهئى المدارس التي ستشيدها الحكومة والأحباس والأفراد ... والسبيل الواحد لإعداد أولئك المدرسين هو إقبال جل التلاميذ على تحصيل شهادة التدريس، سواء الابتدائي أو الثانوي، بل حتى في النهائي"، إيماننا منه بأن جودة التعليم تتطلب الإعداد المتين لأطر التدريس.

- البعثات التعليمية إلى الخارج :

مع نهاية الحرب العالمية الثانية فكر محمد الخامس في تكوين الأطر العليا المغربية، ولمعرفته أن ظروف المغرب في ظل الحماية لم تكن تسمح بذلك، فقد عمل على إرسال بعثات طلابية إلى الخارج سواء إلى أوروبا أو بلدان المشرق العربي كمصر وسوريا، ومما قاله في ذلك: "وفتحنا بذلك تلك المنقبة العظيمة التي نستلفت إليها الأنظار، مؤملين من أغنيائنا أن يراعوها أحسن التفاتتهم، ويعتوا بها أشد الاعتناء، وهو إرسال أول بعثة مغربية للديار الفرنسية من الشباب المحصلين على الشهادة الثانوية ليواصلوا التعليم العالي هناك فيرجعوا بعد التحصيل بالشهادات والعلوم اللازمة، ليصعدوا بالمغرب إلى أعلى درجات الكمال، وجهنا عشرة من التلاميذ المسلمين الذين لا تساعدهم ماليتهم على مواصلة التعليم النهائي، وأسسننا في ذلك السبيل عشر منح من مالنا الخاص".

وكما هو معروف سيصبح العديد من أفراد هذه البعثة وزراء في حكومة مغرب الاستقلال وأطرا عليا ساهمت في قطاعات متعددة.

- إصلاح جامعة القرويين :

عاشت جامعة القرويين في ظل الحماية الفرنسية أوضاعا صعبة، ناصبتها الإقامة العامة العداء، وساهمت إلى جانب أسباب أخرى في إضعاف دورها التعليمي وإخماد إشعاعها التنويري، وأدرك محمد الخامس رحمه الله الوضعية التي أصبحت تعيشها القرويين وما يحاك ضدها، فبادر إلى سن إصلاح متكامل لها، شمل مناهجها وطرق التدريس بها، فألقى خطابا جامعا بجامع القرويين بتاريخ 25 جمادى الثانية 1362 الموافق 28 يونيو 1943 حدد فيه ملامح الإصلاح، نكتفي بإيراد مقاطع منه باعتباره وثيقة تاريخية للنهوض بالتعليم.

استهل محمد الخامس الخطاب بأفضال التعليم، ثم تطرق إلى الوضعية التي كانت تعيش عليها القرويين، فقال : "تعلمون الحالة التي وجدنا عليها التعليم بجامع القرويين، وما كان يهدده من الوقوع في هاوية الزوال، علماء يقلون وطلبة يتشتتون ... حتى أدركتنا العناية الربانية فوجهنا هممتنا لإصلاح الأحوال وتدارك مهجة العلم مما كان يهدده من الاضمحلال، فأسسنا المجلس الأعلى للعلوم الإسلامية ليباشر تحت إشرافنا إنشاء نظام جديد، فرتب مزاوله العلم في ثلاث طبقات، ابتدائية وثانوية ونهائية، وحدد لكل طبقة من يقرأ بها من العلوم، وعين المدرسين لكل واحدة منها ورتب الرواتب الكافية بعدما حصر الفنون والكتب التي تقرأ بها . بل أمرنا بكل ما يستطيع من الإصلاح المادي، وبإشرافنا افتتاح خزانة الكتب، أما مدارس سكنى الطلبة فلا يزال يدخل عليها الإصلاح المتواصل.

ثم صرنا نتابع هذا الرقي بنفسنا متعهدين بإصلاح النظام، قابلين ما يرد علينا من الآراء السديدة، فاتحين الإصلاح كلما سنحت فرصة للإصلاحات الجديدة".

وكعادته وحرصا من جلالته على المساواة بين الذكور والإناث في مجال التعليم أشار في هذا الخطاب إلى الموضوع بقوله : "وهناك أمر آخر نهتم به كل الاهتمام وهو تعليم بناتنا وثقيفهن، ولذلك أمرنا أن يؤسس لتعليمهن برنامج يوافق تعاليم الدين الحنيف ليضمن رقي الأمة".

كما تضمن الخطاب إرشادات وتوجيهات في غاية الأهمية إلى طريفي العملية التربوية، الطلبة والعلماء، يمكن اعتبار ما ورد فيها في حق العلماء نوعا من التعلم الذاتي والتكوين المستمر الذي تحرص عليه المناهج الحديثة في التربية: "فعلى العلماء ألا يكتفوا بإلقاء الدروس الاعتيادية، بل ينبغي لكل واحد أن لا يزال يجتهد في المطالعة، وتحسين طرق التدريس ويتابع الترقى في أسلوب التعليم، وأن يفتتم كل فرصة تسنح لتهديب النشأ، إذ لا غاية كحسن التربية.

وعلى الطلبة أن يفعموا قلوبهم بمحبة أساتذتهم، وتعظيمهم وتحسين ظنهم فيهم، فإنهم مهذبو أرواحهم والمجدون لتسيير فلاحهم، وليعلموا أن رابطة المحبة بين الأساتذة والطلاب من أمتن وسائل التحصيل".

ولم تمض سوى أربع سنوات حتى أشاد محمد الخامس في خطاب العرش لسنة 1947 بنتائج هذا الإصلاح قائلا : "ابتهجنا بما ظهر في جامعتي القرويين وابن يوسف من نتائج اعتناء المدرسين وحرص الطلبة بعدما سهل أعمال كل واحد ما أسسناه من حسن النظام وصالح التدبير، وقد أخذت بشائر الرقي تنتشر في كل البلاد حتى وفد على القرويين طلبة العلم من الجزائر والسودان ... على أن عدد الطلبة أخذ في نمو متزايد يشرح الصدر ويقوي الرجاء في نشر المعارف الإسلامية والحضارية العربية".

ونسوق هنا شهادة دالة على حرص محمد الخامس رحمه الله على تتبع الإصلاح الذي سنه لجامعة القرويين، وهي شهادة الأستاذ عبد الهادي بوطالب: "فإن الدرس الجامعي الذي ألقيته بحضرة السلطان محمد بن يوسف تكريما لأول فوج يتخرج من جامع القرويين بعد نظام الإصلاح. وكان السلطان يتغيا من حضوره معرفة نتائج هذا الإصلاح وجني ثمار ما زرعه باتخاذ مبادرة الإصلاح الذي انتزعه من الحماية"، ويضيف الأستاذ بوطالب قائلا : "لم يكن حضور المغفور له حضورا شرفيا فقط بل تتبع الدرس وحضر المناقشة، وإعجابا منه بالطالب وتشجيعا للتفوق، فوقع الشهادة العالمية وكتب عليها بخط يده جاء فيها "الحمد لله، سلمنا هذه الشهادة بيدنا الشريفة لصاحبها السيد عبد الهادي بوطالب، مجازاة على اجتهاده وتفوقه واعتناء منا بالعلم الشريف".

- اهتمام محمد الخامس بقضايا التعليم في مغرب الاستقلال :

شهدت السنوات الأولى للاستقلال حركة كثيفة في اتجاه بناء نظام وطني للتعليم، وعلى عادته خلال فترة الحماية شكل إصلاح التعليم وتطويره أولوية بالغة لدى محمد الخامس، وهو صاحب المقولة المشهورة "خرجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر".

- محاربة الأمية :

لم تتجاوز نسبة التمدرس في السنوات الأخيرة من الحماية 10 في المائة، ولذلك نظمت أول حملة لمحاربة الأمية قادها محمد الخامس سنة 1956 وشملت 250 ألف راشد.

- تعميم التمدرس :

بحصول المغرب على الاستقلال قررت الحكومة المغربية بتوجيه من جلالة محمد الخامس فتح باب التعليم لأكبر عدد من الأطفال، فعرف المغرب ورشا كبيرا لبناء المدارس

والأقسام، فكان ينجز سنويا ما بين 1000 و 1500 حجرة دراسية لاستيعاب الأعداد الهائلة من التلاميذ الذين توافدوا على مدارس الاستقلال، فانتقلت الأعداد الإجمالية للتلاميذ المغاربة من 232 ألف سنة 1954 - 1955 إلى 512 ألف سنة 1957 - 1958، كما عرفت أعداد التعليم الثانوي تطورا كبيرا حيث انتقلت من 9259 تلميذ سنة 1954 - 1955 إلى 131 ألف تلميذ سنة 1963. وانتقل عدد الثانويات من 12 إلى 56، وتضاعفت ميزانية التعليم أربع مرات ما بين 1954 و1962. وعرف التعليم العالي نفس التطور حيث انتقلت أعداد الطلبة المغاربة من 1000 سنة 1956 إلى 7000 سنة 1963، وتميزت هذه المرحلة بتوظيف عدد هائل من المدرسين ومنح آلاف التلاميذ .

وكانت خلاصة هذه الجهود أن انتقلت نسبة التمدرس الابتدائي من 17 في المائة سنة 1956 إلى 46, 7 في المائة سنة 1963 - 1964.

ولم يخل خطاب من خطب محمد الخامس رحمه الله من قضايا التعليم إيمانا منه أن كسب رهان التنمية واللاحق بركب الدول المتقدمة لا يتحقق إلا عبر التعليم وتكوين الأطر.

فقد أثار هذا الموضوع في خطاب العرش يوم 18 نونبر 1958، ومما قاله : "وغير خاف ما للتعليم من أثر فعال في التطور الاقتصادي والتقدم الاجتماعي، فمنذ استرجاع الاستقلال أصبح للتعليم في بلادنا هدفان هدف عام يتلخص في تعميم نشر الثقافة بين جميع الذكور والإناث، مع محاربة الأمية، وهدف مستعجل هو تكوين الإطارات الإدارية والتقنية والمهنية. وهذا ما حدا بنا هذه السنة إلى إعادة النظر في مقاصد التعليم وبرامجه ومناهجه".

- تربية ولي العهد المغفور له الحسن الثاني :

يمكن اعتبار التجربة التربوية الشخصية لجلالة محمد الخامس مع أبنائه الأمراء، خاصة مع ولي العهد، نموذجا معبرا لرؤيته التربوية، حيث شكلت مسألة تربية وتعليم ولي العهد أولوية قصوى لمحمد الخامس، فأعطى جلالته المثال بأسرته وفي مقدمتها ولي العهد، فأدخله الكتاب وهو في الخامسة من عمره، حفاظا على الهوية المغربية لاكتساب مهارات اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم، وتعلم أركان الإسلام. وفي سن السابعة خضع ولي العهد لبرنامج التعليم الابتدائي، فأثقن اللغة العربية والفرنسية وأنهى المرحلة الابتدائية بتفوق.

- إنشاء المعهد المولوي :

قرر جلالة الملك محمد الخامس سنة 1941 تأسيس المعهد المولوي بالقصر الملكي، وقد ضم المعهد كما يقول الأستاذ عبد الهادي بوطالب، قسماً ابتدائياً يدرس به الأمير مولاي عبد الله، وقسماً ثانوياً يدرس به ولي العهد الأمير مولاي الحسن. وكانا يخضعان لنظام داخلي رفقة عشرين تلميذا منتقنين من مدارس المغرب، من بين أكثر التلاميذ نجابة وأقواهم دراية وكفاءة، ينتمون إلى عامة الشعب، واختار جلالته نخبة من علماء المغرب للسهر على تدريس ولي العهد كالمرحوم محمد الفاسي والحاج محمد باحيني، وعبد الهادي بوطالب والأستاذ "رفيل (Ravel)، وهو ما أكدّه الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور عند الحديث عن المستوى الثقافي الرفيع للملك الحسن الثاني، فقال : "ومن المؤهلات التي يسرت لجلالته أن يصبح على درجة رفيعة من العلم والمعرفة، متانة البرامج التي وضعت لتعليمه، ومهارة الأساتذة الذين اختيروا بعناية لتطبيقها".

وسهر والده المرحوم بنفسه على تربيته وتعليمه من السنوات الأولى ابتدائي إلى السنوات الأخيرة العالية، كما اختار لتطبيق هذه البرامج نخبة من الأساتذة الذين اشتهروا بغزارة معارفهم وبراعة طرائقهم البيداغوجية، لا فرق بأن يكونوا مغاربة أو أن يكونوا أجانب، فبثوا في روعه محبة العلم والشفغ بالمعرفة.

وسلك جلالته خطة حازمة لا هوادة فيها، فكان يتفقد حجرات الدراسة بنفسه، ويشرف على الخطوات التي يخطوها ابنه على درب التعلم، ويطلع على النتائج الشهرية المسجلة في دفتره المدرسي، ويؤشر عليها بإمضائه الشريف مبديا ملاحظاته أو معقبا على ملاحظات المعلمين والأساتذة. ويرأس بنفسه اجتماعات مجلس المعلمين والأساتذة، كما يرأس حفلات توزيع الجوائز.

واشترط السلطان رحمه الله على الأساتذة وجوب معاملة ابنه كمعاملتهم لجميع التلاميذ الآخرين، ولم يكن يسمح للأمير أن يتمتع بأي امتياز خاص. وقد حدث في بداية 1947 وهي السنة التي اجتاز فيها مولاي الحسن امتحان القسم الأول من شهادة الباكلوريا، أن اشتغل مع والده في إعداد برنامج زيارة طنجة، فلم يحصل على نتائج جيدة في الامتحانات التجريبية لتلك الشهادة، ويتحدث الملك الحسن الثاني عن هذه الحادثة قائلاً : "لقد حضر رحمه الله إلى المعهد، فأخذ من غرفتي بعض الآلات التي كنت أتسلى بها، كالراديو

وبندقيات الصيد وآلات التصوير، وقطع سلك التلفون الذي يصلني بالأسرة والأصدقاء، وأمر مدير المعهد أن يبطل يومي الراحة الأسبوعية بالنسبة لي، حتى تصير أيام دراستي ومراجعتي متواصلة، وهو ما يصح فيه البيت،

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكْ حَازِمَا فَلْيَقْسُ أَحْيَانَا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

ويظهر من خلال سهر السلطان محمد الخامس على تربية ابنه مولاي الحسن ودوره الحازم في تكوين شخصيته أنه يعده لتحمل الأمانة الكبرى، وهو ما صرح به أثناء تنصيب مولاي الحسن وليا للعهد يوم 9 يوليو 1957. فقال: "ولا غرو فقد رببته على تعاليم الإسلام وطبعته بمكارم الأخلاق، وأدخلت في روعه الجد والرجولة، ثم أخذته بالتدريب وعجمت عوده بالتجريب". وخاطبه مرة أخرى قائلا: "إن مهمتك خطيرة، فيجب عليك أن تزداد في العلم والمعرفة. وقل يا بني دائما: رب زدني علما" وهذا التصور هو ما عبر عنه جلالة الملك الحسن الثاني في كتابه "ذاكرة ملك" فقال: "اعتقد أنه يتعين قبل كل شيء على الأب أن يكون مربيا من الدرجة الأولى، ثم بالإضافة إلى ما يلحق من مبادئ يجب أن تكون حياته اليومية مثالا ومراة، بطبيعة الحال يضاف إلى ذلك تربية مدرسية مرتكزة على الوعي والمسؤولية".

وبعد ارتقائه سدة الحكم وطوال فترة حياته ظل المغفور له الحسن الثاني يشيد بالدور الذي قام به والده في تربيته وتكوينه، ففي خطاب 9 يوليو 1963 بمناسبة عيد الشباب قال الملك الحسن الثاني: "وإني لأحمد الله وأشكره على ما من به علي إذ جعلني أتحد من ذلك الوالد المقدس الذي رباني صغيرا وأرشدني يافعا وأهلني شابا لتحمل الأمانة الملقاة على عاتقي، ولم يفتأ طيب الله ثراه طول حياته، يتتبع خطاي ويسهر على تكويني".

وتجسد نجاح تربية ولي العهد الملك الحسن الثاني، في تفوقه الدراسي كما تظهر شهادات أساتذته، فقد قال عنه الأستاذ عبد الهادي بوطالب: "كان حريصا على التعلم صبورا مثابرا على العمل الدراسي، كان متفوقا في الأدب الفرنسي والعربي، والجغرافيا والتاريخ، وكان مغرما بالمطالعة نهما في قراءته، وكانت مواد الأمير المفضلة هي التاريخ والأدب".

دعوة الحق

وقد تميز المغفور له الملك الحسن الثاني كما هو معروف بعمق الثقافة وسعة الاطلاع، كما يظهر في خطبه وكتابات وحواراته وندواته الصحفية، وقدرته الكبيرة على الإقناع والتأثير ومهاراته التواصلية.

- شهادة الملك الحسن الثاني في حق أساتذته :

من الخصال الحميدة المعروفة عن جلالة الملك الحسن الثاني احترامه وتقديره للأساتذة الذين أشرفوا على تكوينه سواء في المعهد المولوي أو في دراسته الجامعية.

وتظهر شهادته في حق الكثير منهم، ونوعية العلاقة التي ربطته بهم سواء أيام الدراسة أو خلال فترة حكمه، نبل خصاله وتقديره الحق لرسالة التربية والتعليم، كما أوضح ذلك الأستاذ عبد الهادي بوطالب قائلا : "كان احترام أساتذته أساس تربيته".

وتحدث الملك الحسن الثاني عن أساتذته الفرنسيين خلال فترة الحماية قائلا : "كانوا أناسا ممتازين حقا وكانوا يكونون نخبة ... لم يرتضوا أبدا أن تخدم السياسة الاستعمارية رسالتهم المبنية على تلقين المعرفة". ويسترسل جلالته واصفا العلاقة التي ربطته بأساتذته : "إن الفضل في إذكاء شعلة الحماسة في نفسي من أجل الكفاح الوطني يعود إلى ابن بركة ومحمد الفاسي، فإن مرحلة التعليم الثانوي هي المرحلة التي تتوثق فيها عرى الروابط الإنسانية بشكل سريع بين الأستاذ وتلميذه، وكل المغاربة سيؤكدون لكم أن الطبيب والأستاذ هما في مقدمة من يحظون بأكبر قدر من الاحترام والتقدير في مجتمعنا". وفعلا فقد حظي أساتذته بمكانة رفيعة في مغرب الاستقلال وتقلدوا مناصب سامية وعملوا إلى جانبه كمستشارين.

وظل المغفور له الحسن الثاني طيلة حياته مقدرا لأسرة التعليم منوها بوطنيته في الكثير من خطبه، ففي خطاب 9 يوليوز 1987 بعد إحداث نظام الأكاديميات قال : "يجب أن تكون مسيرة (الأكاديمية) من لدن أساتذة للتعليم الثانوي، سيسهرون بما عرف عنهم من إخلاص ونزاهة وتعلق بمهنتهم وتقدير لمسؤوليتهم".

وظل هذا الخطاب مصدر فخر واعتزاز لرجال ونساء التعليم.

مراجع المقال

- 1- الحسن الثاني سيرة وأمجاد ، منشورات جمعية رباط الفتح 2000.
- 2- الحسن الثاني : ذاكرة ملك ، كتاب الشرق الأوسط. د.ت.
- 3- العربي الصقلي (مشرف): مذكرات من التراث المغربي ج 6 / 1986.
- 4- المكي المروني : الإصلاح التعليمي 1954 - 1956 ، منشورات كلية الآداب بالرباط ط 1: 1996 .
- 5- المهدي بنونة: المغرب السنوات الحرجة ، كتاب الشرق الأوسط: ط 1: 1989 .
- 6- روم لاندر: محمد الخامس منذ اعتلائه عرش المغرب إلى يوم وفاته ، تعريب: ليلي أبو زيد ، ط3 ، 2000.
- 7- عبد الهادي بوطالب : نصف قرن من السياسة ، منشورات الزمن ، أكتوبر ، 2001.
- 8- عبد الكريم غلاب: تاريخ الحركة الوطنية ج1 ، ط3 ، 2000.
- 9- محمد عابد الجابري : إضاءات وشهادات ع 13 مارس ، 2003.
- 10- موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير ، الجزء الأول ، المجلد الثاني ، منشورات عكاظ الرباط ، 2005.
- 11- الندوة الدولية حول : محمد الخامس الملك الرائد ، جمعية رباط الفتح ، 1987.
- 12- ندوة فكرية دولية : جلالة المغفور له محمد الخامس: كفاح من أجل الاستقلال ودعم لحركات التحرير الإفريقية. منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير ، نونبر ، 2005.
- 13- الذاكرة الوطنية: عدد خاص: جلالة المغفور له محمد الخامس في عيون نساء ورجال الحركة الوطنية والمقاومة والتحرير. المندوبية السامية لقدماء المقاومين ، 2005.
- 14-la coste yves (sous la direction) L'état du maghreb. Le finneq, 1991.
- 15- Mohammed Ben El Hassan Alaoui, la Coopération entre l'union européenne et les payés du maghreb, Nathan, 1994.

البعد الاجتماعي للتنمية البشرية في فكر جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه

ذ. عبد العزيز تيلاني

أستاذ باحث بمديرية الوثائق الملكية

كان الإعلان عن إلغاء معاهدة الحماية الفرنسية واسترجاع المغرب استقلاله نقطة البدء في سلسلة من الإصلاحات الهيكلية لوضع الأسس الأولى التي سيقوم عليها مغرب المستقبل. وهكذا خطط جلالته الملك المغفور له محمد الخامس لبناء أسس الدولة المغربية الحديثة؛ فبالإضافة إلى تعزيز المحافظة على النظام، والأمن في البلاد، ومواصلة التفاوض مع الدول المستعمرة لاستكمال وحدتنا الترابية، وتأسيس الوزارات وتنظيم القضاء والصحة والتعليم، وتشجيع القطاعات الاقتصادية من فلاحية وصناعة وتجارة وخدمات، وفي خضم هذه الانشغالات حظيت الجوانب الاجتماعية بعناية ملكية متميزة.

إن المتتبع للخطب الملكية السامية لجلالة المغفور له الملك محمد الخامس، يلاحظ حضور الجانب الاجتماعي في جل هذه الدرر الفاخرة، ولتأكيد ذلك نقتطف فقرتين من درر جلالته الغالية في خطاب ألقاه جلالته بالرباط بتاريخ 5 محرم 1367هـ/ 18 نونبر 1947م،

جاء في الفقرة الأولى منه:

(... لم تقتصر جهودنا على تشييد هيكل المعارف، ولم تكن مجردة عن إعلان بنود الإصلاح الضروري في سبيل الإسعاف البشري الذي هو المقصود الأهم من كل الأعمال التي تعد من المقدمات، إذ الإحسان إلى بني الإنسان هو نهاية النهايات وإن أفضل الأمم هي المعتنية بضعافها والآخذة بيد رؤسائها. كما أن خير بيت بيت فيه يتيم يحسن إليه، إن أفضل الأوطان وطن يسهر فيه الغني على إغاثة المعسرين، ويرحم فيه المتعم كل المبلسين، حتى يمرح الجميع في مروج الكرم ويأمن ذو الفضل غوائل التحاسد والنقم، فيتحدوا جميعا في تأدية مواجب الشكر للمتفضل على سائر المخلوقات بموائد النعم...)

وجاء في الفقرة الثانية مانصه:

(... ومما أدخل علينا السرور العظيم ما وجدنا عليه رعايانا المتغيبين بالديار الفرنسية من حسن التعاضد والتكافؤ وإعانة المرضى والبائسين هناك، وبكل ارتياح شجعنا عملهم البار بقدر وافر من مالنا لما زرنا جمعيتهم الخيرية بالعاصمة الباريسية وشكرنا تعاونهم وحسن تآزرهم الثابت بينهم. ولما حللنا في الصيف الأخير بالعاصمة التجارية، وقفنا على بعض الخلل المتسرب في سبيل إغاثة البؤساء أرشدنا العاملين إلى إتقان وسائل الإحسان وتوحيد الجهود لمواساة الضعيف واللهفان، حتى يصيب الخير هدفه بأيسر طرق البر وأجمل بذل العاطف، فافتتحنا العمل ببذل إعانة وافرة من مالنا الخاص، وسرنا ما لبى به أعيان تلك المدينة نداءنا الشريف لتخفيف آلام الاضطراب وتسكين حرارة السغب، ذلك ما ندعو به في كل حين وفي كل مناسبة من مراعاة حقوق الضعفاء وموالة عوائد الإحسان إليهم، ويسرنا هنا أن نشير إلى أن كثيرا من رعايانا المخلصين قاموا على ساق الجد لإعانة المعوزين بكل مكان من إيالتنا الشريفة على نحو ما نظمناه بالدار البيضاء في دائرة الجمعيات الخيرية القديمة...)

لقد كان من أبرز القرارات التاريخية التي اتخذها المغفور له صاحب الجلالة محمد الخامس قدس الله روحه في الميدان الاجتماعي في عهد الاستقلال هو إحداث مؤسسة التعاون الوطني في يوم 26 رمضان 1376 هـ / 27 أبريل 1957 م، تكريسا لثقافة التضامن والتآزر والتعاون التي تستمد جذورها من قيم ديننا الحنيف وتقاليدنا العريقة. جاء في الخطاب الملكي السامي لجلالة المغفور له الملك محمد الخامس بتاريخ 5 أبريل 1958 بمناسبة الحملة الإسعافية التي نظمتها مؤسسة التعاون الوطني مايلي :

(.....وكان من حسن حظ الطبقة الفقيرة بهذه البلاد أن بزغت منذ عهد قريب مؤسسة التعاون الوطني في حلتها الجديدة، هذه المؤسسة التي أعدنا بناءها وتنظيمها على أسس جديدة، ووجهناها توجيهها يتفق ومصلحة البلاد العليا، ونظرا للمهمة الاجتماعية، السامية التي أنطناها بها فقد تولينا الإشراف على لجناتها العليا بينما أسندنا رئاسة مكتبها المركزي إلى ابنتنا الأميرة عائشة، وقد عاينتم ما تبذله الأميرة من جهود في هذا السبيل، يظهر بعضها في تنقلاتها حرصا منها على الوقوف بنفسها على سير أعمال الفروع المحلية وتنسيقها.

ومنذ قيام هذه المؤسسة وهي جادة في إسعاف المعوزين من مختلف سكان المملكة، وإعانة جميع المؤسسات الاجتماعية والجمعيات الخيرية التي تنضوي تحت لوائها، كما أنها

تمد يد المساعدة إلى آلاف اللاجئين من إخوانكم الذين أكرهوا على مغادرة ديارهم، والذين يتكاثر عددهم في شرق البلد وجنوبها....)

وقد أكد جلاله المغفور له الملك محمد الخامس في نص كلمته السامية التي ألقاها جلالته على أمواج الإذاعة بمناسبة أسبوعي التعاون الوطني، وذلك بتاريخ 24 نونبر 1959، على أهمية العمل الاجتماعي باعتباره وظيفة إنسانية إحصانية تسعى للرفع من قدرات الفرد وتعزيز دوره في المجتمع خدمة للتضامن الاجتماعي.

جاء في إحدى فقرات هذ الفر السامية مايلي:

(.... فمئذ أن أنشأنا تلك المنظمة وجعلنا مكتبها المركزي تحت رئاسة ابنتنا الأميرة عائشة وهي لاتألو جهدا في العمل لتخفيف حدة الضائقة التي تعيش فيها طائفة من إخوانكم الفقراء والمساكين، وتسعى بكل ما يتحلى به القائمون عليها من نشاط وإخلاص لإيواء شطر منهم داخل ملاجئ مع تقديم ما يلزم من كساء وغذاء وإسعاف وجمع طرف من اليتامى والصفار المنقطعين والمشردين في مياتم توفر لهم أسباب العيش مع تعليمهم وإعدادهم ليصبحوا مواطنين صالحين في المستقبل ولا يكونوا عالة على المجتمع، علاوة على الخدمات الاجتماعية المتنوعة التي تسديها المنظمة في ميادين أخرى...)

واعتبارا للمكانة المتميزة التي تحتلها هذه المؤسسة في السياسة الاجتماعية لجلالته، أشرف جلالته شخصا على لجنتها العليا وأسند رئاستها إلى فلذة كبده صاحبة السمو الملكي المرحومة بكرم الله الأميرة الجليلة للاعائشة التي تشكل رمز الكفاح والتضحية ونموذج المرأة المغربية الأصيلة التي ناضلت من أجل تحرير المرأة وانعتاقها من قيد الجهل والفقر والتخلف.

إن تكليف جلاله المغفور له محمد الخامس لصاحبة السمو الملكي بمؤسسة التعاون الوطني، وإشراك جلالته لعدد من الأمراء والأميرات في العمل الخيري والإنساني له معنى في غاية الأهمية؛ فهو تعبير عن التواصل العاطفي الدائم بين العرش والشعب، ودليل على اهتمام جلاله الملك بمختلف أبناء شعبه، وحرصه على استعمال مختلف الوسائل لتحسين ظروف عيش شعبه وهو ديدن سار عليه خلفه من بعده مما لايتسع المجال لذكر بعضه.

فمنذ أن تولت سموها هذه المهمة النبيلة، جعلت من ثقافة التضامن ومساعدة الفئات المعوزة وذوي الاحتياجات الخاصة هدفها الأسمى، حيث عملت صاحبة السمو الملكي قدس الله روحها آنذاك على إعادة هيكلة العمل الإنساني والخدمات الاجتماعية وفق منظور حديث، مما جعل مبدأ التعاون يعرف إشعاعا داخل الوطن وخارجه. لقد كانت المرحومة بكرم الله صاحبة السمو الملكي الأميرة الجليلة للاعائشة تجعل من المكتب المركزي الذي كان يوجد مقره بزقة ليمان بحي أكدا بالرباط، (غرفة عمليات) ترصد فيها كل الأحوال الاجتماعية للمواطنين عبر تراب المملكة من خلال مختلف المؤسسات والمراكز المحلية والإقليمية، وتعبئة كل الموارد المتاحة لتلبية الحاجيات الأساسية للفئات الأكثر فقرا، لقد كان سموها أول من يحضر في مكان الأحداث أو الكوارث، إذ شكل زلزال أكادير نموذجا لأعمالها الإنسانية حيث لعبت دورا مهما في هذا المجال، فقد شاركت ميدانيا في عمليات إنقاذ الضحايا إلى جانب صاحبة السمو الملكي الأميرة الجليلة للامليكة، رئيسة الهلال الأحمر المغربي.

لقد كانت صاحبة السمو الملكي للاعائشة تقوم بتنسيق كل الخدمات والأعمال الإنسانية على الصعيد الإقليمي مع اللجان الإقليمية للتعاون الوطني التي يترأسها عمال عمالات وأقاليم المملكة.

وبتأسيس مؤسسة التعاون الوطني في بداية عهد الاستقلال، دخل المغرب فترة الجهاد الأكبر الذي أعلنه جلالة الملك محمد الخامس في أول خطاب له بعد عودته من المنفى حيث قال جلالتة : (خرجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر). وقد تمثل هذا الجهاد في تنظيم العمل الاجتماعي وتوسيع نطاقه ليشمل كل المرافق والمؤسسات التي تتكفل بالفئات المحرومة والفقيرة.

فبفضل الإرادة القوية لعاهل البلاد والمساندة الشعبية التي عرفتها البلاد آنذاك، تمّ تفعيل دور التعاون الوطني كمؤسسة اجتماعية رائدة، ترمز إلى روح التماسك والتعاقد التي غدت الروح الوطنية للشعب المغربي، وفسحت المجال لكل شرائحه للانخراط في العمل التطوعي والخدمات الإنسانية بشكل عفوي في إطار التعبئة الشاملة. وكانت من بين الأسس والمقاصد التي أحدثت على أساسها هذه المؤسسة الاجتماعية أنها تعتبر بمثابة منظمة إنسانية اجتماعية تعمل على تقديم المساعدات للمعوزين من أبناء المغاربة وإعانة باقي المؤسسات

الاجتماعية والجمعيات الخيرية ومد يد المساعدة للاجئين والمتضررين من صروف الدهر ونوائبه، وتمول مراكز أبناء الشهداء وتسيرها وتشرف عليها، وتخفف من حدة الضائقة على الفقراء والمساكين، وتعمل على إيواء المشردين في ملاجئ يقدم لهم فيها ما يلزمهم من غذاء وإسعاف، وتجمع عددا من الأيتام والمشردين في ميّاتم توفر لهم أسباب العيش وإعدادهم لكي لا يكونوا عالة على مجتمعاتهم.

لقد أولى جلالة الملك محمد السادس أعز الله أمره عناية متميزة سيرا على نهج أسلافه الميامين للعمل الاجتماعي والإنساني الذي يتجلى في عدة مظاهر منها تلك المبادرة الطموحة والخلقة: (المبادرة الوطنية للتنمية البشرية)، التي تشكل أحد تجليات سياسة القرب والعناية بجميع الشرائح الاجتماعية وإدماج المناطق الأكثر هشاشة والانفتاح على مختلف الفئات وفعاليات المجتمع المدني، وهي طفرة غير مسبوقة لإبراز كفاءات وطنية جديدة من الشباب وتفعيلها في مختلف القطاعات، وتندرج هذه المبادرة ضمن رؤية شمولية تركز على مبادئ الديمقراطية السياسية والفعالية والتماسك الاجتماعي، من أجل تفعيل قيم التضامن عبر توسيع استفادة الفئات المعوزة من الخدمات والتجهيزات الأساسية لتقوية تماسك المجتمع. وتدخل في هذا المسار حملات التضامن من أجل القضاء على العوز والفقر، وإنشاء مؤسسة محمد الخامس للتضامن، وصندوق الحسن الثاني للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، ومؤسسة محمد السادس للنهوض بالأعمال الاجتماعية للتربية والتكوين. ونقتطف بالمناسبة فقرة من الخطاب السامي لصاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله المؤرخ ب18 ماي 2005 والذي أبرز فيه جلالته الأهداف السامية للتنمية المستدامة حيث قال حفظه الله :

(إن التنمية الفعالة والمستدامة لن تتحقق إلا بسياسات عمومية ضمن عملية متماسكة ومشروع شامل وتعبئة قوية متعددة الجهات، تتكامل فيها الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والثقافية والبيئية ...)

إن العمل الإنساني بالنظر إلى مايتطلبه من إثارة وتضحية ونكران للذات يعتبر مظهرا من مظاهر رقي المجتمعات ونضجها.

بيعة المدن والعواصم على عهد الدولة العلوية حتى القرن 19م: قراءة في النصوص ومقارنة في المضامين

ذ. أحمد الأزمي

كلية الآداب - ظهر المهراس - فاس

نسعى من خلال مشروع البحث هذا، الذي وطننا العزم على إنجازه وإبراز تمفصلاته ومضامينه بحول الله، إلى النباش والتتقيب في موضوع من أعظم المواضيع أهمية في تاريخنا الإسلامي عامة والمغربي خاصة، وهو البيعة ونظامها وعقودها. وتستمد هذه الأهمية القصوى مكانتها من أمرين أساسيين، أحدهما ذاتي، والثاني موضوعي.

أما الذاتي في البيعة، فهو ما نحسه في أعماقنا كمسلمين ومغاربة على وجه الخصوص، من حب وتعلق بكل مقدس له صلة بكتاب الله وسنة رسوله، لأن عامة الناس وخاصتهم عندما يبايعون أحدا من الناس، كان رسولا أو حاكما أو ملكا، فإنهم في الحقيقة يبايعون الله امتثالا لقوله عز وجل : (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما). وبما أن الخلفاء والأمراء والملوك والحكام بشكل عام، هم ظل الله في أرضه وخلفاؤه على البسيطة بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الواجب يفرض علينا طاعتهم والامتثال لأوامرهم استجابة لإرادة الله.

لقد جُبل المغاربة على طاعة الله ورسوله عبر تاريخهم الإسلامي، يشهد على ذلك تبجيلهم للشرفاء من آل البيت، وبذلهم الغالي والنفيس، وتعرض أنفسهم للأخطار الجسيمة من أجل حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول الشريف، منذ أن دخل الإسلام إلى وطننا العزيز. ومما يرمز إلى هذه الحقيقة أيضا، كثرة المساجد التي يتلى فيها كتاب الله وتؤدى فيها صلواته في كل ربوع البلاد، وهي المساجد التي تضم إليها، في المدن والبوادي، عددا كبيرا من الكتاتيب القرآنية حتى يتم إعداد النشء وتربيته تربية صالحة، أساسها الكتاب

د. أحمد الأزمي

والسنة وحب الله ورسوله وآل بيته. ومن مظاهر تشبث المغاربة بآل البيت أيضا، كثرة الأضرحة التي تأوي جثامين عدد لا يحصى من أولياء الله الصالحين، حتى قيل في هذا الموضوع، إن أرض المغرب تثبت الأولياء كما ينبت الكلاً. أما تجذر تعاليم مذهب الإمام مالك ببلادنا على امتداد القرون، وما تخرج من هذه المدرسة الفقهية من علماء ومتصوفة، كان لهم شأن كبير في الحفاظ على الكتاب والسنة والمساهمة في أمن البلاد واستقرارها، فيعتبر مظهر آخر كذلك من مظاهر تشبث الشعب المغربي بحبل الله وسنة رسوله.

تأسيسا على ما سبق، فإننا نحن المغاربة عندما نباع الملك ونوافق على أن يجلس على عرش المملكة، فإننا من الناحية الذاتية والإرادية، وكما نشعر بذلك في أعماق أحاسيسنا، نقوم بواجب ديني ووطني، وعيا منا بأن الذي نركيه ونبايعه يعتبر خليفة للرسول، وظل الله في أرضه، وعليه، فإننا بعملنا هذا، لا نرضي ضميرنا فقط أو ملكنا وإنما نرضي الله ورسوله بالدرجة الأولى.

الجانب الموضوعي في البيعة، هو ما له علاقة بالميداني، اليومي، الدنيوي، المعاملاتي إن صح التعبير. فالبيعة لغويا، مصدر بايع فلان فلانا يبايعه مبايعة. وتعني هنا المعاقدة والمعاهدة، وهي شبيهة بالبيع الحقيقي. ويقال بايعه وأعطاه صفقة يده، والأصل في ذلك أنه كان من عادة العرب إذا تباع اثنا صفق أحدهما بيده على يد صاحبه.

الجانب العملي الموضوعي الإجرائي في البيعة، يكتسي أهمية لا تقل خطورة عن الذاتي فيها. ذلك أن الإمام الذي نبايعه، ونثق فيه لإدارة شؤون البلاد الداخلية والخارجية، نعقد عليه أهمية كبيرة في تحقيق آمال وتطلعات الأمة التي بايعته، من حفاظ على العقيدة ودرء الأخطار الخارجية المحدقة بالبلاد، وتحقيق الأمن والاستقرار الداخليين، مع ما يرافق ذلك من عدل، ورخاء، ومساواة، وتعليم، وعناية اجتماعية.

ووعيا من المواطن، واقتناعا منه أن الملك أو الأمير المباع يدرك جيدا أنه طرف مهم، بل الأهم في عقد البيعة، فإن التلقائية التي تحركه لتزكية عقد البيعة لا تعادلها سوى التلقائية التي يعبر عنها وهو يصيح جذلانا فرحا: عاش الملك، عاشت الأسرة المالكة، وهذا يعني أن البيعة تعتبر عقدا مشتركا وملزما بين الطرفين: الملك من جهة، والرعية من جهة ثانية، أخذا وعطاء بينهما، بغية تحقيق الوحدة والاستقرار، والنهضة الشاملة للبلاد.

وبما أن السلطان ظل الله في أرضه، ولا يمكن للبلاد أن تجد توازنها إلا به، فإن بعض المراحل الانتقالية في تاريخ المغرب، بعد سقوط دولة وقيام أخرى، أو على إثر حروب ومات تحدث أحيانا بين أمراء الأسرة الحاكمة بسبب الوشاية والدسائس التي تحاك في محيط البلاطات، لصالح هذا الأمير أو ذاك، فإن الفوضى كانت تعم البلاد، ولا يمكن أن تسترجع عافيتها إلا باستعمال وسيلة البيعة المستندة إلى أسس شرعية. وهنا لابد من الإشارة بشكل عابر، إلى شيء بالغ الأهمية، وهو أن الأسرة الحاكمة في المغرب، على عهد الدولة العلوية بشكل محدد، لم تكن قط موضوع سحب ثقة أو تشكيك في مشروعيتها حكمها وقداسته، بل كانت النزاعات والحروب تنشأ من أجل مناصرة سلطان أو الإطاحة به لحساب آخر من الأسرة نفسها.

عندما نستقرئ تاريخ المغرب منذ قيام الدولة العلوية، نجد صمام الأمان، ومبعث الأمل في استرجاع أمن البلاد وطمأنينتها عقب كل فراغ سياسي، يتجلى في البيعة التي تتم في المدن الرئيسية، وعلى وجه الخصوص المدن العواصم، كفاس، ومراكش، ومكناس، والرباط أحيانا، خلال الفترة موضوع هذا البحث. وهي المدن التي ما أن تأخذ المبادرة بالإعلان عن بيعة أحد السلاطين حتى تسير باقي المدن والبوادي والقرى على المنوال نفسه، باستثناء حالات قليلة من البلدات والجهات الصغيرة التي تبدأ بالمعارضة ثم التردد لسبب من الأسباب، لكن سرعان ما تعود لتصطف مع الأغلبية المبايعة، إلى أن يتم الإجماع على ضرورة الالتزام بالطاعة والامتثال للأمير المبايع.

هذه المدن العواصم، وفي مقدمتها فاس ومراكش ثم مكناس، تمتلك على امتداد تاريخها ما يؤهلها لأن تكون كلمتها مسموعة في كل جهات البلاد، فهي تضم أشهر الجامعات والمؤسسات العلمية؛ كجامعة القرويين وجامعة ابن يوسف، وما يتفرع عنهما من معاهد ومؤسسات تسهر على التكوين والتأطير العلميين، مما يؤهلها لتخريج الأطر الضرورية في مجالات القضاء والتعليم، وتحقيق الاكتفاء الذاتي من الخريجين الأكفاء لضمان تسيير شؤون الدولة المغربية.

إن مدنا بهذا المستوى الأكاديمي، تحتضن بداهة عددا غير قليل من الفقهاء وعلماء الشريعة الإسلامية، بالإضافة إلى الشرفاء والأعيان والقواد وكبار الجنود. ومما لاشك فيه أن هذه العناصر البشرية مجتمعة هي التي تكون هيئة أهل الحل والعقد، يتقدمهم العلماء

المؤهلون بطبيعة الحال لمعرفة أهمية البيعة وأبعادها ومراميها انطلاقاً من الكتاب والسنة. ونظراً لثقة المغاربة على اختلاف شرائحهم ومشاربهم بعلمائهم، واعتيادهم الحصول منهم على كل الأجوبة التي يطرحونها عليهم بخصوص ما يعترضهم من نوازل ومشاكل تخص دينهم ودينهم، فإن القرارات السياسية لهؤلاء العلماء أنفسهم كالبيعة، وإصدار بعض الفتاوى من حين لآخر، لا تجد من قبل الرعية أي اعتراض، بل ترى في قبول ما قرروا وما أمروا به واجبا دينيا.

ومما يبرهن على الدور الرائد للمدن والعواصم في إصدار عقود البيعة وتدوينها، أن الأغلبية الساحقة من نصوص البيعات كتبت بهذه المدن، وبيد علمائها وعدولها الذين أشهدوا على ذلك، وبحضور الشرفاء والأعيان والقواد والرؤساء وكبار الجند. ونظراً لقدم مدينة فاس عن غيرها من المدن العواصم المغربية، فإن بيعة هذه المدينة كانت هي الأساس كما نقرأ ذلك في كتاب العز والصولة لابن زيدان بمناسبة شرحه لمفهوم البيعة حيث يقول: "البيعة عقد يضمن التزام طاعة السلطان الجديد، يمضيه من بيدهم الحل والعقد، ولهم كلمة مسموعة في الأمة من وزراء وعمال وقضاة وأمناء وشرفاء وعلماء وعدول وقواد الأجناد ورؤساء الحرف. وكان عقد البيعة يكتب أولاً بفاس في غالب الأحيان، وإذا بويع الملك الجديد في غيرها فلا تعتبر بيعته تامة وسلطنته شرعية إلا بعد اعتراف فاس به"¹.

بناء على ما سبق، وتأسيساً على الأدوار التاريخية والسياسية التي لعبتها المدن العواصم في موضوع البيعة، يمكن إدراك إسهامها الملحوظ وإنجازها الواضح في تحقيق وحدة البلاد واستقرارها على امتداد تاريخ المغرب الإسلامي عموماً، وتاريخ الدولة العلوية على وجه الخصوص.

من الواضح إذن، أن مشروع البيعة هذا، يراهن على إثبات الدور البارز والمهم الذي لعبته المدن العواصم في تحقيق وحدة البلاد واسترجاع طمأنينتها. فهل تسعفنا المصادر على تحقيق هذا الهدف؟ هذا ما سنحاول القيام به بالرجوع إلى أهم مصادر التاريخ المغربي مثل:

- إتحاف أعلام الناس، لعبد الرحمان بن زيان.

- الاستقصا، لأحمد بن خالد الناصري.

¹ - عبد الرحمان بن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية، الرباط 1962، ص: 401.

- الجيش العرمرم، لمحمد أكنسوس.

- العز والصولة، لعبد الرحمان بن زيدان.

- البستان الطريف، لأبي القاسم الزياني.

بالإضافة إلى ما نشر من نصوص البيعة في هذه الكتب المنشورة أو في غيرها، فإن ما لم ينشر منها عدد كبير، موزع بين المكتبات العامة والخاصة. ومما يؤكد هذا القول شهادة ابن زيدان هاته : "ولدينا بالمكتبة الزيدانية أشباه ونظائر لهذه البيعات لمولانا العلويين الأطهرين، من سائر المدن والشعور والقوى والأمصار المغربية، منها ما نشر في مؤلفاتنا التاريخية ومنها ما لم ينشر..."².

نظرا لهذه الوفرة من عقود البيعة المتضمنة في مصادرها المغربية، فإننا نأمل بحول الله، أن نعمل مستقبلا على الوصول إليها ووضع اليد عليها، وفق منهجية تروم جمع نماذج من نصوص كل مدينة من مدن العواصم على حدة، لمعرفة أهميتها والمساهمين في تحريرها، ونوعية الأسلوب واللغة والبلاغة المستعملة في تدبيجها، ومدى التطور الذي حصل في كتابتها شكلا ومضمونا مع مرور السنوات والقرون.

وفي نهاية مشروع هذا البحث، نقدم نموذجين من عقود البيعة، واحد من فاس خاص ببيعة السلطان المولى سليمان والثاني من مراکش له علاقة ببيعة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، على أن نقتصر على مقتطفات فقط من هذين العقدين.

1- عقد ببيعة أهل فاس للسلطان المولى سليمان :

من خلال قراءة بعض الفقرات من مضمون نص ببيعة أهل فاس للسلطان المولى سليمان بتاريخ 18 رجب الحرام عام 1206 هـ، يتضح مدى الحرص والصرامة في اختيار العبارات ذات الدلالة الشرعية، والالتزام بأحكام الكتاب والسنة في تحرير عقد البيعة، مع التنصيص على أهم الأطراف المساهمة في صنع الحدث. ومما ورد في هذا النص، بعد الحمدلة والصلاة على الرسول (ص) : "... ولما قضى الله سبحانه وله البقاء والدوام، بنزول ما لا بد منه من فجأة

² - نفسه، ص: 27.

الحمام، لمن كان قائماً بهذا الأمر العظيم³ وانتقاله إلى دار عفوه ورضوانه العميم، أسكنه الله فسيح جنانه (...) وجب على الناس نصب إمام، لقوله عليه الصلاة والسلام: "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"، فجالت أفكارهم وخاضت عقولهم وأنظارهم فيمن يقدمون لهذا المنصب الأعظم، ويسلك بهم السبيل الأقوم، فهداهم التوفيق والتسديد والرأي الصالح السديد، على من نشأ في عفة وصيانة ومروءة وديانة وعكوف على تحصيل العلم الشريف (...) مع نجدة ونباهة، وذكاء وفطنة ونزاهة، وعلو همة وقوة عزيمة وتدبير وسياسة، وخبرة بالأمور وفراسة (...) ذو الأخلاق الزكية والمآثر الطاهرة السنية، عالي القدر والشأن، فريد العصر ووحيد الأوان، أبو الربيع مولانا سليمان بن مولانا أمير المؤمنين محمد ابن مولانا أمير المؤمنين عبد الله بن مولانا أمير المؤمنين إسماعيل بن مولانا الشريف، فانعقد الإجماع من أهل هذه الحضرة الإدريسية وما حولها من البقاع على تقدمه وإمامته، واستبشروا بإمرته وخلافته، وبادروا إلى تعيينه وبايعوه بيعة انعقد على ألوية النصر عقدها (...)، حضرها الصدور والأعيان وأهل الوجاهة في هذا الزمان، وذوو الحل والعقد، ومن إليهم القبول والرد، من علماء وأعلام، وأصحاب الفتاوى والأحكام، وعظماء أشراف كرام (...) ورؤساء أجناد، والمتقدمين من كل ناد، من عرب البدو والحضر وجيوش العبيد والبربر، فانعقدت بحول الله مؤسسة على التقوى واشتد بها عضد الإسلام وتقوى، بيعة تامة، محكمة وفية العهود وثيقة الرباط، جارية عن سنن السنة والجماعة، سالمة من كل كلفة ومشقة وتباعة، رضي الله بها وارتضاها، وألزم حكمها بالسمع والطاعة وأمضاها، شهد بذلك الحاضرون على أنفسهم طوعاً، وأدوا إليه تعالى ما وجب عليهم شرعاً ... "إلى أن يقول كاتب العقد: "نصره الله ونصر به وأمات البدع والضلالة بسببه، ودمر به شيعه الجور والفساد، وأبقى الخلافة في بيته إلى يوم التتاد، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين (...) وفي ثامن عشر رجب الفرد الحرام من ستة ومائتين وألف من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام"⁴. وقد ذيل نص هذه البيعة بتوقيع عدد من الفقهاء، والعدول، في مقدمتهم: محمد التودي بن الطالب بن سودة المري.

³ - المقصود هنا وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

⁴ - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج8، ص 87 إلى ص 90.

2- عقد بيعة أهل مراكش للسلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن :

هذا نموذج مختصر من البيعة المراكشية من إنشاء وتحرير الفقيه العلامة محمد أكنسوس، لفائدة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن :

بعد الحمدلة والصلاة والسلام على النبي الكريم، وبعد مقدمة طويلة يقول محرر البيعة : "... أما بعد فهذه بيعة شريفة مباركة ميمونة، بها سعادة الدين والدنيا إن شاء الله مقرونة مضمونة، بيعة كريمة يصلح الله بها الأمة، ويفيض بسببها سحائب النعمة، ويشمل ببركاتها جميع الأقطار بكل رحمة، بيعة حسنية علوية إسماعيلية هاشمية محمدية، بيعة عاطرة تعبق في رياض البشائر أزهارها الفواحة الندية، بيعة صحيحة شرعية، ثابتة شروطها المرعية، بيعة لا يحوم حولها زيغ ولا طيش، يشيد بناءها الأئمة من قریش، فلا ينحل عقدها ولا ينقض عهدها.

حضرها العامة والخاصة، والملائكة الذين أصبحت بها البسيطة غاصة (...)، ما تخلف عنها أحد من أهل هذه الحضرة المراكشية وأحوازا وبواديها، ولا بقي أحد من أعرابها وبرابرها إلا حضر في ناديها وأجاب دعوة مناديها، من الشرفاء والعلماء والصلحاء والقضاة والعدول والكبار والصغار وكل فاضل ومفضول، وخصوصا الأعيان والرماة الذين هم لحوزة الإسلام أسوار وحماة ... إلى أن يقول : "... ثم إنه لما استأثر الله سبحانه بمولانا أمير المؤمنين وإمام المسلمين السلطان الهمام، المعتصم بالله مولانا عبد الرحمن بن مولانا هشام (...). واختار له في مقر رحمته من جملة حزبه وأوليائه فريقا (...). والله ثم والله لولا أنه خلف فينا خلفا صالحا وأتجر لنا متجرا رابحا، لكان من فقده تضيق الأرض بما رحبت (...). وتخرب الجبال هدا وتصد الأرواح عن أجسادها صدا، ولم يكن في النسب العلوي الطاهر، ولا في البيت الإسماعيلي الشهير الظاهر (...). إلا واحد قد اختص بجميع الكمالات البشرية وتفرد، وذلك الواحد هو الإمام المؤيد المنصور، أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين سيدنا ومولانا محمد ابن سيدنا ومولانا عبد الرحمن (...). فلذلك وقع الاتفاق على بيعته والدخول تحت طاعته والإذعان لكلمته، (...) فيا لها من بيعة تامة غاية التمام، محبوبكة على عادة أيمان البيعة وحدودها المحدودة، وشروطها المؤكدة في أقسامها المعدودة، ويا له من إمام، أسعد الله به جميع الأنام.

ذ. أحمد الأزمي

والله المسؤول سبحانه أن يبارك لمولانا فيما وهبه ويوضح في اتباع الحق وأفعال الخير مذهبه (...)، ويجعل النصر والظفر مصاحبين لأعلامه، والفتح والقبول عن يمينه وشماله ومن خلفه ومن أمامه، ويقر بولايته المباركة عيون ملة الإسلام، بجاء سيدنا ومولانا محمد (ص). قال ذلك وكتبه شاهدا على الجموع المذكورة بما فيه بإشهادهم قوة وفعلا⁵، العبد الضعيف محمد بن أحمد أكنسوس لطف الله به".

هذا، ويفيد صاحب الإتحاف، أن بيعة سيدي محمد بن عبد الرحمن البيعة العامة بعد وفاة أبيه مباشرة، كانت بمكناس في الساعة السابعة من يوم الثلاثاء فاتح صفر من عام 1276 هـ، وتبعهم على ذلك أهل فاس وغيرهم من الإيالة الشريفة⁶.

⁵ - عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط، ج3، ص: 375.

⁶ - نفسه، ص: 370.

السلطان المولى إسماعيل ودعوة ملوك أوروبا إلى الإسلام

ذ. رامى ربيع عبد الجواد
مدرس مساعد - كلية الآثار
جامعة الفيوم - مصر

كان السلطان المولى إسماعيل - رحمه الله - قد كتب له بحكم طول فترة خلافته والتي استمرت ما يقرب من سبعة وخمسين عاما (1082 - 1139 هـ \ 1672 - 1727 م) ، بالإضافة إلى سياسته الرشيدة في حكم البلاد ، أن تكون له اليد الطولى في اتساع العلاقات السياسية الخارجية بين بلاده وبعض دول أوروبا ، وهناك العديد من الوثائق المصدرة العربية والأوروبية التي تؤكد تلك العلاقات ، سواء فيما يتعلق بالنواحي الاقتصادية أو بشأن تبادل الأسرى أو العلاقات الودية وغيرها .

إلا أنه كان هناك نوع آخر من تلك العلاقات ، بعيدة كل البعد عن سياسات الدول مع بعضها البعض ، هذا النوع من العلاقات برهان جلي يكشف لنا عن بعض ملامح شخصية السلطان المولى إسماعيل الدينية وما كان عليه من علم ودين ، هذا النوع من العلاقات يتمثل في دعوة بعض ملوك أوروبا إلى دين الإسلام .

لقد احتفظت لنا بعض المصادر العربية - وكذلك الأوروبية - ببعض الرسائل التي بعث بها السلطان المولى إسماعيل إلى بعض ملوك أوروبا يدعوهم فيها إلى الدخول في دين الإسلام ، هذه الرسائل هي بحق شرف وفخر للمسلمين عموما وللمغاربة على وجه الخصوص . وسنعرض هنا لرسالتين من تلك الرسائل الدعوية ، الأولى كان قد بعث بها السلطان المولى إسماعيل إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، والثانية إلى ملك إنجلترا جيمس الثاني .

ولسنا في حاجة للتأكيد هنا على مدى سعة علم السلطان المولى إسماعيل بأمور الشريعة ، وفقه دعوة أهل الكتاب إلى دين الإسلام ، فمنطوق هاتين الرسالتين يكفي دليلا على ذلك ، وإنما الذي ينبغي التنويه إليه هو أن السلطان المولى إسماعيل بالإضافة إلى أنه حاكم دولة فإنه كان في ذات الوقت إمام دعوة ، سالكا في ذلك سبيل جده الأعلى محمد

ذ. رامى ربيع عبد الجواد

صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء الراشدين، في دعوته لملوك النصارى والقبط والمجوس إلى دين الإسلام، الأمر الذي لم نلحظه في الرسائل السلطانية المتبادلة بين حكام العرب والعجم في العهود الإسلامية المختلفة، والتي لم تكن تخرج عن الإطار العام لسياسات الدول مع بعضها البعض .

لعل في هذا منقبة جلية للسلطان المولى إسماعيل - رحمه الله - تعكس لنا مدى ما كانت عليه تلك الشخصية من علم وديانة متينة وسياسة راشدة مسددة، ويرد به في ذات الوقت على هؤلاء الأوروبيين - غير المنصفين - الذين اتهموه ووصفوه بما لا يليق، ولندع هاتين الرسالتين تتطقان بما يعجز اللسان عن النطق به .

الرسالة الأولى :

هذه الرسالة - كما سبقت الإشارة - كان قد بعث بها السلطان المولى إسماعيل لملك فرنسا لويس الرابع عشر، وهي على الرغم من أنها رسالة دعوية للدخول في دين الإسلام إلا أنها تكشف عن جوانب مهمة تعكس لنا العلاقات السياسية المتوترة بين فرنسا والمغرب في تلك الفترة على وجه التحديد، ولذلك نجد أن السلطان المولى إسماعيل اتبع فيها أسلوب التهديد والوعيد على خلاف ما فعل مع ملك إنجلترا عندما دعاه إلى الإسلام، وهذه الرسالة أوردها ابن الحاج في الدر المنتخب وهي غير مؤرخة ويفترض أنها كانت بعد عام 1093هـ - 1681م¹. ومما جاء فيها :

"... من عبد الله المتوكل على الله المفوض أمره إلى مولاه أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين ... إلى عظيم الفرنسية لويس المتولي قطرها ورياسة جنسه فيها والمدير أمرها، سلام على من اتبع الهدى ... أما بعد؛ فقد بلغنا وقيل لنا إن بعض النصارى من إخوانكم هنالك لما رأوا أحوال أصحابنا الذين كانوا لديكم في صلاتهم ودينهم ونظافتهم وطهارتهم استحسنا ذلك منهم وأعجبهم ومالت إليه نفوسهم، فليتهم رأوا المسلمين الذين هم على العناية من الاستقامة والديانة والعبادة والطهارة والنظافة والخشية، فوالله لو أنهم رأوا

¹ - هذا هو العام الذي وقعت فيه بين السلطان المولى إسماعيل ولويس الرابع عشر مهادنة، وكانت بشأنها مراسلات تحمل تاريخ ثلاثين يوليو من العام المذكور، وتتضمن هذه المهادنة ما يقرب من عشرين شرطاً - أغلبها يتعلق بأمور التجارة - يلتزم بها كل من الطرفين، وفي هذه الرسالة التي بين أيدينا ستأتي إشارة إلى تبرئ السلطان إسماعيل من مهادنة وقعت بين الطرفين والتي لعلها هذه المهادنة، الأمر الذي يرجح عندنا أن هذه الرسالة كانت بعد هذا التاريخ بفترة زمنية غير بعيدة .

ذ. رامى ربيع عبد الجواد

وأبصروا هؤلاء الذين هم على هذه الحالة المرضية حتى تتعب أكبادهم وتقشعر جلودهم، لدخول الإسلام في قلوبهم . وما أولئك الذين رأوا ، فهم بحرية ومن أطراف الناس ، وأما لو رأوا المسلمين الذين في بلادهم معتكفين على تهجدهم وقراءتهم وعبادتهم ، لودّوا أن لا يكونوا بشراً وأن يكونوا تراباً ولا يحبون كفراً ، ولعمري لو كنت من ذرية هرقل الذي خاطبه النبي صلى الله عليه وسلم بما نصه (...) فلو كنت من ذريته لأسلمت وكان الإسلام خيراً لك ، فما أنت عليه لا دين له ولا عهد ، وليس لما أنتم عليه من الدين من أساس ... ولقد تمنينا أن لا يكون البحر حال بيننا وبينكم حتى نقاتلكم على هذا الدين الحنفي العالي القدر ، وكيف نتعبكم عليه ونرهقكم عليه إلى تخوم أقصى الدنيا أو تسلموا كرهاً ، ولقد تمنى العرب الذين أكرمهم الله بالسعادة وطوقهم عز الدنيا والآخرة ووعدهم الحسنى وزيادة واختارهم لهذا الدين الكريم على غيرهم وأقامهم لنصرته والذب عليه دون سواهم ، ورجوا أن تكونوا معهم في أرض واحدة وفي بر متصل من غير بحر متلاطم أمواجه ليقاتلوكم حيث كنتم أشد المقاتلة ويغزوكم بالأهل والأموال والأولاد حتى يسبوكم بشن الغارة والرماح الطوال والسيوف الحداد والسهام الطويلة ، وقد فعل أسلافهم ذلك تقبل الله منا ومنهم عملهم ... ولكن هذا البحر هو الذي حال بيننا وبينكم وجعله الله سبباً لبقاء كفركم لما وعد الله جهنم أن يملأها بكم ومنكم ﴿إن وعد الله حق﴾ ، فلقد وعد الله الجنة أن يملأها ووعد جهنم أن يملأها فقال تعالى : ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ ، فالجنة يملأها بالمسلمين المؤمنين الموحيين ، وجهنم يملأها بالنصارى واليهود والمجوس والملحدين ، وأنا عبد الله نبعت بحول الله مؤمناً مسلماً موحداً ، ثم نرجو الله أن يثيبني وأن يتقبل مني وأن يطالعني على ما يكون فيه كبير النصارى من نار جهنم حتى نعرض عليه هذه الحجج التي ذكرت لك في الدنيا ، ويظهر لك ما قلت لك اليوم وما ندبتك إليه ونصحتك به وتبعت الهوى ، وهنالك يبدو لك طغيانك وكفرك وتندم حيث الندم لا ينفعك . فأسلم اليوم فهو أفضل من أن تموت كافراً وتمضي إلى جهنم خالداً فيها أبداً بلا افترا (كذا) . فلو تدبرت بعقلك وفكرت بذهنك لعلمت أن الله حق فرد واحد صمد ، وفي كل شئ آية تدل على أنه واحد ، لا شريك له ، وما اعتقدت أن عيسى ابن له ولا صدرت منك هذه المقالة ، والله تعالى منزّه عن الوالد والولد ، وليس يشبهه من خلقه أحد ، وقال تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾ ... فإنما هو واحد من عبيده تعالى وأصفياه وأنبيائه ولم يكن خاتم الأنبياء حتى يظن به أنه أعظمهم وأكرمهم ، وإنما خاتم

ذ. رامى ربيع عبد الجواد

الأنبياء نبينا الكريم عليه السلام ... وهو بالإجماع أفضلهم وأكرمهم على الله ... وأمته وإن كانت آخر الأمم كلها فهي أكرمهم وأفضلهم دنيا وأخرى، وأما أنتم فإنما أنتم ضالون ومضلون وتلعبون وتعبثون، وعلى غير دين وشريعة تموجون، قال تعالى فيكم: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْهُمْ أَضَلُّ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾، وقد نصحتك وحذرتك من نار ﴿جَهَنَّمَ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾، وأندرتك حيث أتى الله بنا في هذا الجيل الذي أنت فيه وأمثالك على الضلال والكفر، إذ النصيحة واجبة وأخاف أن يقول الله لي غدا لم لم تتصح وتحذر وتبشر ... وأعلم أنني لا أكاتبك إلا بمثل هذا الكتاب الواصل إليك، وإذا جاء الباشدور والبريد من مقامنا العالي بالله فلا يأتيك إلا بمثل هذا وعلى هذا، وهذا هو المعول عليه، والمهادنة التي كتبتم لنا بها وذكرتم في كتابكم إننا كتبنا لكم عليها فما عندنا موجب ولا سبب نهادنكم عليه ... وإذا وسوست لكم أنفسكم وحدثتكم أحلامكم بالنزول إلى هذا البر فافعلوا وأي موضع أردتم فانزلوا ونؤجل لكم شهرين أو ثلاثة قدر ما تنزلون بأخييتكم وعدكم وعددكم في أي ناحية أردتم إلا البنيان لا تجدون إليه سبيلاً ولا ندعكم تفعلونه وترون عاقبة أمركم، والله لصادمكم وقتلتكم إلا (كذا) المسلمون أهل التوحيد ولا يتركونكم ولا يقاتلونكم إلا الذين يلونكم ولا يبالون بمنع السلطان ولو كان عددهم أربعمئة ألف، وقس روحك ترى أمر الله الذي ينزل بك ... ومهما رأى أهل المغرب النصراني قتلوه وصيروه إلى جهنم، ولو علموا أنهم يموتون دونه، فتقدموا أو تأخروا في هذا إن شئتم، والخبر ما ترون لا ما تسمعون فنحن بعون الله حزب الله و﴿حزب الله هم المفلحون﴾".

الرسالة الثانية :

هذه الرسالة بعث بها السلطان المولى إسماعيل - كما سبق الإشارة - إلى الملك جيمس الثاني - والذي كان قد فر هارباً إلى بلاد فرنسا بعدما خلع من الحكم بعد أن قضى فيه حوالي ثلاث سنوات فقط بعد أخيه شارل الثاني - يدعوه فيها إلى الإسلام، ويسدي إليه بعض النصائح التي قد تعينه على الرجوع إلى حكم البلاد. وقد أوردها ابن زيدان في المنزع اللطيف، ومما جاء فيها :

... من عبد الله المتوكل على الله المفوض أمره إلى مولاه، الغني به عمن سواه أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين ... إلى طاغية الإنجليز القاطنين (كذا) ببلاد

الفرنسيس يعقوب المسمى بلسانهم جمس، سلام على من اتبع الهدى ... أما بعد، فإننا كتبنا إليك وأوردناه عليك وواصلناك بهذا الكتاب واعتنينا لك بهذا الخطاب لمسألتين اثنتين، أحدهما دينية والأخرى سياسية، وموجب إيرادهما عليك التنبيه لك والإيقاظ والنصح والإرشاد ... فالصواب الذي كان من أخيك والحق الذي كان يعرفه لنا هو سبب الكتب إليك مكافأة على صنيعه وهو الذي أوجب مكاتبتك بهذه المراسلة لتعرض عليك فيها الأمرين المذكورين أول الكتاب . فأما الدينية منهما ففيها خير الدنيا والآخرة لما فيها من إرشادك ونصحك إن وفقك الله تعالى، وذلك أن تعلم أن الله سبحانه جل جلاله وتقدست أسماؤه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحده ولا يشركوا به شيئاً، قال الله سبحانه: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يصوموا، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾، وهذه العبادة التي أوجب الله على خلقه لأبد لها من وسائل يبلغون عن الله لخلق ما أمرهم به، ومن رحمته بخلقهم ورأفته بهم أن جعل لهم وسائل بينهم وبينه من جنسه (كذا) أرسلهم إليهم من أنفسهم واختارهم من أنفسهم فبعث إليهم رسلاً يبلغونهم عن الله ما جاءوا به من عنده، فأمن بهم من أراد الله بهم سعادته، وكفر بهم من كتب شقاوته، وختمهم بخاتم أنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وسيد المرسلين، وجعل دينه خير الأديان وشريعته أفضل الشرائع وملته خير الملل ... ومما يجب اعتقاده أن الأنبياء كلهم يجب الإيمان بهم فلا نفرق بين أحد منهم، وأن المسيح ابن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام هو أحد الرسل الذين جاءوا عن الله من غير ادعاء مما تدعون ولا إطرأ مما تطرون ... وقال تعالى: ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً، لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾، ومن المعتقد أن المسيح رفعه الله إليه وأن اليهود لعنهم الله ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ... وقد عرف هذا جماعة من أعلام النصارى وملوكهم الذين هداهم الله ومن عليهم باتباعه كالنجاشي ملك الحبشة حتى عد من الصحابة وصلى عليه نبينا صلى الله عليه وسلم يوم مات وهو بأرض الحبشة، وهو أحد من خاطبه النبي صلى الله عليه وسلم ودعاه إلى الإسلام كما خاطب قيصر ملك الروم جد هذا الملك الذي لجأت إليه وأنت مقيم لديه، ولقد كتب إليه يدعوه إلى الإسلام فلما قرأ كتابه ووعاه وكان عنده من العلم المكنون ما عنده سأل من

ذ. رامى ربيع عبد الجواد

حضره من العرب عن صفاته وأحواله وسيرته وما يدعو إليه وما يأمر به وما ينهى عنه، فقال إنه النبي المنتظر الذي بشر به عيسى وسيملك موضع قدمي هاتين ... وها نحن قد أملينا عليك نبذة من الآية (كذا) القرآنية والأحاديث النبوية والدلائل المعقولة، المطبقة على أفضلية هذا الدين القويم، وغيره كله إنما هو في سواء الجحيم وأنت إن خمت مع رأسك وفكرت في نفسك واخترت الدار الآخرة على الدنيا ودخول الجنة على النار فأنت عرفت سبيلها فاتبع هذا الدين الحنفي وانطق بالشهادتين فإن من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، دخل الجنة ولو قالها مرة في عمره ويدخلها بشفاعه نبينا صلى الله عليه وسلم فإن له في أهل الكبائر والجرائم والذين نفذ الوعيد فيهم شفاعة عظمى خصه بها ربه في الموقف العظيم، ووالله إن أنت اعتقدت هذا الاعتقاد ووفقك الله إليه وعملت ما عمله قيصر من اعتقاده بقلبه وتيقنه به في نفسه حتى تحمد ذلك حالاً ومآلاً إن شاء الله ... والمسألة الدنيوية هي إذا أنت أحببت الإبقاء على دين الكفر فدين قومك الإنجليز أخف وأيسر عليك من عبادة الصليب ومتابعة الذين يجعلون لله الولد وينزهون عنه رهبانهم، وأي شيء رأيت في تغريبك عن وطنك (كذا) وبعذك عن بلدك وخروجك عن ملة أبيك وجدك وتدينك بغير دين قومك، وإن كان الجميع على ضلال فدينكم أنتم معشر الريكس أيسر من أولئك المتوغلين في الكفر، وحتى امرأتك الفرنسية التي كانت تحوزك على التعبد بدينها ها أنت الآن افرقت معها، فعلى ما أنت باق في جوار الفرنسي تارك ملتك وادع ملك أبيك وأخيك لغيرك، راض بالإفلامك يملك على جنسك وأنت بالحياة، فوالله ما أحببنا لداركم ولا لمملكتم يتولى رياستها الفلامك أو غيره، فالغ عنك ما تقدم بينك وبين قومك فإن الصواب معهم في الإنكار عليك بسبب الدين الذي اختلفت معهم فيه، واعتذر لهم وعاولدهم وراجعهم، ووالله لولا أنا أناس عرب لا معرفة لنا بالبحر أو كان عندنا من يحسن معرفته أو نستوثق به في الجيش ونطلقه في يده حتى نكاتب الإنجليز ونبعث لك من الجيش ما تدخل به عليهم وتتولى به ملكك، ولكن مسألة واحدة نعرفك إياها فحاول حتى تتصل من بلاد الفرنسيس واقصد لحوبة بلاد البرتغال وها زوجة أخيك البرتغالية اليوم هنالك، ولقد كان لها عند أهل ديوانكم وجه وكلام ومن هنالك تقرب المسافة بينك وبين قومك وتسهل عليك مناولة الكلام معهم لكن بحيث لا يكون للإفرنسييس بك شعور، وأما إذا عرفوا منك ذلك فلا يتركوك ولا يطلقونك لمسألتين، إحداهما لا يريدونك تترك دينهم وترجع إلى دين قومك، والثانية يخافون إنك إذا راجعت قومك ربما تعاديهم وتحاربهم لاسيما حيث عرفتهم وعرفت عزة بلادهم والملوك دائماً تحذر من مثل

ذ. رامى ربيع عبد الجواد

هذا ، وقد نصحنك وأريناك ما يليق بك في دينك ودنياك ووالله ما نكره لك الهداية والرشاد ، وقد بلغنا أنك تروم الوصول إلى رومة فأياك وأن تحدث نفسك بشيء من ذلك فإنك إذا دخلتها تحتل بها ولا تطمع بالخروج منها ولا في ملك بعدها أبداً ، فعلى كل حال إن أنت راجعت قومك ودينك تجد ما كان بيننا وبين أخيك ... وكتب في النصف من شعبان المبارك عام تسعة ومائة وألف".

انتهى منطوق هاتين الرسالتين ، ولعله لا يحتاج إلى تعليق لإثبات ما سبق ذكره من سعة علم السلطان المولى إسماعيل ورسوخ قدمه في علوم الشريعة وفي دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام ، مع مدى إحاطته كذلك بدقائق المسائل والقضايا التي كان عليها بعض ملوك أوروبا وما هي عليه أحوال بلادهم ، وهو الأمر الذي يكشف لنا وجهاً آخر من ملامح تلك الشخصية .

تشجيع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن لطلبة العلم بمدينة القصر الكبير

ذ. محمد المغراوي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط

تعتبر مدينة القصر الكبير من المدن ذات الماضي العريق، فقد تأسست في العصر الإدريسي على أنقاض مدينة رومانية قديمة كانت تسمى أوبيدوم نوفوم (Oppidum Novum)، وقد اتخذها الأمير الإدريسي إبراهيم بن القاسم قاعدة له في أواسط القرن الرابع الهجري، وبنى بها مسجدا يعتبر نواة جامعها الأعظم الذي ما يزال من أهم معالمها.

ومنذ عصر المرابطين الأخير بدأت الحركة العلمية تتعش بالمدينة، وازدادت خلال العصر الموحي حينما قصدتها مجموعة من المهاجرين من مدن غرب الأندلس مثل شلب ويابرة، وكان منهم عدد من العلماء والزهاد أمثال الشيخ أبي الحسن بن غالب الشلبي القرشي والسيدة فاطمة الأندلسية والشيخ عبد الجليل القصري وغيرهم. ويعود الفضل لهذه الشخصيات في نشر تقاليد علمية وصوفية صارت ملازمة لها على مر العصور، مما جعل السلطان أبا الحسن المريني يخصصها بتأسيس مدرسة علمية ضمن المدارس التي أنشأها بعدد من مدن المغربين الأقصى والأوسط.

ومما يعكس أهمية الجو العلمي والتعليمي الجدي الذي كان مخيما على المدينة منذ القديم، نبوغ العديد من أبنائها في المجالات العلمية المختلفة في كل مراحل التاريخ، إضافة إلى استمرار الاهتمام بالعلم لدى العديد من الأسر.

¹ - مثل طنجة وسبتة وسلا وأنفا وأزمور وأسفي وأغمات ومراكش ومكناسة وتازة وتلمسان والجزائر، واختص مدينة فاس وحدها بأربع مدارس. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن من مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريّا خيسوس بيغيرا، الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية، 1981، ص 405-406. وقام السلطان أبو عنان المريني فأوقف على هذه المدرسة أوقافا منها حمام قريب منها يعرف بحمام سيدي ميمون. وعمرت المدرسة المرينية بالقصر الكبير إلى حدود عهد الحماية الإسبانية حيث هدمت وبنيت مكانها مدرسة حديثة أصبحت تحمل اسم المدرسة الأهلية، وكان لها دور هائل في التعليم الوطني بالمدينة. غير أنها هدمت كلية في عقد الثمانينيات من القرن العشرين وبنيت مكانها دور للسكنى. وظلت بوابتها المرينية تقاوم عوادي الزمن بجوار الدور السكنية إلى أن هدمت أخيرا وذهب رسمها.

وقد وقفنا بالحوالة الحبسية لمدينة القصر الكبير على نسخة ظهير سلطاني فريد يعود إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، موضوعه مكافأة اثنين وعشرين من طلبة القصر الكبير المجتهدين لمساعدتهم على طلب العلم².

نص الظهير السلطاني :

"الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

يعلم من كتابنا هذا أسماء الله وأعز أمره أننا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته أمضيما ما عينه قاضي القصر في حينه السيد أحمد بن محمد الشدادي للطلبة الاثنيين والعشرين المقيدين يمنته، الذين أولهم السيد محمد البقالي وآخرهم الطالب محمد بن علي، من جعل مثقال واحد شرعي لكل واحد من أهل المرتبة الأولى وعددهم أحد عشر. وخمسة دراهم شرعية لكل واحد من الثلاثة الذين في المرتبة الثانية. وثلاثة دراهم وثلاث موزونات شرعية لكل واحد من أهل المرتبة الثالثة وعددهم أربعة. ولكل واحد من الأربعة الذين في المرتبة الرابعة عشر موزونات شرعية، إعانة لهم على تعاظمي العلم الشريف تعلمًا وتعلِيمًا بشرط المواظبة على ذلك، إمضاء تاما.

فنامر ناظر أحباس القصر ومنه أن ينفذ منها لكل واحد من الطلبة المذكورين ما جعل له تنفيذًا تاما.

صدر به أمرنا المعترف بالله تعالى في 22 شعبان عام 1289 هـ [يوافق 1872م]³.

لوبهامش نسخة الظهير السلطاني أسماء الطلبة حسب مراتبهم⁴ :

المرتبة الأولى : السيد أحمد البقالي، الطالب محمد الجلاف، الطالب الهاشمي الجباري، الطالب المفضل الجباري، الطالب الأمين الطود، الطالب المختار النسب [أي الطود]، الطالب الهادي النسب [أي الطود]، الطالب عبد القادر النسب [أي الطود]، الطالب محمد الشدادي، الطالب العربي الغرابلي، الطالب الطيب بوفنار.

² - وردت نسخة أخرى من هذه الوثيقة لدى الأستاذ محمد أخريف في كتابه : القصر الكبير : وثائق لم تشر (ج2).

منشورات جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير، 2004، ص 52.

³ - ما بين معقوفتين إضافة من الباحث.

⁴ - ما بين معقوفتين إضافة من الباحث.

المرتبة الثانية : الطالب محمد الدغاي، الطالب محمد العربي الجباري، الطالب بوسلهام الرزامي.

المرتبة الثالثة : ولد الفقيه بن العربي، الطالب محمد بن محمد المجول، الطالب محمد الغرابلي، الطالب جلول القادري.

المرتبة الرابعة : الطالب محمد بن مسعود الأنجري، الطالب أحمد النسب [أي الأنجري]، الطالب محمد بن امحمد المجول، الطالب محمد بن علي العبراق. الجميع اثنان وعشرون".

مصدر الوثيقة :

وردت هذه الوثيقة بالحوالة الحبسية الجديدة لمدينة القصر الكبير، وهي محفوظة بنظارة الأوقاف بالمدينة.

تعريف الحوالة الحبسية :

تعتبر الحوالة الحبسية⁵ مدونة وثائقية شرعية رسمية، فهي سجل ضمت فيه الوثائق الحبسية المختلفة خوفا عليها من الضياع إذا بقيت متفرقة. وفي هذا الصدد يقول العلامة سعيد أعراب : "وتعرف اليوم بالحوالات الحبسية، لأن وثائق الحبس حوت ونقلت إليها، وكان كلما تجمعت أملاك وأوقاف دونها القاضي بنفسه، أو أمر بعض العدول البارزين لديه بتدوينها"⁶، وقال شيخنا العلامة سيدي محمد المنوني رحمه الله عن الحوالات الحبسية حسبما ذكر الأستاذ عمر الجيدي رحمه الله: إن "أقدم المعروف منها يرتقي إلى أيام المرينيين، ثم تتكاثر تدريجيا وتكثر مع العصر العلوي"، كما أكد المؤرخ الدكتور

⁵ - أولى الباحثون في التاريخ أهمية بالغة للحوالات الحبسية فأنجزت حولها بحوث عديدة عرفت بقيمتها واستفادت مما تختزنه من معلومات تاريخية وحضارية، منها على سبيل المثال كتاب الأستاذة رقية بلمقدم : أوقاف مكناس في عهد مولاي إسماعيل، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، جزآن، 1413هـ/1993م، ج 1، ص 103- 104 : وكتاب الأستاذ عبد الحق ابن المجدوب الحسني : الحالة الاجتماعية بفاس في القرن الثاني عشر الهجري من خلال الحوالة الإسماعيلية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، جزآن، 1427هـ/2006م، ج 1، ص 25- 42 : وكتاب الأستاذ مصطفى بنعلة، تاريخ الأوقاف الإسلامية في عصر السعديين من خلال حوالات تارودانت وفاس. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، جزآن، 1428هـ/2007م، ج 1، ص 82- 84 : فضلا عن العديد من الدراسات المنشورة في مجلات علمية.

⁶ - عمر الجيدي، "الحوالات الحبسية مصدر أساسي للتعرف على التاريخ الحضاري للمغرب"، دعوة الحق، العدد 242، ربيع 1، 1404- نونبر، 1984.

عبد الهادي التازي "أن أقدم ورقة ما تزال شاخصة بتاريخها المسجل كتابة بخط واضح مقروء على العموم متأكدة، وهي تتضمن لائحة بالربع المستدرك الشراء عام 893هـ، ثم حوالة عام 904هـ"⁷، وأكد الأستاذ سعيد أعراب رحمه الله "أن هذا التدوين مر بمراحل، تبتدئ المرحلة الأولى من نحو 980هـ/1012هـ، على يد القاضيين أبي العباس ابن عرضون (ت992هـ) وأخيه أبي عبد الله (ت1012هـ)، اللذين يرجع إليهما الفضل في تنظيم هذه الأوقاف والسهر عليها، بعد أن دوناها في كنانيش خاصة، وجعلها حجة أمام المحاكم تقضى بها الحقوق"⁸.

وتعد الحوالات الحبسية مصدرا غنيا بالمعلومات المختلفة التي تمس مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والشرعية، وتمدنا بتفاصيل عن خطط العديد من المدن المغربية وترسم ملامح من تطورها العمراني، كما تمدنا بمعطيات طوبوغرافية غنية وفريدة.

حوالات أحباس القصر الكبير :

تتوفر مدينة القصر الكبير على حوالتين حبسيتين بنظارة الأوقاف بالمدينة، إحداهما متلاشية وهي على جانب كبير من الأهمية التاريخية، بينما تم تجديد الأخرى على سنوات وهي مصدر الوثيقة المدروسة هنا ؛ كما توجد حوالتان أخريان بكل من خزانة القرويين بفاس، والخزانة الوطنية بالرباط ضمن مصورات جائزة الحسن الثاني للمخطوطات. وقد وقفنا في الخزانة الحسنية على بعض الوثائق الحبسية المتعلقة بالقصر الكبير.

لم يسبق للحوالات الحبسية القصرية أن خضعت لدراسة مفصلة، لكن تم اعتمادها في عدد من البحوث في جوانب مختلفة مثل بحث الأستاذ محمد القرقر حول "إسهام العلماء في معركة وادي المخازن"⁹، وبحثنا حول "الحوالة الحبسية لمدينة القصر الكبير : دراسة تاريخية"¹⁰.

⁷ - عمر الجبدي، "الحوالات الحبسية مرجع سابق.

⁸ - عمر الجبدي، "الحوالات الحبسية"، مرجع سابق.

⁹ - قدم رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية.

¹⁰ - قدم في اليوم الدراسي حول "الإثبات في المادة الحبسية"، الذي نظمته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، يوم 28 يونيو 2005، (غير منشور).

تعتبر الحوالة الحبسية لمدينة القصر الكبير، التي عثرنا بها على الظهير المدروس، أحدث حوارات المدينة، وتتضمن عددا لا بأس به من الوثائق الشرعية المتعلقة بالأوقاف. وهي حوالة تم تجديدها على مراحل متعددة، وتعود أغلب وثائقها إلى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، بينما تحمل أحدث وثائقها تواريخ تصل إلى السبعينيات من القرن العشرين.

وهذه الحوالة، بجانب أهميتها القانونية في إثبات الحقوق الحبسية، تعتبر وثيقة تاريخية يعتمد عليها المؤرخ لدراسة الماضي ولإستخراج فوائد تاريخية يعسر الحصول عليها في المصادر التاريخية التقليدية، نظرا لطبيعتها ونوعية المعلومات التي تتضمنها حول مدينة القصر الكبير.

صنفت هذه الحوالة حسب أوقاف كل مسجد من مساجد المدينة وعددها 25 مسجدا وضريحا واحدا. وبما أن معلوماتها رسمية وذات صبغة قانونية فإنها على جانب كبير من الدقة والتوثيق، وتفيد البحث التاريخي في التعرف على عناصر ذات صبغة تاريخية واجتماعية وقانونية ولغوية منها :

- المؤسسات الدينية والتعليمية (الجوامع والمساجد والأضرحة والزوايا والكتاتيب) وطبيعة الأملاك المحبسة عليها.
- وحدات الشبكة الحضرية القديمة للمدينة من دروب وأزقة وساحات وقناطر وفنادق وطرقات وأسواق وغير ذلك.
- عناصر من البنية العقارية بالإشارة إلى الملكيات الخاصة والمخزنية والوقفية، والجوار وتجديد الأبنية وغير ذلك من المعطيات.
- أسماء القضاة والعدول والمحتسبين ونظار الأوقاف والأئمة والعلماء والفقهاء والمدرسين.
- إفادات طوبونيمية حول أسماء أحياء المدينة ومعالمها¹¹.
- إفادات أنثروبونيمية فريدة تتعلق بأسماء الأشخاص من المسلمين وأهل الذمة ، وأخرى إثنونيمية تتعلق بالأسر والقبائل وغير ذلك.

¹¹ - انظر بحثنا : "الذاكرة الجماعية والمجال بمدينة القصر الكبير"، ضمن : القصر الكبير والأندلس : التراث التاريخي والتهيئة الحضرية، نشر الجماعة الحضرية لمدينة القصر الكبير، الرباط، 2010، ص 39-90.

- طبيعة عقود التحسيس وصيغها وشروط المحبسين.
- المصطلحات التاريخية المستعملة في الفترات التاريخية التي كتبت فيها الوثائق.
- وتيرة وتواريخ التحسيس.
- طرق استغلال الأملاك الحبسية.

ومن هذه المنطلقات تعتبر الحوالات الحبسية الخاصة بالقصر الكبير ذات أهمية بالغة في التأريخ للمدينة، لكونها من أهم المصادر المكتوبة التي تتضمن في الغالب معلومات فريدة يتعذر الحصول عليها من مصادر أخرى، وهي وإن كانت متأخرة نسبيا فهي تعطي أكثر ما يمكن من المعلومات التي تساعد على فهم تطور حركة التحسيس واشتغال مؤسسة الأوقاف من خلال تسجيل أسماء أملاك الأقباس المنسوبة لكل مسجد أو زاوية أو ضريح وتحديد كيفية استغلالها وحالتها وما يطرأ عليها.

مضمون الوثيقة وسياقها :

يعتبر هذا الظهير من الوثائق النادرة التي تؤكد اهتمام الدولة المغربية، ممثلة في شخص السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، بتشجيع الحركة العلمية بالبلاد، حيث يبين الظهير السلطاني أن قاضي القصر الفقيه السيد أحمد بن محمد الشدادي رفع خطابا إلى السلطان يلتمس فيه تقديم منحة دراسية لعدد من طلبة القصر الكبير يستعينون بها على طلب العلم، وحدد لائحة تضم اثنين وعشرين اسما، مقسمين إلى أربعة مستويات متفاوتة. وقد لقي الاقتراح استحسانا من السلطان فأصدر أوامره بتزكية هذه المبادرة، فأمر ناظر الأوقاف بالمدينة بصرف مكافآت مالية للطلبة المذكورين حسب الدرجات الأربع التي رتبوا فيها.

وتدل مبادرة قاضي القصر السيد أحمد بن محمد الشدادي على الدور الحيوي الذي كان القضاء ينهضون به في رعاية الحركة العلمية وتتبع مساراتها، وتشجيع النجباء من طلبة العلم، حرصا منهم على رفع مستوى الطلبة الذين ستؤول إليهم الوظائف الشرعية والتعليمية بعد حين.

لقد حدد الظهير السلطاني قيمة المنحة المخصصة لكل فئة من الطلبة الاثنيين والعشرين، وهي كما يأتي :

- مثقال^{1 2} واحد شرعي لكل واحد من أهل المرتبة الأولى وعددهم أحد عشر طالبا.
- خمسة دراهم^{1 3} شرعية لكل واحد من الطلبة الثلاثة الذين في المرتبة الثانية.
- ثلاثة دراهم وثلاث موزونات^{1 4} شرعية لكل واحد من أهل المرتبة الثالثة وعددهم أربعة.

- عشر موزونات شرعية لكل واحد من الأربعة الذين في المرتبة الرابعة.
- وقد حدد الظهير السلطاني أن منح هذه المكافأة للطلبة المعنيين "إعانة لهم على تعاظم العلم الشريف تعلما وتعلما بشرط المواظبة على ذلك".

التعريف بأعلام الوثيقة :

1- السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن :

من المعروف عن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بن هشام (1859-1873م)^{1 5} أنه كان ذا خبرة واسعة في شؤون تسيير الدولة منذ تحمل مسؤوليات عديدة في حياة أبيه السلطان مولاي عبد الرحمن، كما كان ذا ميول إصلاحية شملت قطاعات عديدة^{1 6}. وكان بجانب ذلك على اطلاع على الثقافة الأجنبية والأوضاع العامة في البلدان الأوربية الناهضة حينذاك، حيث كان ذا إلمام نسبي باللغة الفرنسية^{1 7}. خصوصا وأن المغرب قد عرف في عهده اشتداد الضغط الأجنبي عليه خاصة بعد هزيمة حرب تطوان التي وقعت في

¹² - "المتقال وحدة نقدية حسابية، كانت تنقسم إلى 10 أواقي، وتنقسم الأوقية إلى أربع موزونات"، نعيمة هراج التوزاني، الأمناء بالمغرب في عهد مولاي الحسن الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1979، ص 373.

¹³ - الدرهم وحدة نقدية حسابية، تساوي عشر المتقال، وتضم 4 موزونات، عمر آفا، مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، ص 401.

¹⁴ - الموزونة : وحدة نقدية حسابية تساوي جزءا واحدا من أربعين جزءا من المتقال. نعيمة هراج التوزاني، الأمناء بالمغرب في عهد مولاي الحسن الأول، م. س، 374.

¹⁵ - ولد هذا السلطان بمدينة فاس سنة 1810 وتوفي بها سنة 1873م، ويوبع بعد وفاة أبيه مولاي عبد الرحمن سنة 1859. انظر : أحمد عمالك، "محمد بن عبد الرحمن بن هشام"، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، سلا، مطابع سلا، ج 21، ص 7017-7019 : وعن اهتمام السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بالأوقاف الثقافية ينظر كتاب الأستاذ السعيد بوركبة : دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في عهد الدولة العلوية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، جزآن، 1417 هـ/1996 م، ج 1، 443-462.

¹⁶ - جمال حيمر، "سيدي محمد بن عبد الرحمن نموذج للسلطان المجدد"، فيه تفاصيل جيدة عن إصلاحات هذا السلطان، وقد اعتمدناه في عدد من النقول خاصة عن المصادر المخطوطة. ينظر بموقع :

https://groups.google.com/forum/#!msg/fayad61/4oRIITvmfог/R9yp1t_Nzksj

¹⁷ - Miège, Le Maroc et l'Europe (1830-1894), Paris, 1961, T.III, p 112.

السنة الأولى لحكمه، وهذا ما دفعه لبذل الجهود الجبارة للنهوض بالبلاد والتركيز على تشجيع العلوم.

ففي الجانب العلمي اشتهر السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن "بشغفه بالعلوم التجريبية والعقلية"¹⁸، وكان "متشوقا لعلم الهندسة والتنجيم والهيئة، وجدد معاهد العسكر كلها، ووجه لتعليم الهندسة والحرب عددا من الطلبة وأبناء المسلمين لبلاد الفرنج فتعلموا ما يكفي من ذلك"¹⁹. واهتم بتشجيع العلوم المختلفة وخاصة التجريبية منها، وفي هذا الصدد ذكر أحمد بن المواز أنه "أحيا ما اندثر بالمغرب من العلوم كالحساب والتعديل والهندسة والنجوم"²⁰. وذكر شيخنا العلامة سيدي محمد المنوني أنه أشرف على تعريب بعض الكتب العلمية خاصة في ميدان علم الفلك مثل كتاب جيروم لالاند²¹. وكان له "إسهام رفقة عدد من الأساتذة الفلكيين والحيسوبيين كأبي العباس الصوري وإدريس البلغيثي في تدريس الرياضيات والتوقيت والهيئة والتنجيم بالمدرسة التي أسسها بجوار القصر السلطاني بفاس"²²، وقد كانت هذه "المدرسة الإدارية" كما سماها أحد الباحثين²³ تعد بمثابة مؤسسة إعدادية حيث أرسل عدد من خريجها بصفتهم "مهندسين" في بعثات طلابية لإتمام وتعميق دراستهم بالمعاهد الأوربية"²⁴، وأسس مدارس أخرى بكل من مدينتي الصويرة وآسفي²⁵. وفي عهده دخلت أول مطبعة حجرية إلى المغرب سنة 1864²⁶، ووضعت أولا بمدينة مكناس، ثم نقلت، بعد إصدارها لكتاب واحد، إلى مدينة فاس حيث اشتهرت بإصداراتها العديدة التي تجاوزت 500 كتاب.

¹⁸ - محمد بن الأعرج السليماني، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، ج 2، المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، رقم د 3449 - 367.

¹⁹ - محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الحل البهية في ملوك الدولة العلوية وبعض مفاخرها غير المتناهية، تحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، جزآن، ط 1، 2005، ج 2، ص 92.

²⁰ - أحمد بن المواز، المقالة المرضية في الدولة العلوية والتوسل بالنسب الطاهر للعلي القادر، مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 493، ص 25.

²¹ - محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث.

²² - ابن زيدان، مولاي عبد الرحمن، إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، مطابع إديال، الدار البيضاء، ط 2، 1410 هـ / 1990 م، ج 3، ص 367.

²³ - LAHBABI (M), *Le Gouvernement Marocain à l'aube, du XXème Siècle*. Ed. Techniques Nord Africaines, Rabat 1958.

²⁴ - جمال حيمر، "سيدي محمد بن عبد الرحمن نموذج للسلطان المجدد"، مقال سابق.

²⁵ - ابن زيدان، الإتحاف، م. س، ج 3، ص 563 - 566.

²⁶ - لطيفة الكندوز، "الطباعة بالمغرب"، معلمة المغرب، ج 17، ص 5702 - 5705.

ذ. محمد المغراوي

وقد تنبه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن أيضا إلى أهمية التلاحق العلمي بين المغرب والمشرق فأوفد بعثات من الطلبة، خاصة الذين كانوا يتخرجون من مدرسة فاس، إلى مصر لاستكمال تعليمهم في فن الطباعة وعلوم الطب والرياضيات والفلك والجغرافيا.

ومن هذا يتأكد أن مبادرة السلطان بتشجيع طلبة العلم بمدينة القصر الكبير تدخل في سياق أعم تميز بحرصه على إنعاش الحركة العلمية في المغرب في أبعادها المختلفة في سياق توجه إصلاحي أعم.

2- قاضي القصر السيد أحمد الشدادي :

قاضي القصر السيد أحمد بن محمد بن علي الشدادي الحسني السريفي هو صاحب المبادرة في هذا المشروع الثقافى الذي استهدف تشجيع طلبة العلم بالمدينة. وقد كان قاضيا بالقصر حسب الظهير نفسه، وحسب رسم عدلي مؤرخ بـ 14 ذي القعدة 1289/12-1-1873، حلي فيه "بالفقيه الأجل العالم العلامة الأفضل المدرس النفاة الأكمل قاضي القصر وهو أحمد بن محمد بن علي الشدادي الحسني ... الشريف البركة"²⁷. وقد استمر قاضيا بالمدينة إلى أن توجه إلى الحج فتوفي بالحجاز²⁸. تنتمي الأسرة الشدادية إلى الشرفاء الأدارسة بقبيلة آل سرييف الجبلية، ويعود نسبهم إلى القاسم بن إدريس الأزهر، وقد انتشرت فروعهم بفاس وسلا والرباط والقصر الكبير ومنطقة جباله، واشتهر من أبناء هذه الأسرة عدد من العلماء²⁹.

3- ناظر أحباس القصر الكبير :

أما ناظر أحباس القصر فقد ورد ذكره في الوثيقة بصفته فقط دون اسمه، وبالبحث في بعض الوثائق من نفس الحوالة الحبسية المؤرخة بتاريخ قريب جدا من تاريخ الظهير السلطاني تتحدث عن "التاجر الأرضى، الخير الأمين المرتضى، الأبر الحاج عبد المجيد بن الحاج التهامي

²⁷ - نفس العقد، أخريف، القصر الكبير، وثائق لم تنشر، م.س، ص 84.

²⁸ - أخريف، القصر الكبير، وثائق لم تنشر، م.س، ص 84.

²⁹ - ذكر الأسرة الشدادية العلامة مولاي إدريس الفضيلي، الدرر البهية والجواهر النبوية، مراجعة ومقابلة الأستاذين أحمد بن المهدي العلوي، ومصطفى بن أحمد العلوي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، جزآن، 1999/1420، ج 2، ص 57-59 : عبد العزيز بن عبد الله، الهبط عبر العصور، نشر مؤسسة القصر الكبير للتنمية، 2008، ص 57.

ابن كيران الفاسي"، حسبما ورد في وثيقة أخرى من الحوالة الحبسية مؤرخة بسنة 1287هـ/1870م.

4- الطلبة المستفيدون من المنحة السلطانية :

بعد البحث والتقصي في الوثائق والمصادر المكتوبة والشفوية استطعنا التعرف على العديد من الأسماء المذكورة في الظهير، وأغلبهم من أبناء أسر علمية أو نبيلة في مدينة القصر الكبير. ومما يؤكد نجاح هذه الخطوة أن أكثر الطلبة المذكورين قد صار لهم شأن علمي فيما بعد.

أ- أصحاب المرتبة الأولى :

- الطالب محمد الجلاف : صار من علماء المدينة، وخطيبا بالجامع الأعظم في حدود سنة 1307هـ/1889م³⁰.

- الطالب الهاشمي الجباري : لعله الهاشمي بن عبد السلام الجباري من الفقهاء المنتصبين للشهادة بسماط عدول القصر في سنة 1309هـ/1891م حسب بعض الوثائق العدلية القديمة التي اطلعنا عليها وعليها توقيعه.

- الطالب المفضل الجباري³¹ : ذكر المفضل بن أحمد الجباري في أحد الرسوم باعتباره من عدول المدينة سنة 1289هـ/1872م. أخذ عن الشيخ الصوفي الشهير سيدي أحمد الحراق، وصار مقدما للزاوية الدرقاوية بالقصر الكبير، واشتغل بالعدالة، ثم تولى الخطبة بالجامع السعيد³² بالقصر إلى وفاته سنة 1303هـ/1886م³³.

³⁰- وقد عرف به العلامة المرحوم أحمد المرتجي السوسي في فهرسته، انظر ذ. محمد بنخليفة، الشتيت والنشير من تاريخ القصر الكبير، منشورات جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير، ص 112.

³¹- الجباري : أسرة قصرية عريقة، أصلها من جبل بني جبارة بالأخماس، كان منها العديد من العلماء والعدول. وقد عرفنا بها وبعدها من أبنائها في معلمة المغرب، ج 9، ص 2900-2901.

³²- ثاني أكبر مساجد القصر الكبير، يقع بحي الشريعة، وقد بني في عهد السلطان المولى إسماعيل.

³³- بن عبد الله، الهبط عبر العصور، م.س، ص 76 : الخضر بن عبد السلام الجباري، صفحات من التراث، (د.ن)، 2003، ص 4.

- الطالب الأمين الطود³⁴ : لعله محمد الأمين بن الطاهر الطود الحسني الذي تردد اسمه كأحد عدول المدينة في نفس هذه السنة وفي السنوات القريبة منها في عدد من الوثائق العدلية³⁵.

- الطالب عبد القادر النسب (أي الطود) : كان ناظرا للأوقاف بالقصر سنة 1895م، حسب عقد كراء مؤرخ ب 15 ذي الحجة عام 1312هـ³⁶.

- الطالب الطيب بوفنار : عالم بالقراءات ومن كبار المجودين، أخذ عنه الشيخ سيدي أحمد التيجاني. وأخذ الشيخ الطيب القراءات عن الشيخ علي بن طاهر الوتري الحنفي الحجازي الذي زار المغرب وتردد على مدينة القصر الكبير³⁷.

بالنسبة لباقي الأسماء لم نعثر على إفادات حولها، ويتعلق الأمر بالطالب محمد الشدادي، والطالب العربي الغرابلي، والطالب المختار الطود، والطالب الهادي الطود، والسيد أحمد البقالي، وللتذكير فإن الأسر التي ينتمون إليها من الأسر القصرية المعروفة إلى اليوم والتي ظهر فيها العديد من الفقهاء والعلماء.

ب- أصحاب المرتبة الثانية :

- الطالب محمد الدغاي³⁸ : لعله الفقيه محمد بن محمد الدغاي أحد عدول المدينة حسب وثيقة مؤرخة بسنة 1309هـ/1891م.

- الطالب محمد العربي الجباري : من أبناء الأسرة الجبارية بالقصر الكبير. كان فقيها عدلا بالمدينة.

- الطالب بوسلهام الرزامي : أصبح قيما على خزانة الكتب المحبسة على مساجد القصر، فقد ورد في ذات الحوالة الحبسية لمدينة القصر الكبير ما يلي : "خزانة سيدي

³⁴ - الطود : أسرة قصرية شهيرة تعود أصولها إلى قبيلة جبل الحبيب، خاصة في مدشري الجبلية ودار ابن صدوق، ومن هناك انتقلوا إلى القصر الكبير، بنعبد الله، الهبط عبر العصور، م. س، ص 57.

³⁵ - أشار الأستاذ محمد أخريف إلى توقيع الأمين الطود على عقد عدلي مؤرخ ب 14 ذي القعدة عام 1289هـ، محمد أخريف، القصر الكبير، وثائق لم تنشر، ج 3، منشورات جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير، مطبعة الأمنية، الرباط، 2008، ص 84.

³⁶ - أورد صورته الأستاذ محمد أخريف في كتابه : القصر الكبير : وثائق لم تنشر، م. س، ص 64.

³⁷ - فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 71/1، بنعبد الله، الهبط عبر العصور، م. س، ص 75.

³⁸ - الدغاي : أسرة قصرية تطوانية، أصلها من ناحية الهبط، انقرضت بتطوان، وما زالت بالقصر، بنعبد الله، الهبط عبر العصور، م. س، ص 80.

ذ. محمد المغراوي

الهميري نفع الله به على يد المكلف بها الطالب السيد بوسلهام الرزامي لينتفع بها طلبة البلد، وذلك من المصاحف الكريمة والحديث الشريف والمواظظ والفقه والنحو، وذكر فيها أيضا أن منزله بحومة القطنين وهي أقدم أحياء المدينة بحومة باب الواد.

ج- أصحاب المرتبة الثالثة :

- ولد الفقيه بن العربي : لم تذكر الوثيقة اسمه، ووصفت أباه بالفقيه، ولعله من أحفاد الفقيه محمد بن العربي الذي كان قاضيا بمدينة القصر الكبير، حسب ظهير تعيينه المؤرخ بـ 8 شعبان 1206هـ/30-3-1792م³⁹.

أما الطالب محمد بن محمد المجول⁴⁰، والطالب محمد الغرابلي، والطالب جلول القادري فلم نعر على أية إشارات إليهم، بينما الأسر التي ينتمون إليها من الأسر النبوية المعروفة بالقصر الكبير إلى يومنا هذا.

د- أصحاب المرتبة الرابعة :

لم نتمكن فيما بين أيدينا من وثائق ومصادر من التعرف على الطلبة المرتبين في هذه المرتبة وهم الطالب محمد بن مسعود الأنجري، والطالب أحمد النسب (أي الأنجري)، ومحمد ابن امحمد المجول، ومحمد بن علي العبراق⁴¹، غير أن الرواية الشفوية خاصة في الأوساط القريبة من أسرهم بمدينة القصر الكبير قد تسعف ببعض الإفادات.

خاتمة :

وقفنا من خلال ظهير السلطان المولى محمد بن عبد الرحمن على عدة فوائد، أهمها القيمة التاريخية للحوالات الحبسية التي تختزن من الوثائق والفوائد التاريخية ما يعز نظيره في المصادر التاريخية التقليدية، إلى جانب أهمية موضوع الظهير الذي أظهر جانبا خفيا من

³⁹ - محمد أخريف، وثائق لم تنشر، م.س، ج 1، ص 89.

⁴⁰ - المجول أسرة قصرية عريقة، ينسب إليها الشيخ محمد المجول أحد علماء وصلاحاء القصر في العصر السعدي، توفي في أواخر العشرة السادسة بعد الألف، أخذ عن الشيخ محمد بن علي البقالي دفين الحرائق من بلاد اغصاوة. ذكره محمد المهدي الفاسي (ت 1109هـ) في ممتع الأسماع في الجزولي والتابع وما لهما من الأتباع، تحقيق وتعليق عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، الدار البيضاء، دار النجاح الجديدة، ط 1، 1415/1994، ص 190. وذكره محمد بن الطيب القادري في نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، نشر ضمن : موسوعة أعلام المغرب، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1417/1996، 1439/4. بنعبد الله، الهبط عبر العصور، م.س، ص 102.

⁴¹ - العبراق : من الأسر القصرية الأصلية، بنعبد الله، الهبط عبر العصور، م.س، ص 84.

دعوة الحق

تشجيع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن لطلبة العلم بمدينة القصر الكبير

ذ. محمد المغراوي

اهتمامات سلاطين المغرب، كما ظهرت ملامح من تدخل قضاة المدن ومسؤوليتهم في الاهتمام بالجانب الثقافي، ورعاية الأحياس لهذا الجانب من خلال تسديد المكافآت المخصصة للطلبة المعنيين قصد الاستعانة بها في طلب العلم.

المسرح في خدمة إمارة المؤمنين

ذ. رشيد بناني

باحث في المسرح

فاس

تقديم :

قام الفن المسرحي عبر تاريخه الطويل الممتد لأكثر من خمسة آلاف عام بأدوار هامة في خدمة الشأن العمومي لدى العديد من الأمم، وسخرته حضارات كثيرة في نشر قيمها الاجتماعية والسياسية وأفكارها ومتخيلها الجماعي، معتمدة على ما يوفره هذا الفن العريق من الفرجة وعلى قدرته على تصوير الشخصيات والمواقف الدرامية وعلى تأثيره العظيم في الجماهير. لقد كانت البنايات المسرحية الفسيحة في بلاد اليونان، على عهود الحضارة الإغريقية القديمة، مثلاً، كما كانت مسارح لندن، خلال العصر الإليزابيثي، فضاءات أثيرة لدى الخاصة والعامة للاجتماع ولتصوير أحداث تاريخهم ورواية قصص آلهتهم وملوكهم وأبطالهم، واستعراض قيمهم لترسيخها في الوجدان الجماعي، وتدعيم ألفة الشعب مع مسؤوليه، وتمتين اعتزازه بتاريخه، وتقوية أحاسيسه القومية.

وقد خاض المسرحيون المغاربة، خلال فترة بناء الدولة المغربية الحديثة بعد نهاية عهد الاستعمار الفرنسي تجربة إبداعية فريدة من نوعها، شبيهة بهذه التجارب الإنسانية، كان لها عميق الأثر على نشر ثقافة وطنية جديدة كما كان لها عميق الأثر في انتعاش الفن وتطوير المسرح في بلادنا، وقد أسفرت هذه التجربة من جملة ما أسفرت عنه عن ظهور شكل مسرحي غير مسبوق اشتهر في المغرب باسم (الملحمة). ورغم المكانة التي كانت لهذه الملاحم المغربية والدور الثقافي والاجتماعي الذي قامت به فإنها لم تحظ لحد الآن بما تستحقه من عناية الدارسين والكتاب الباحثين، لذلك سنحاول أن نخصها في هذه الدراسة ببعض الصفحات.

الملحمة المسرحية المغربية:

و(الملحمة) بالمعنى الذي اشتهرت به في المغرب خلال هذه الفترة نوع من العمل الدرامي الوطني المتحمس الذي يصور المواقف الحاسمة والهامة في تاريخ الدولة المغربية، وي طرح القضايا الجماعية بنوع من الفخار والعزة ، ويبلور ويوضح الأسس الكبرى التي يقوم عليها نظام الدولة والتي حققت وتحقق مصالح عموم المواطنين، ظهرت بوادره الأولى في بداية ستينيات القرن الماضي بعيد اعتلاء الملك الحسن الثاني على العرش، ورصدت له الدولة إمكانات هامة، فتفنن في الإبداع فيه مسرحيون كبار، كان على رأسهم الطيب الصديقي وأحمد الطيب العليج ومحمد حسن الجندي وإدريس التادلي، كما انخرط فيه بعد ذلك وبرع العديد من المسرحيين الهواة مثل محمد البلهيسي بالإضافة إلى تبنيه من طرف مهرجانات المسرح المدرسي الذي انتشر وعم كل مدن البلاد.

عرف الطيب الصديقي مسرحيته الملحمة الأولى التي تحمل عنوان (موقعة وادي المخازن) بكونها جدارية مسرحية (une fresque historique) ، ولكن الملاحم اشتهرت بعد ذلك في المغرب بهذا الاسم منذ أواسط ستينيات القرن 20 ، لأن أحد نقاد الفنان الطيب الصديقي شبه واحدا من أعماله التاريخية الفخمة الأولى بملحمة الأديب الفرنسي فولطير (voltaire) ، التي تحمل عنوان (لاهنياد) (la Henriade) ، وهذه الأخيرة عبارة عن قصيدة شعرية طويلة تتغنى بأمجاد هنري الرابع، ودوره في الدفاع عن باريس وتثبيت النظام الملكي في فرنسا في القرن 16م. ويظهر أن هذا التشبيه قد راق كلا من المسؤولين السياسيين والفنانين المسرحيين والمعلقين الصحفيين عندنا حتى غلب لقب الملاحم على هذا النوع المسرحي الجديد. ويجوز لنا القول بأن النفس الملحمي لايعوز تلك الأعمال التاريخية والسياسية والبيداغوجية، فهي تتغنى ببطولات الملوك، وتحكي أخبار المعارك التي خاضها المغاربة للذود عن بلادهم، كما تصور مواقف المحنة ولحظات المجد وفترات المحبة والتلاحم بين كل شرائح المجتمع وبين مختلف مناطق البلاد... ولكن ملحميتها لا تكمن في العبارة الشعرية وحدها، لأنها ملحمة مسرحية مركبة، تدخل في بنائها كذلك، وعلى الخصوص، المقاطع الغنائية الخلاصة والمشاهد المبهرة والإخراج المبتكر والأداء المتحمس والديكور الأنيق والتقنيات الاستعراضية الفخمة والإقبال الجماهيري الواسع الذي كان يميز كل عرض من عروضها.

ظروف ميلاد الملاحم المغربية:

يمكن اعتبار هذا الشكل المسرحي المبتكر نتاجا للمخاض السياسي والثقافي الذي عرفه مغرب ما بعد الاستقلال، ومحصلة للمجهود البيداغوجي الذي تفتق عنه ذهن كل من المسؤولين والفنانين الوطنيين، تحت إشراف العين الناقدة والفكر الخلاق للملك الحسن الثاني الذي كان هاجسه الأول والأساسي يتمثل في بناء مغرب عصري وموحد في كنف نظام الملكية الدستورية وظلال إمارة المؤمنين.

لقد كان الملك المكافح محمد الخامس، قبل ذلك، يعتبر استقلال المغرب من نير الاستعمارين الفرنسي والإسباني (خروجاً من الجهاد الأصغر ودخولاً إلى الجهاد الأكبر)، وهو تعبير يدل بقوة على تقدير هذا الملك الصالح لضخامة مسؤولية بناء دولة حديثة ومستقرة وموحدة، لذلك انخرط منذ البداية في إبعاد شبح الانقسامات الاجتماعية والإقليمية والأيدولوجية، وبادر إلى اختيار نظام سياسي يجمع بين الحداثة من جهة والتشبث بالخصوصيات السياسية والحضارية المغربية من جهة أخرى. لقد تميزت السنوات الأولى بعد استقلال المغرب، في 16 نوفمبر 1955م، بصراع القوى السياسية الموروثة عن المرحلة السابقة وتطلع كل واحدة منها إلى السلطة، ولكن المؤسسة الملكية تمكنت سريعا من تدبير الانتقال بحكمة وبراعة نحو الدولة الموحدة، كما وفقت في أن تقود الفرقاء، المختلفين في الرأي، تدريجيا وبسلاسة نحو الاتفاق حول ضرورة التشبث بالنظام الملكي العريق في المغرب، مع تحديثه بتحويله إلى ملكية دستورية ديمقراطية تستمد شرعيتها، من جهة، من الحق التاريخي والأساس الديني المتمثل في البيعة المتجددة التي يقدمها الشعب وممثله للملك، ومن جهة أخرى، من الأساس الحقوقي المعمول به في تدبير الدول العصرية، أي الاستفتاء الديمقراطي للشعب لاختيار دستوره وانتخاب مؤسساته وممثليه محليا وجهويا ووطنيا. ومن أجل تفعيل هذه الاختيارات المتعددة التي لم تتعود عليها البلاد من قبل تمت صياغة دستور يتفق عليه الجميع ابتداء من سنة 1962م، كما تم انتخاب الهيئات التشريعية والمجالس المحلية والغرف المهنية وتوزيع السلطات، سواء المحلية أو المركزية، بين الإدارة والشعب، عن طريق القوانين الجديدة وبالاحتكام إلى صناديق الاقتراع.

وقد كان من الضروري لترسيخ هذه الاختيارات لدى الرأي العام وإقناع الشعب المغربي بهذه الاختيارات العصرية، بالاعتماد على الوسائط المعمول بها في مجال نشر الثقافة السياسية

د. رشيد بناني

وإذا عتتها والتعريف بإيجابياتها قصد التشجيع بها وتبنيها، وقد وفق الملك الحسن الثاني، حين اعتلى العرش بعد وفاة أبيه سنة 1961، في الاستعانة بوسائل الإعلام وبالأدباء والفنانين، وبالمسرحيين منهم على الخصوص، لخدمة هذه الغاية.

ومن هذا الباب شارك العديد من الشعراء ومن الفنانين المسرحيين والموسقيين وغيرهم في التأكيد على هذه الاختيارات، وشرح أبعادها، والاحتفاء بمخططها ورمزها الأسمى، الملك الحسن الثاني، وأفردوا لذلك أعمالاً فنية بعضها عالي الجودة ويستحق أن يدرس ويذكره التاريخ. وقد كان هذا المجهود الإعلامي والتحسيس الثقافي السياسي يتم، على الخصوص، خلال احتفالات كبيرة تقام في مناسبتين أساسيتين اثنتين هما: عيد العرش (الذكرى السنوية لجلوس الملك الحسن الثاني على العرش في 03 مارس من كل سنة)، وعيد الشباب (عيد ميلاد الملك الشخصي في 09 يوليوز).

كان عيد العرش في عهد محمد الخامس، منذ بداية ثلاثينيات القرن 20م، مناسبة عمومية يحتفل بها المغاربة ويولونها الكثير من التقدير في جو شعبي تلقائي ترعاه الأحزاب وتحثي به قوى الحركة الوطنية بكل تياراتها، كما شرعت القوى الوطنية أيضاً منذ بداية الاستقلال في الاحتفال بعيد ميلاد ولي العهد آنذاك مولاي الحسن (الحسن الثاني فيما بعد) واعتبرته عيداً يرمز إلى كل الشباب المغربي في تطلعه إلى مستقبل جديد، ثم أخذ الاحتفال بهاتين المناسبتين، ابتداء من ستينات القرن 20م، أبعاداً غير مسبوقة، فقد تحولت المناسبتان إلى عيدين تتولى الدولة الإشراف على بهجتهم وفخارهما، وتستدعي لإحيائهما فنانين كباراً من الشرق العربي وأوروبا، كما شارك الفنانون والمبدعون المغاربة في إحياء هاتين المناسبتين، وقدموا فيهما عدداً من أجود أعمالهم في الموسيقى والشعر والمسرح... وقد لعب المسرح من بين هذه الفنون دوراً لا يستهان به في إحياء المناسبتين في جو من الاحتفالية والحماس السياسي والتغني بالبطولات التاريخية للمغاربة وتعزيز الروح الجماعية والتلاحم بين الشعب وملوكه، وكان العيد الأخير، أي عيد الشباب الذي يصادف فصل الصيف، أكثر مطاوعة لفن الملاحم التي كان كثير منها عبارة عن مسرحيات ضخمة تقام في الهواء الطلق وأمام جمهور كبير يقدر أحياناً بعشرات الآلاف.

الإرهاصات الأولى للملاحم:

عرف هذا النوع من الاحتفال الوطني بواسطة المسرح بداياته في سنة 1962م مع مسرحية مبكرة تحمل عنوان (الواقعة) كتبها الأستاذ عبد الله شقرون وأخرجها الفنان محمد سعيد عفيفي وشخصها كبار فناني (فرقة التمثيل لدار الإذاعة) آنذاك، للمشاركة بها في (مهرجان ويلي) المنظم خلال شهر يوليوز بمناسبة عيد الشباب. وتم عرض هذه المسرحية أولا في الهواء الطلق على أطلال مدينة ويلي الأثرية، كما تم عرضها وسط أسوار مدينة الجديدة الأثرية أيضا، قبل أن تتجول بها الفرقة طيلة فصل الصيف عبر عدد من مدن المملكة.

تدور أحداث مسرحية (الواقعة) في زمن تحرير مدينة الجديدة (أو ميناء البريجة كما كانت تسمى فيما قبل) من الاستعمار البرتغالي على عهد السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله أحد كبار ملوك الدولة العلوية في النصف الثاني من القرن 18م، كما تحكي قصة خيالية يمتزج فيها الحب بالبطولة والأحاسيس الوطنية، مستوحاة من كفاح المغاربة من أجل تحرير الثغور البحرية التي كان المستعمرون الأوروبيون يحتلون.

الطيب الصديقي أو اكتمال فن الملحمة :

بعد هذه التجربة الرائدة التي أنجزتها فرقة الإذاعة احتل الطيب الصديقي مكان الصدارة في إنتاج المسرحيات الوطنية وتطوير طريقة كتابتها وإخراجها وأدائها، حتى اشتهرت على يديه باسم (الملاحم)، وأنجز منها أعمالا كثيرة متتابعة طيلة حياة الملك المرحوم الحسن الثاني. فقد شارك هذا الفنان في 3 مارس من سنة 1963 في إحياء حفل رسمي كبير نظم في مسرح محمد الخامس بالرباط بمناسبة عيد العرش، قدم خلاله مسرحية تاريخية قصيرة ومغمورة تحمل عنوان (الشجاعة) ثم شرع منذ السنة الموالية في إبداع أول أعماله التاريخية الفخمة والكبيرة، حيث كتب وأخرج عمله الضخم الذي يحمل عنوان (معركة وادي المخازن) أو (سيدي ميمون) في يوليوز 1964م، وعرضه في الهواء الطلق في (ملعب الفتح) بالرباط بمناسبة عيد الشباب، في حفل رسمي بهيج حضره الملك المرحوم الحسن الثاني نفسه مصحوبا بكبار شخصيات الدولة وضيوفها الأجانب، واحتفت به الصحافة ووسائل الإعلام. وفي هذه المسرحية المبكرة تبلورت العديد من الملامح الأساسية الغالبة على هذا الشكل الدرامي وأوحت بإطلاق اسم (الملاحم) عليه.

لعل أهم وأجد ما حمله إخراج مسرحية (معركة وادي المخازن) هو حجمها الضخم، وبالتالي مهارة تدبير الفضاء والتحكم في حركة الممثلين وتوزيع عناصر الديكور وبناء السينوغرافيا، ثم التحكم في الصوت وضمان وصوله وتأثيره في الجمهور الغفير الحاضر. لقد شارك في تشخيص هذه المسرحية الملحمية حوالي 450 ممثلاً، ثانوياً (كومبارس) أربعة منهم فقط يمثلون شخصيات تاريخية أساسية هم (سباستيان ملك البرتغال الغازي وعبد الله المتوكل الملك الذي رفضه الشعب نظراً لتقاعسه عن الدفاع عن المدن المغربية التي احتلها البرتغاليون والذي تحالف مع الأجانب للمحافظة على العرش لنفسه، وأبو مروان عبد الملك وهو السلطان الذي بايعه العلماء وأفراد الشعب نظراً لاستعداده للقيام بواجب الدفاع عن شرف الوطن ووحدته، ثم أخوه أبو العباس أحمد الذي أظهر بطولة كبيرة وحنكة نادرة في تدبير أطوار المعركة وحسمها لصالح المغاربة.

ويؤدي بقية الممثلين أدواراً وظيفية (قواد الجيوش المغربية)، وقواد الجيوش البرتغالية، والعلماء الذين يفتون بنزع البيعة عن الملك المتقاعد ومبايعة الأمير المدافع عن حرية البلاد، وعمال الأقاليم الذين يؤطرون الشعب للجهاد، ورسلك ملك المغرب إلى الملك البرتغالي

أما الباقيون فهم مجرد كومبارس يتحركون أفراداً أو جماعات لتأثير المشاهد الشعبية أو الوقائع العسكرية، وإعطائها طابع الحركة الكبيرة الفخمة، وتمثيلية مختلف حواضر المملكة الفاعلة في الحدث (200 من أفراد الشعب نساء ورجالاً، 160 جندي، أربعون منهم من الفرسان على صهوات خيولهم، و 20 من رجال المدفعية بمدافع حقيقية، 20 موسيقياً، و 30 بهلواناً منشطاً للفرجة، بالإضافة إلى عربات بسائقيها لتأمين حركة الأشخاص والوفود داخل ذلك الفضاء الواسع الذي يمثل الملعب...).

إن القضايا التي عبرت عنها هذه المسرحية (معركة وادي المخازن) عديدة ومتشعبة أبرزها تصوير أهم الأزمات التي يمكن أن تمر منها كل أمة من الأمم وعلى رأسها مواجهة التحديات الخارجية والغزو الاستعماري، مع ما يستلزمه التغلب على مثل هذه المحنة من قيادة رشيدة متبصرة، وروح نضالية منضبطة لدى الشعب، وتلاحم ومحبة مشتركة بين القيادة والقاعدة وإيثار الجميع لمصالح الوطن ووضعها فوق كل اعتبار.

د. رشيد بناني

كما تطرح المسرحية بشكل واضح أيضا قضايا البيعة الشرعية التي تُقرها مبادئ الشريعة الإسلامية وتتضمنها القواعد التي أقرها العلماء فيمن يتم اختياره لخلافه رسول الله (ﷺ) وإمامة المؤمنين. إن الملكية حسب ما يستفاد من المسرحية حق وراثي للأسرة الحاكمة مشترك بين الآباء والأبناء والإخوان والأعمام، وينال هذا الحق ذوو الاستحقاق بجدهم وعملهم لما فيه مصلحة البلاد ومطالب الشعب؛ ويحرم منه من يتقاعس أو يخدم مصالح الأعداء ويتحالف مع المعتدين؛ وتتم هذه البيعة إجرائيا بواسطة طقوس مرعية يتقدم بها العلماء والشرفاء ووجهاء القوم مقدمين الطاعة لكل ملك جديد، ولكنها لا تكتمل حقيقة إلا برضا الشعب وتقديمه لفروض البيعة العمومية.

والمؤكد أن عموم المغاربة في بداية ستينيات ق 20م قد كانوا في حاجة إلى مطارحة مثل هذه القضايا والحوار بشأنها والالتفاف حولها حتى يتسنى لهم بناء مستقبلهم على أسس متينة. وقد أبدع الطيب الصديقي، خلال فترة حياة الملك الحسن الثاني، عددا هاما من هذه (الملاحم) التي تطور من خلالها على يديه هذا النوع الدرامي والاحتفالي بشكل واضح، نذكر من بينها:

- (معركة وادي المخازن)، يوليو 1964م، (ملعب الفتح) بالرباط.
- (المغرب واحد)، يوليو 1966م، (ملعب مصارعة الثيران) بالدار البيضاء.
- (مولاي إسماعيل)، يوليو 1968م، (ملعب الفتح) بالرباط.
- (معركة الزلاقة)، مارس 1971م، ساحة المصلى بمدينة الرباط.
- (مولاي إدريس)، مارس 1977م، سينما لامبير بفاس.
- (ملحمة المسيرة الخضراء)، مراكش 1976م.
- (مسيرتنا)، 1985م.
- (نحن)، مارس 1986م، حديقة الجامعة العربية، الدار البيضاء.
- (أصوات وأضواء)، يوليو 1989م، شاطئ الوداية، الرباط.

أحمد الطيب العليج وحضوره في فن الملاحم:

كما شارك أحمد الطيب العليج في وقت مبكر في كتابة هذا النوع من المسرح الوطني الفخم حين أبدع أعمالاً نذكر منها ملحمة (بناة الوطن) 1967م على شكل أوبريت غنائية مكتوبة بالزجل الشعبي، تتناول موضوع التجنيد الإجباري الذي كان قد دعا إليه الملك الحسن الثاني آنذاك. ويمتزج في هذه المسرحية الجد بالكوميديا وتتجاوز فيها العواطف الإنسانية الحميمة بالحماسة الجماعية، كما تتغنى بالمزايا التربوية والحس الوطني والشجاعة التي يوفرها التكوين العسكري للشباب.

كما كتب الفنان أحمد الطيب العليج في سنة 1969م أوبريت ثانية تحمل عنوان (القنطرة)، تناول فيها موضوع أهمية الانسجام والتكامل والتعاون بين مختلف الأقاليم لبناء الوطن الموحد، ونبد الانغلاق الإقليمي أو التناظر الإثني بين أبناء وبنات مختلف مناطق البلاد؛ وقد رمز المؤلف لموضوعه بمشروع اشتراك الجميع في بناء قنطرة تربط بين جهات البلاد كما تخلق الانسجام وتتمى روح العمل الجماعي.

ومن الطبيعي ألا تكون الملاحم التي كتبها أحمد الطيب العليج نسخاً مشابهة لتلك التي أبدعها الطيب الصديقي، لأن لكل واحد من هذين الفنانين أسلوبه الخاص المتميز في مسرحه، ومواهبه التي تسبغ الإبداع الراقي على أعماله الفنية؛ فإذا كان الصديقي صانعاً متمكناً ومخرجاً متميزاً تظهر براعته في تركيب عناصر الفرجة وفي سعة اطلاعه على آخر مستجدات المسرح في العالم وتوظيفها في أعمال مغربية صميمة، فإن ملاحم العليج تتميز بإبداعيتها الأدبية ونفسها الشعري الطافح وفي غنائية العبارة السمحة وسبك الحدث السلس، ثم قابلية شعره للتلحين والأداء الغنائي، لذلك فقد كانت ملاحمه مجالاً للتشارك بين رجال المسرح ومبدعي الموسيقى والأغنية، بحيث اجتمعت عند إنجازها جهود ملحنين مثل محمد بن عبد السلام والعربي الكوكبي وأصوات غنائية مثل عبد الواحد التطواني وبهيجة إدريس ومحمد فويتح ومحمد المزكلدي إلى جانب مخرجين مسرحيين وممثلين معروفين.

ولا شك أن أعمال أحمد الطيب العليج قد أثارت الانتباه إلى إمكانية تطوير هذا اللون من المسرح الوطني والتوجه به نحو ملحمة أكثر اكتمالاً، والعودة به إلى أصول أبي الفنون بحيث تضافرت جهود المسرحيين مع الموسيقيين والشعراء في معظم الأعمال الملحمية اللاحقة

ذ. رشيد بناني

حتى أصبح الغناء والطرب جزءا هاما لا يتجزأ من كل الملاحم التي أنجزها كل الفنانين فيما بعد بما فيهم الطيب الصديقي.

ونظرا للدور الكبير الذي لعبه هذا الأخير في إبراز هذا الشكل المسرحي وبناء معالمة المسرحية الأساسية بطريقة غير مسبوقة، فإنه يستحق بدون شك وقفات متأنية عند بعض الأعمال التي وفق في إنجازها وشكلت نماذج راقية لغيره من المسرحيين سواء من المحترفين أو الهواة.

النوازل الفقهية وضوابط البحث التاريخي

قضية منهجية جديدة

نموذج من التاريخ الاجتماعي لمدينة تازة خلال

العصر الوسيط

ذ. حميد تيتاو

الكلية متعددة التخصصات - تازة -

لا نعتقد أن ثمة جديدا في تأكيد أهمية كتب النوازل الفقهية، وغيرها من المتون المعدة لغير التاريخ قصدا، في الإجابة عن كثير من الأسئلة التي تخص التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ الذهنيات، خاصة بعد أن أضحى التأكيد على هذه الأهمية ذا معنى ومغزى عميق من خلال تلك الطفرة النوعية التي حققها البحث التاريخي المغاربي في تعامله مع هذا النوع من المصادر، حيث انتقل من طور التنبية إلى أهميته والدعوة إلى استغلال كنوزه، إلى طور الاشتغال به والاستفادة منه في ملء بياضات كتب الحوليات التاريخية وتصحيح بعض هناتها أولا، وفي طرح إشكاليات جديدة تخص قضايا الاقتصاد والمجتمع والعقليات ثانيا، انسجاما مع القاعدة التي ترهن تجديد الأسئلة التاريخية بتجديد المادة المصدرية الكفيلة بمعالجتها والإجابة عنها.

بناء على هذه المعطيات، نكتفي بتأكيد تلك الأهمية، خاصة عندما يتعلق الأمر بمجالات جغرافية مهمشة، وقضايا من التاريخ أغفلتها حولياتها حين نظرت إلى المجتمع من عل، وانشغلت بالسلطان وأخباره عن أسئلة الناس وهمومهم ومشكلاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية وتفاصيل حياتهم اليومية في بيوتهم وأسواقهم ومدنهم وبواديهم، وفي مثل هذه القضايا بدت كتب النوازل الفقهية حميمية لصيقة بحياة الناس، حيث يقدم السائل للمفتي سؤاله راغبا في جواب فقهي يعكس رأي الشرع فيه، أو يطرح المتضرر قضيته على قاض لينظر فيها، وفي ذلك السؤال أو تلك القضية تتسلل أحيانا تفاصيل كثيرة عن المجتمع وحياة الأفراد وعلاقاتهم الاقتصادية والاجتماعية والأسرية، فيحصل الباحث في التاريخ على بعض

مما يبحث عنه في هذا المجال، وذلك وفق ضوابط منهجية صارمة تؤمن انتقال المعلومة من مجال الفقه إلى مجال التاريخ انتقالا آمنا بعيدا عن الإسقاط أو التعميم أو الخطأ في التقدير.

الحقيقة أن العنوان الذي اخترناه لهذه المقالة لا يحيل بدوره إلى أي جديد بالنسبة للباحثين المغاربة وغيرهم في مجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ الذهنيات، فقد سبقنا الأساتذة الرواد الذين اكتشفوا أهمية هذه المصادر، والأساتذة الباحثون الذين اشتغلوا بها في التنبيه إلى الاعتبارات المنهجية التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار أثناء التعامل مع النازلة الفقهية، والحذر الذي ينبغي أن نتمسك به في استغلال المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي توفرها¹. فلماذا إذن نطلب التوقف للحظة لإبداء نقطة نظام في هذا المجال؟

يرجع الأصل في نقطة النظام هذه إلى ملتقى علمي نظم مؤخرا بمدينة تازة حول هذه المدينة وأرشيفها، حيث اخترت في مداخلتني أن أدخل تازة من باب التاريخ الاجتماعي، مثلما اخترت أن ألتقي بصنف النوازل الفقهية باعتبارها مصدرا يمكن أن يسهم الاشتغال به في تجاوز مشكل قلة المادة المصدرية الخاصة بتاريخ هذه المدينة خلال "العصر الوسيط" وضعفها وتأثيرها. فكان أن توقفت عند نازلة تمتد على ما يزيد عن عشرين صفحة في كتاب المعيار المعرب للونشريسي²، ويتعلق الأمر بما يمكن وسمه "بقضية فتاة تازة"، قضية شغلت حينها ساكنة هذه المدينة وملأت أفواههم، وتحولت إلى قضية رأي عام، إن صح التعبير، ووصلت تداعياتها إلى العاصمة فاس، وعقدت من أجلها مجالس سلطانية لمناقشتها والحسم فيها.

وإذا كنت قد أكدت على أهمية هذه النازلة من الناحية التاريخية بالنسبة لتاريخ مدينة تازة الاجتماعي لما تطرحه من قضايا تخص الأسرة من جهة، وعلاقة المجتمع بالسلطة من جهة ثانية، فقد كان لما أحاط بها من تعقيدات منهجية دور مهم في الدفع بي إلى ضرورة التوقف لإبداء نقطة نظام ضرورية تخص تعامل الباحث في التاريخ مع هذا النوع المعين من النوازل، ويتعلق الأمر بنوازل الخصومات، وتضيف احتياطا منهجيا ضروريا أدعي أنه لم يسبق أن أشير إليه بالبنان فيما وقفت عليه على الأقل.

¹ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط، دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1988 - 1989، ص، 5 - 15 - 16.

² - الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ج3، ص، 59 - 82.

أولاً: النوازل الفقهية وضوابط البحث التاريخي، تذكير لابد منه :

قبل الدخول في تفاصيل هذه القضية، يجدر بنا أن نذكر بما سماه الباحثون والمشتغلون بالنوازل الفقهية بالاعتبارات المنهجية التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار أثناء التعامل مع النازلة الفقهية، والحذر الذي ينبغي أن نتمسك به في استغلال المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي توفرها³، إذ النازلة في كل الأحوال لم تكتب لغرض التاريخ بقدر ما دونت لتوثيق رأي الشرع فيما يصادف الناس من قضايا ومشكلات، حتى يستفيد منها طلبة الفقه والمشتغلون في حقله وفي ميدان الإفتاء والقضاء أيضاً⁴، لذلك عادة ما يتطلب الأمر التسلح بالاحتياطات المنهجية الكفيلة بضمان سلامة عبور المادة التاريخية من الفقه إلى التاريخ، وتتمثل تلك الاحتياطات إجمالاً في الآتي :

1. ضرورة الفصل بين "الخطاب الفقهي" و"الخطاب التاريخي" في كتب النوازل الفقهية من خلال التمكن من اللغة العربية والإلمام بالعديد من مبادئ فقه اللغة، ذلك أن المشتغل بالنوازل يجد نفسه وجهاً لوجه مع فضاء شاسع يعج بمفاهيم واصطلاحات وتراكيب لغوية ذات امتدادات قانونية واجتماعية يختلط فيها المعياري بالواقعي⁵، فالفقيه يمارس القانون عبر استعمال لغة مستمدة من عالمه الفكري، وانطلاقاً منها يحلل الوقائع التي تطرح عليه، مستفيداً مما وفره له الشرع الإسلامي من مفاهيم نظرية غنية. من أجل ذلك اعتبر أحد المتخصصين⁶ أن التمكن من فقه اللغة أمر بالغ الأهمية، ليس فقط لشرح المفردات المستعملة وفهم البنية المعقدة للغة الفقهية، ولكن أيضاً للتمكن من ملاحقة ما كان مستعملاً من عبارات ومفاهيم ومصطلحات اتخذت أبعاداً ومضامين لا تتطابق مع ما هو وارد في القواميس، وذلك في أفق الكشف عن محتويات اللغة باعتبار ما لها من امتدادات اقتصادية واجتماعية وثقافية.

2. العمل على الاطمئنان إلى واقعية النازلة، وذلك من خلال التمييز في النوازل بين ما هو افتراضي وما هو واقعي، ويقصد بالواقعي تلك النوازل التي توفرت فيها مجموعة من القرائن الدالة على أن المشكلة التي تعرضها اعترضت فعلاً حياة فرد أو جماعة، فرفعت إلى المفتي

³ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، ص، 5- 15- 16.

⁴ - المرجع نفسه، ص، 9.

⁵ - المرجع نفسه، ص، 54.

⁶ - المرجع نفسه، ص، 54.

ذ. حميد تيتاو

لمعالجتها، ومن ذلك مكان أو وزمان النازلة، أو أسماء لأشخاص أو أعلام أو أماكن، أو ترافقها عبارات صريحة من قبيل: وقعت، حدثت، كثيرة الوقوع عندنا، جرت العادة في البلد وغيرها...، أو أن ترفق النازلة برسوم أو عقود، أو تذييل بأسماء شهود أو قضاة وغيرها. وكلها قرائن إن توفرت، أو توفرت إحداها أو بعضها، مكنت من الاطمئنان إلى واقعية النازلة مما يسهل اعتمادها وثيقة للتأريخ بمعطياتها التي تربطها بالواقع المؤرخ له⁷. أما الافتراضي، فيقصد به تلك المسائل التي ترفع للمفتي من قبل الطلبة أو زملائه المفتين لتبين رأيه، وكثيرا ما اتخذت صور إشكالات فقهية مبتكرة أو مصاغة من طرف شخص أو أشخاص، الغرض منها التكوين الفقهي لا تدبير قضية معينة، وإن كان من الممكن أن تكون في صيغتها تعبيرا عن قضية كثيرة الوقوع، فصيغت بشكل افتراضي، مجردة من كل ما يربطها بالواقع من قبيل الأسماء أو الشهود أو الوثائق...⁸.

3. توطئ النازلة زمانيا ومكانيا، إذ المعروف أن كتب النوازل الفقهية لم توضع أصلا للمؤرخ، بل جمعت من أجل الفقهاء والمشتغلين بالفقه، ولذلك فهي لم تهتم بعامل الزمان والمكان إلا نادرا، لذلك يصبح المؤرخ ملزما بالبحث عن ما يربط نازلته بالمرحلة والمكان الذي يدرسه، ويكون محظوظا إذا وثقت النازلة بسنة أو عهد سلطان أو دولة، أو باسم مفتي معروف تمكن ترجمته من معرفة زمن النازلة أو غيرها من الأساليب التي تسمح بتأطير النازلة زمانا ومكانا⁹. أما خارج هذه الإمكانيات، فالنوازل المتوفرة تعكس واقعا يتسم بالركود والتطور البطيء وتستوجب متابعتها على المدى الطويل¹⁰.

4. الانتباه إلى مسألة الظرفية والبنوي في النازلة الفقهية، ذلك أن فرز وتصنيف المادة النوازلية يقنع بأنها تعكس أوضاعا تاريخية يختلط فيها البنوي بالظرفية، والباحث مدعو إلى الكشف عن الحالات المفردة التي لا تسمح ببناء استنتاجات عامة، وعن الظواهر الظرفية باعتبارها نتاجا لأوضاع تاريخية طارئة، وتمييزها عن الظواهر التي لا يمكن محاصرتها في

⁷ - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، ص، 55-56.

⁸ - عمر بنميرة، المرجع نفسه، ص، 56.

⁹ - المرجع نفسه، ص، 57-59.

¹⁰ - أحمد التوفيق، إينولتان، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط2، 1983، ص، 35-37.

ذ. حميد تيتاو

المدى القصير والمتوسط، والابتعاد عن مقاربتها كأحداث¹¹، بل يلزم التعامل معها باعتبارها
تعكس "بنية اجتماعية جامدة أو بطيئة التطور" بتعبير أحمد التوفيق¹².

ثانيا: القضية النموذج : قضية فتاة تازة :

بالعودة إلى قضيتنا، واعتبارا للاحتياطات المنهجية السابق ذكرها، تبدو النازلة التي
سنتعامل معها محاطة بكل الضمانات التي تسمح بالتعامل معها مادة تاريخية صالحة
للكشف عن بعض قضايا التاريخ الاجتماعي لمدينة تازة خلال العصر المريني. غير أن ما ينبغي
التنبه إليه، أخذا دائما بالاحتياطات المنهجية المذكورة، يتعلق بمسألة الظرف والبنوي في
النازلة، إذ القضية التي نعرضها هنا تعكس في أحداثها حالة ظرفية مفردة وخاصة، وقريبة
من الحدث أكثر من الظاهرة البنيوية، لكنها في تداعياتها وما لحقها من تبعات تكشف
أيضا عن بنية اجتماعية وسياسية تتجاوز ظروف النازلة ومكانها، لتساءل في جانب منها
أشكال العلاقات الأسرية، وفي جانب آخر بنية الحكم والعلاقة بين السلطة والمجتمع
بشكل عام. ولإثبات ذلك، سنسعى إلى اعتماد التدرج في طرح القضية من خلال وثائقها،
وإخفاء بعض معطياتها إلى مراحل متقدمة من هذا العرض، حتى يتسنى لنا مناقشة ما هو
ظرفي وما هو بنيوي في النازلة التي تخص تازة أولا، ثم لتبيان مشكل آخر منهجي نعتقد أنه
يمثل حجر عثرة أكبر في التعامل مع هذا النوع من النصوص ثانيا.

الوجه الأول للقضية : احتجاز وتعذيب ومنع من الزواج :

أطراف القضية :

المدعية : فتاة من أهل تازة.

المدعى عليه : والد الفتاة، ويدعى إبراهيم بن عبد الله العنبيكي من سكان مدينة
تازة¹³، رجل بسيط على ما يبدو من خلال النازلة يكفل أيتاما توفيت أمهم، ومنهم الفتاة
المشتكية¹⁴.

11 - عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، ص، 59 - 60.

12 - أحمد التوفيق، إينولتان، ص، 35 - 37.

13 - الونشريسي، المعيار، ج3، ص، 65 - 75.

14 - المصدر نفسه، ج3، ص، 59.

التهمة : احتجاز الفتاة وتعذيبها بشتى أنواع العذاب، ومنعها من الزواج ممن تقدم لخطبتها.

المكان : بيت من بيوت تازة أولا ثم مجلس القضاء بالمدينة ثانيا.

التاريخ : 736 هـ¹⁵.

القاضي : أبو عبد الله الأصمغ عيسى بن محمد الترجالي قاضي تازة خلال هذه الفترة¹⁶.

وإليك القضية مقدمة برواية القاضي بعد أن حكم في القضية، ثم أرسل تفاصيل الحكم إلى شيوخ فاس لتأكيد أو نفيه :

قال القاضي الترجالي إنه حكم على رجل من أهل تازة بأن زوج عليه ابنته لموجب يفسره، ويمضي في سرد تفاصيل القضية، حيث تحدث عن تقديم الفتاة لشكاية للقاضي تتهم فيها أباه أنه "يضر بها بسبب تهمتها بالزنى، فجلدها من ظهر جمعة إلى قرب العشاء مكشوفة العورة، وجعل عليها قرمة، وحلق شعرها وألبسها التليس، وصار يبصق في وجهها أي وقت رآها وطرحها وصار يجوعها ويطعمها ما لا تعتاد، وبعث إلى القوابل ينظرن عورتها، فصار ينظر في فرجها معهم، ويتوعدها ويهددها بالقتل، واتصل ذلك من فعله إلى أن وجدت فلتة ففرت بنفسها، وأنه عضلها (منعها) عن أكثر من أربعة من الخطاب، وأن ابن الترجمان خطبها ورضيت بإنكاحه وهو كفاء لها، وأن والدها امتنع من إعطائها له، وسألت مني النظر في مسألتها بالوجه الشرعي، فكلفتها إثبات دعواها، فاسترعت بشهود من البلد أكثرهم بالمباشرة لبعض الضرر، وبعضهم بالسماع الفاشي المنتشر في البلد"¹⁷.

أضاف القاضي أن الشهود أكدوا أقوال الفتاة¹⁸، بل "وزادوا مع ذلك من وجوه الضرر، أنه يتحدث مع كل من يرى ويلقى من الناس بحديث زناها، وأنها ولدت من زنى، ويجتمع عليه حين حديثه الناس لخفة عقله، وأن الناس رغبوا في خطبتها وفروا بسبب ذلك، وألبسها ثناء سوء عند رجال أهل البلد ونسائهم، وشهد مع ذلك بعض العارفين بحاله وحالها أن

¹⁵ - الوثنريسي، المعيار، ج3، ص، 80.

¹⁶ - المصدر نفسه، ج3، ص، 59.

¹⁷ - المصدر نفسه، ج3، ص، 59.

¹⁸ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

د. حميد تيتاو

نكاحها صلاح وسداد في حقها لإنقاذها من عذابه، وكونه لا يؤمن عليها مزيد فساد، وهي رغبة في النكاح وطالبة له، وشهدوا بكفاءة الخاطب في الحال والمآل¹⁹.

أكد القاضي أنه طالب والد الفتاة بالرد على هذه الاتهامات والدفع في أقوال البنت والشهود²⁰، وكشف عن حديث دار بينه وبين الوالد، اعتبر فيه هذا الأخير أنه غير مهتم بهذه الاتهامات، بل واتهم القاضي بتوجيه القضية لصالح البنت وخاطبها، فسجنه نتيجة ذلك ليومين تأديبا له²¹. ثم إن والد الفتاة، أضاف القاضي، أصر على موقفه في عدم الموافقة على هذا الزواج. ونتيجة لذلك، سحب منه القاضي ولاية ابنته وتكفل هو بتزويجها، معتمدا في ذلك على عنصر الضرر الذي لحق بالفتاة، وعلى عنصر العضل أي منع الأب لابنته من الزواج، ثم على اعتراف البنت بالزنى مما يسحب ولاية الأب، ثم على كفاءة الخاطب. وبناء على هذه العناصر، حكم القاضي بسحب ولاية الأب عن ابنته، ونصب نفسه وليا عليها ثم زوجها من خاطبها ابن الترجمان²².

نتساءل الآن، ماذا لو اعتمدنا على منطوق هذه النازلة، ليس باعتبارنا فقهاء طبعا بل باحثين عن المعلومة التاريخية التي تخص مجتمع تازة؟ ألا يحق لنا أن نقول إن النازلة المقدمة تسمح لنا بالتسلل إلى عمق العلاقات الأسرية داخل بيت من البيوت المغربية، من خلال التوقف عند نوع معين من أشكال هذه العلاقات في توترها، وذلك من خلال علاقة فتاة بوالدها وأشكال تدبير هذه العلاقة، خاصة عندما تصبح الفتاة مقبلة على الزواج، ويضحى رأي الأب هو الحاسم في قبوله أو رفضه²³، مثلما تسمح بالكشف عن موقف المجتمع من المرأة وتصوراته عنها²⁴، حين يصبح الأب حبيس تلك التصورات في محاكمة ابنته المتهمة بالزنى²⁵، مثلما تكشف من جهة أخرى عن أوضاع الأسر التي فقدت أحد الأبوين خاصة

¹⁹ - الونشريسي، المعيار، ج3، ص، 59-60.

²⁰ - المصدر نفسه، ج3، ص، 60.

²¹ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

²² - المصدر نفسه، ج3، ص، 61.

²³ - أنظر للتفصيل، محمد لطيف، الحياة الأسرية بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني، 668-869هـ/1269-1465م.

أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 2008-2009، ص، 50-55.

²⁴ - يُنظر للتفصيل محمد ياسر الهلالي، نظرة المجتمع للمرأة في مغرب القرنين 8-9هـ/14-15م، مساهمة في تاريخ

الذهنيات، مجلة أمل، العدد 13-14، السنة الخامسة، 1998، ص، 76-98. محمد لطيف، الحياة الأسرية.

ص، 180-189.

²⁵ - محمد لطيف، الحياة الأسرية، ص، 186.

ذ. حميد تيتاو

الأم، وما يتعرض له أبنائها من صنوف الاستضعاف²⁶، خاصة إذا كانت الأسرة من الأسر الفقيرة والمستضعفة، وتصبح الفتاة اليتيمة عرضة للتغريب أو الاغتصاب²⁷... ومع كل هذا نؤكد أن الحالة التي أمامنا تمثل حالة مفردة وظرفية، وربما شاذة يصعب تعميمها، لتتحول إلى ظاهرة اجتماعية عرفها تاريخ تازة أو غيرها من المدن، وهنا يكمن الظرف في هذه النازلة.

أما الجانب البنيوي فيها، فيتمثل، في اعتقادنا، فيما تكشف عنه النازلة من ذهنية جماعية، لسنا هنا بصدد محاكمتها من خلال تصوراتنا المعاصرة، لا تعترف بأحقية المرأة في اختيار شريكها، وتسحب عنها قرارا يخص شأنها أساسيا من شؤون حياتها الخاصة، وترهنه بوليها أبا كان أو غيره²⁸، حيث يبدو قرار القاضي في هذه القضية أكثر من المتوقع ومنافيا لما كان سائدا، ما دام أنه انتصر لحق الفتاة في اختيارها لمن تريده زوجا لها، وعبر عن رفضه لمنطق الإرغام الذي مورس ضدها من قبل والدها، معتمدا في ذلك ضوابط فقهية تعتبر عنصر الضرر ومنع الفتاة من الزواج وكفاءة الخاطب عناصر تسقط ولاية الأب عن ابنته.

اعتبارنا لحكم القاضي في هذه القضية استثنائيا منافيا لما كان سائدا في ذهنية مغاربة هذه المرحلة نابع أولا من اقتناعنا بقدرة أي سلوك اجتماعي مرتبط بالعرف أو العادة، ومن ذلك تدخل الأب أو الولي في اختيار شريك ابنته، أن يتحايّل على أي ضابط قانوني يقلص حدود هذا التدخل ويرسم حدوده، إذ من الممكن تغليف تعنيف الأب لابنته بغلاف تربوي أخلاقي يعتبر هذا التعنيف دفاعا عن مصلحة الفتاة من قبل أبيها العارف أكثر منها بمصلحتها، كما يمكن أن يعتبر مشروعا ما دام أن الفتاة قد ارتكبت فعلا فاحشا في نظر مجتمعها يستلزم عقاب والدها لها. وتجد قناعتنا هذه تأكيدا لها في المواقف المتضمنة في أجوبة بعض الفقهاء الذين تفحصوا النازلة، وعبروا عن رأيهم في حكم القاضي، حيث اعتبرت أن الأب أدرى بمصلحة ابنته، وبررت عنفه ضد ابنته ما دام أنه في مصلحتها. ومن ذلك اعتبار الفقيه أبي الضياء مصباح، أحد منتقدي حكم القاضي، أنه "لا ترتفع ولاية الأب عن

²⁶ إبراهيم القادري بوتشيش، الإسلام السري في المغرب العربي، سينا للنشر، القاهرة، 1995، ص، 151 - 157. ومحمد استيتو، الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و 17م، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، الطبعة الأولى، 2004م، ص، 192 - 194.

²⁷ يُنظر، حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث 1، الدار البيضاء، 2009، طبع منشورات عكاظ، 2010، ص، 403.

²⁸ للتفصيل، يُنظر، محمد لطيف، الحياة الأسرية، ص، 50 - 55.

ذ. حميد تيتاو

ابنته البكر بنفس ضرره بها"²⁹، وأن القاضي لو تقدم للأب وسأله عن أسباب رفضه للخاطب الذي رضيت به الفتاة "لكان له عذر في امتناعه من نكاحها من الخاطب المذكور، لما ثبت عنده أنه اغتال ابنته المذكورة أي التقى بها في غفلة منه، وتحيل في خروجها من منزل أبيها حتى تحصلت في منزل أبيه وغاب عليها فيه"³⁰.

تحليل النصوص السالف ذكرها، إلى جانب ما تزخر به كتب النوازل وغيرها من المظان، إلى تصور مجتمعي اتجاه المرأة في هذا المجال³¹، حيث عادة ما اعتبر إصرار الفتاة على خطيب ما ضدا على رغبة وليها من الأمور الشنيعة التي ينبغي القطع معها ومحاربتها، خاصة مع كثرة ظاهرة فرار النساء من أوليائهن للزواج ممن اخترنهم³²، ومن ذلك حديث عن "فاحشة هروب النساء مع الرجال"³³، وعن هذا الأمر الذي "كثرت به البلوى"³⁴، ورأي الفقيه أبي الحسن الصغير الذي صرح "أن من البدع المحرمة التي يجب قطعها والتأديب عليها، ما شاع عند بعض المفسدين أن تهرب إليه المرأة ليتزوجها، ويمنعها من وليها أبا كان أو غيره"³⁵، وقس على ذلك حديث الوزان³⁶ عن ظاهرة هروب النساء من أوليائهن حتى يتزوجن ممن رضين به، مما يكشف عن ظاهرة اجتماعية تتجاوز ظرفية حدث تازة الموثق في هذه النازلة.

الوجه الثاني للقضية : شطط في استعمال السلطة واستغلال للنفوذ :

لقد آثرنا أن نؤخر جزءا من القضية كما رواها القاضي الترجالي الذي حكم في القضية ما دام أنه لم يؤثر في مسارها، ولم يقف حجر عثرة أمامه في إصدار حكمه ضد الأب حين زوج ابنته عنه. ويتمثل هذا الجزء في كون الأب لم يرض بحكم القاضي، فلجأ إلى

²⁹ - الوثنريسي، المعيار، ج3، ص، 62.

³⁰ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³¹ - يُنظر للتفصيل، محمد لطيف، الحياة الأسرية، ص، 50.

³² - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

الشركة المغربية للناسرين المتحدنين، الطبعة الثانية، 1983 م، ج1، ص، 334. الزياتي، الجواهر المختارة مما وقفت

عليه من النوازل بجمال غمارة، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم 1698د، ص، 154.

³³ - العلمي، كتاب النوازل، الجزء الأول، تحقيق المجلس العلمي بفاس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،

مطبعة فضالة، المحمدية، 1043 هـ / 1983 م، ص، 89.

³⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص، 101.

³⁵ - المهدي الوزاني، النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى، طبعة حجرية، خزانة الجامع

الكبير، مكناس، ج3، ص، 179.

³⁶ - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص، 334. ويُنظر للتفصيل، محمد لطيف، الحياة الأسرية، ص، 52 - 53.

ذ. حميد تيتاو

تقديم مظلمة للسلطان أبي الحسن المريني في فاس، واستجاب السلطان لطلبه، فعقد مجلسا للمظالم للنظر في القضية، لكن يبدو أن شيوخ الشورى نظروا في القضية نظرا خفيفا، وأكدوا حكم القاضي وأغلقوا القضية³⁷. ثم إن الأب لم يقتنع بهذا الحكم بل قدم شكاية للفقهاء المعنيين من جديد، واعتبر القاضي الترجالي أن الأب حور القضية وأخفى منها جانب العضل أي منع الفتاة من الزواج، وأخفى منها جانب الضرر الذي ألحقه تعذيبه بالفتاة³⁸. وهو السبب الذي دفع أصلا بالقاضي الترجالي إلى أن يبعث بنسخة القضية إلى قضاة فاس دفاعا عن حكمه، والحيثيات التي رافقته وأخفاها والد الفتاة في شكايته.

من حسن حظنا في تعاملنا مع هذه النازلة أنها وفرت لنا وثائق أخرى وروايات أخرى للقضية غير رواية القاضي التي تعاملنا معها في بداية هذا البحث، وتكشف هذه الروايات عن وجه ثان للقضية وعن ملابسات أخرى قد تعصف بكل الاستنتاجات السابقة التي توصلنا إليها، على الأقل في شقها الظري المتعلق بحادث تازة، وتقلنا من العلاقات الأسرية إلى علاقة السلطة بالمجتمع من خلال بعض مؤسساتها، وإلى قضية جديدة تتمثل في الشطط في استعمال السلطة واستغلال النفوذ.

السائل : القاضي الجديد الذي تولى القضاء في تازة بعد موت القاضي الترجالي.

الزمان : سنة 739هـ.

المدعي : والد الفتاة إبراهيم بن عبد الله العنبيكي.

المدعى عليه : القاضي أبو الأصبع عيسى الترجالي الذي حكم في القضية.

المدعى عليه الثاني : ابن الترجمان خطيب الفتاة.

القضاة : شيوخ الشورى المكلفون بالنظر في المظالم التي ترفع إلى السلطان أبي الحسن المريني، ومنهم أبو سالم إبراهيم بن عبد الله اليزناسني، وأبو الضياء مصباح، وأبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الأغصاوي.

³⁷ - الونشريسي، المعيار، ج3، ص، 61 - 69.

³⁸ - المصدر نفسه، ص، 61 - 62.

في أجوبة فقهاء فاس على القاضي الترجالي، نقرأ ونستنتج ما يلي :

1. قول أبي الضياء مصباح في جوابه للقاضي إنه ظهر "جوركم على والد البنت وبان أيضا أنكم صرتم له خصماء من فحوى كلامكم، ومن قرائن أحوالكم، ومن رسوم وقفنا عليها بيده، فلا يقبل قولكم عليه : صح وثبت عندي، والواجب في القضية رفع أيديكم منها وعزلكم عنها، واستئناف النظر فيها عند غيركم ممن يراه السلطان نصره الله أهلا لذلك" ³⁹.

2. حديث الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن محمد القيرواني عن "المسألة المعضلة التي لم يتوهم بقاؤها إلى الآن، وما وقع فيها من الأمر الشنيع، والفعل القبيح، فرأينا فيما احتوت عليه وجوها اقتضت كلها فساد النكاح وجريانه على غير سنن الشريعة، ودلت على الانحراف عنها" ⁴⁰.

تكشف هذه المواقف التي عبر عنها فقهاء فاس تجاه حكم القاضي عن حقائق جديدة توفرت لدى هؤلاء الفقهاء، فأنكروا على القاضي حكمه. فما الذي تكشف لهؤلاء فغير مسار القضية، وتحول القاضي من حكم إلى خصم ؟

لندع نسخة أخرى ورواية مغايرة للنازلة نتحدث عن نفسها، وتجب عن السؤال، ولنتمعن في القضية كما عرضت على القاضي الجديد بعد وفاة القاضي الترجالي: "جوابكم في مسألة، وهي أن قاضيا كان زوج على رجل ابنته البكر في حجره من رجل معين كان الأب يشتكي به أنه يخيب ابنته، فامتنع الأب من إنكاحه إياها لما ذكر عنه واشتهر من تخييبه إياها إذ كان جارا للأب، وزعم القاضي المذكور أنه ثبت عنده ضرر الأب لها وعضله إياها عن النكاح، وأنها ثيب من زنى في رسم استرعاء، فجلس القاضي في المسجد في أيام العيد وقال للرجل زوج ابنتك من فلان، فإنه ثبت عندي في الفصول المذكورة وأثبت عندي أنه كفء لها، فقال له والد البنت المذكورة: أنا أزوجها من كل أحد إلا منه، فلما سمع منه ذلك ضربه وسجنه، فقال له خذ مني حميلا [ضمائنا]، فقال لا يؤخذ فيه حميل، ولم يمكنه من نسخة رسم ولا من غيره، فبقي الرجل في السجن يومين، وذكر أنه أعذر للأب المذكور في حل الرسم وأجله أجلين، وأعذر له في ذلك كله وعجزه، وزوجها من الرجل الذي امتنع الأب

³⁹ - الونشريسي، المعيار، ص، 63.

⁴⁰ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ذ. حميد تيتاو

من تزويجه إياها، ثم توفي القاضي المذكور، وولي بعده قاض آخر. فقام الأب المذكور يطلب فسخ النكاح، وأن عنده بينة تشهد على اعتراف الزوج الذي زوجها منه القاضي المذكور أنه وجد البنت المذكورة بكرا عذراء، فهل يجب فسخ هذا النكاح بتقدير إثبات الأب ما يناقض فصول رسم الاسترعاء الذي زوجها به القاضي المذكور على كل من يقدر على فسخه أم لا ؟ هذا مع أن القاضي الثاني لم يفسخ النكاح المذكور فبينوا لنا ذلك (...). فيظهر من كل هذا أن ذلك الحكم وقع على غير أساس، إما لخطأ الحاكم أو لغرض تتبع فيه، فالله أعلم أي ذلك كان⁴¹.

نحتفظ من منطوق هذه النسخة من القضية بعد تولي القاضي الجديد بالقضايا التالية :

1- ما ورد في ديباجة السؤال أن الأساس الذي حرك هذه الدعوى أصلا وأوصلها إلى مجلس قضاء الترجالي بتازة آنذاك لم يكن كما قدمه القاضي المذكور اعتمادا على شكاية الفتاة بعد تعذيبها من والدها، بل رفض الأب تزويجها من ابن الترجمان.

2- قول السائل : "وزعم القاضي المذكور أنه ثبت عنده ضرر الأب لها وعضله إياها عن النكاح، وأنها ثيب من زنى"⁴²، "وزعم" تحيل هنا إلى عدم حرص القاضي على إثبات الضرر والتعذيب الذي اتهم به والد الفتاة، مما يعني أنه بنى حكمه على غير إثبات. كما أن الفقهاء الذين عرضت عليهم هذه القضية تحدثوا عن رسم تقدم به والد الفتاة ينفي مسألة عضله لابنته⁴³. والدليل هنا تكرار الأب قوله للقاضي أنه مستعد لتزويجها من أي كان غير هذا.

3- قوله : "وقال للرجل زوج ابنتك من فلان، فإنه ثبت عندي أنه كفؤ لها، فقال له والد البنت المذكورة أنا أزوجها من كل أحد إلا منه، فلما سمع منه ذلك ضربه وسجنه، فبقي الرجل في السجن يومين، وذكر أنه أعذر للأب المذكور في حل الرسم وأجله أجلين، وأعذر له في ذلك كله وعجزه، وزوجها من الرجل الذي امتنع الأب من تزويجه إياها"⁴⁴، مما يحيل إلى حرص القاضي على تحقيق هذا الزواج من خلال سجن الرجل ومنعه من إثبات دعاويه برسوم وشهود.

⁴¹ - الوثنريسي، المعيار، ص، 68.

⁴² - المصدر نفسه، ص، 68.

⁴³ - المصدر نفسه، ص، 66.

⁴⁴ - المصدر نفسه، ص، 68.

ذ. حميد تيتاو

4- قوله: "فقام الأب المذكور يطلب فسخ النكاح، وأن عنده بينة تشهد على اعتراف الزوج الذي زوجها منه القاضي المذكور أنه وجد البنت المذكورة بكرا عذراء"⁴⁵. ثم إقرار الفتاة أنها كذبت في اعترافها بالزنى⁴⁶. وهو ما قد يحيل إلى أن ادعاء الثبوتية تقنية استعملت لتمرير حكم القاضي، وتحقيق هدف ابن الترجمان، ما دام أن الثبوتية تسقط ولاية الأب على ابنته.

5- ما ورد في أجوبة الفقهاء على هذه النسخة من أن الشهود الذين اعتمد عليهم القاضي حول مسألة تعذيب الفتاة أنكروا بعد وفاته شهادتهم في القضية أصلا: "ومنها أن شهود الإضرار الذين نسب إليهم العلم بذلك قد أنكروا أن تكون لهم شهادة..."⁴⁷. ومؤاخذتهم للقاضي في إصراره على عدم توفير الوقت الكافي للرجل لإثبات دفاعه بل سجنه له، وهو ما استنكره هؤلاء الفقهاء. ويضاف إلى ذلك تزويج القاضي للفتاة قبل الاستبراء بعد اعتراف بالزنى⁴⁸. مما يطرح أكثر من سؤال حول هذه السرعة في كتابة عقد الزواج.

كل هذه قضايا تجعل القاضي أبا الأصبغ عيسى الترجالي في موضع اتهام أساسه توجيه القضية بالشكل الذي يفضي إلى تحقيق هدف ابن الترجمان ضدا على موقف الأب، بل واتهامه بتلفيق التهم لوالد الفتاة لتسهيل عملية سحب ولايته عليها. فهل يمكن الحديث عن شطط في استعمال السلطة من قبل القاضي؟ واستغلال ابن الترجمان لنفوذه على حساب مستضعف من ساكنة تازة؟

يبدو أنه من حسن حظ الباحث أن تتوفر وثائق أخرى عن القضية تسهم في الجواب عن هذه الأسئلة، وأهم هذه الوثائق رسالة التظلم التي بعث بها إبراهيم العنبيكي إلى السلطان يشتكى فيها جور القاضي، ثم نسخة من القضية كما عرضت على شيوخ الشورى في فاس تتوفر على معلومات إضافية تنير جانبا من هذه الإشكالية.

في رسالة التظلم نقرأ حديثا من الأب عن "أمر عظيم أهتك حرمة، وأضعف مهجته، وغير كثيرا، وكان أمر الله قدرا مقدورا"⁴⁹، وأن "له أولاد صغار لا أم لهم تكفلهم، ولا

45- الونشريسي، المعيار، الصفحة نفسها.

46- المصدر نفسه، ص، 64.

47- المصدر نفسه، ص، 63.

48- المصدر نفسه، ص، 64.

49- المصدر نفسه، ص، 75.

د. حميد تيتاو

جدة تحضنهم، وهم في منزله وتحت كفله وحرزه، ولا يخرج عنهم إلا لطلب معيشة أو إصلاح حال، آمنا عليهم من الحدثان، غافلا عن مجاورة السكان"⁵⁰، ثم إن "رجلا من جيرانه بعث لابنة صغيرة من الأولاد المشار إليهم بالتعريض وغيره ويخوفها ولم يقدر عليها، ثم استعان بأمه وأخته كان يوجههما لها برسم خداعها، والأخذ بعقلها المرة بعد المرة (...) حتى انتهى الأمر إلى ما قدره الله وقضاه"⁵¹، ف"رفع أمره لمن له الأحكام بالمدينة، فلم يجد لديه نصيرا، فاستعان الفاسد بما ظهر له وتعدى، ولم يجد العبد بدا من القصد إلى مقامكم العلي السني"⁵².

أما في نسخة القضية كما عرضت على شيوخ الشورى، فتتكشف معطيات جديدة يبدو أن شيوخ الشورى اطمأنوا إلى ما فيها، فأنكروا على القاضي حكمه، ومما تضيفه هذه النسخة تفاصيل النزاع بين الأب وابن الترجمان، فقد "جاء الولد الذي أفسد البنت المذكورة إلى دار أبيها ذات ليلة ليدخل عليها، فانتبه والد البنت المذكورة فخرج في طلبه فأدركه، فحبسه من ثيابه، فتركها في يده وهرب منه، فرجع والد الصبية المذكورة إلى داره فلم يجدها، فصاح والد البنت المذكورة على شهود عدول فذكر لهم القضية، فذهب الشهود إلى دار المفسد للبنت المذكورة، فصاحوا عليه فسألوه عن هذه القضية وعن ثيابه أين هي، فذكر لهم أن والد البنت صاح عليه فخرج إليه وأخذ ثيابه، فأنكروا عليه ذلك لكون والد البنت ممن لا يشار إليه بذلك، فأرادوا الانصراف عنه فردهم ورغب منهم أن يحاولوا له القضية مع والد البنت المذكورة، فرجعوا إليه وقالوا له إن والدها حلف أن لا يزوجه إليك، وقالوا له أين البنت فردها إلى أبيها. فقال لهم فانتظروها في مصريتي، فدخلوا مصريته فلم يجدوها فرجعوا إليه (...). فلما كان صبيح تلك الليلة، وجدت البنت المذكورة بدار القاضي، فردت البنت المذكورة إلى دار أبيها"⁵³.

في هذا العنصر من القضية ما يكشف عن أساس الدعوى التي رفعت إلى القاضي أصلا، إذ الأمر يتعلق بنزاع بين الأب وابن الترجمان، وليس اتهام الأب من قبل ابنته بالتعذيب والعضل، كما ادعى القاضي في روايته. ثم إن ورود اسم القاضي في القضية قبل أن تعرض عليه، يثير أسئلة كثيرة عن علاقته بالموضوع منذ بدايته، فقد وجدت البنت الهاربة في داره،

⁵⁰ - الوثنريسي، المعيار، ص 75.

⁵¹ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁵² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁵³ - المصدر نفسه، ص 77.

ذ. حميد تيتاو

مما قد يحيل إلى فرضية لا نملك ما يؤكدھا، مفادھا أن لجوء الفتاة إلى دار القاضي قد يكون إما طلبا لحمايته باعتباره قاضي المدينة، أو باعتباره صديقا لابن الترجمان، وأن القاضي قد أصبح على علم منذ هذه اللحظة بتفاصيل النزاع الذي سيستمر عامين قبل أن يعرض على القاضي نفسه.

تستمر هذه النسخة في الكشف عن بعض تفاصيل القضية، حيث يتبين أنه بعد الحادثة ورجوع الفتاة إلى دار أبيها "بقيت عنده نحو عامين"⁵⁴، مما يدفع إلى السؤال عما إذا كان والد الفتاة قد عذبها خلال هذه المدة، خاصة وأنها متهمة من طرفه بتشويه سمعته. أما الجديد هنا، فهو أن والدها "عقد عليها النكاح مع طالب على أن تحمل والد البنت المذكورة بنقد ابنته بحق الطالب المذكور"⁵⁵. وهنا يسقط أحد بنود حكم القاضي بسحب ولاية الأب، ونبدأ في تأكيد الشطط في استعمال السلطة. ثم إنه بعد عقد الزواج المذكور مع الطالب المذكور بيوم واحد، أتى هذا الأخير "إلى والد البنت المذكورة، وذكر له أنه تخوف من جانب المفسد للبنت المذكورة، وسأله أن يعفو عنه ويطلقها، ففعل والد البنت المذكورة وطلقها"⁵⁶. مما يكشف عن نفوذ واسع لابن الترجمان، دفع بالطالب إلى التراجع عن هذا الزواج.

أما الغريب في هذه القضية فكشفها عن حقيقة ما ادعاه القاضي عن حكاية التعذيب والمنع من الزواج وسبب إيداع والد الفتاة السجن، إذ تبين أن مؤامرة أعدت ضده في غيابه من قبل القاضي لتسهيل زواج ابنته من صاحبه، فبعد عودة الأب من سفر إلى فاس "وجد قد استرعي عليه رسم يتضمن أنه عاضل ابنته المذكورة مضربها، وأنها ثيب معنسة وهي بنت العشرين سنة، فأراد أن ينصرف إلى المقلد بأمور المسلمين نصره الله تعالى وأيده لينظر في أمره، فبعث قاضي المدينة إليه أعوانه فردوه من الطريق، فقال له زوج ابنتك من فلان، وهو المفسد للبنت، فامتنع من ذلك، فأمر عليه بالرز والسياط وسجنه يوما واحدا، ثم سرحه من السجن، فخرج من بلده متوجها إلى السلطان أيده الله بنصره في مسألتها، فما رجع حتى وجد القاضي زوج البنت المذكورة للمفسد المذكور"⁵⁷.

54 - الونشريسي، المعيار، ص 77.

55 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

56 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

57 - المصدر نفسه، ص، 78.

ذ. حميد تيتاو

بهذه المعطيات الجديدة، ثبت للفقهاء الذين نظروا في القضية أن القاضي أبا الأصبع عيسى الترجالي قد استعمل منصبه في غير ما أسند إليه، واتفقوا كلهم على أن القاضي استند إلى أدلة غير موجودة أصلاً، فأخذوا عليه عدم ثبوت الضرر لإنكار الشهود تلك الشهادة⁵⁸، وعدم ثبوت العضل أي منع الفتاة من الزواج بعد تأكيد تزويج الأب لابنته من الطالب⁵⁹، وأنكروا عليه عدم الأخذ بالاستبراء بعد الزنى، فكيف وقد تراجع الطرفان عن اعترافتهما مما يكشف عن أن ذلك الاعتراف استغل لانتزاع ولاية الأب⁶⁰، بل وأنكروا عليه تزويجها لابن الترجمان لعدم كفاءته دينياً لثبات فساد الأخلاقي⁶¹.

بسبب هذه الحقائق التي اطمأن إليها شيوخ الشورى، اعتبر أبو سالم اليزناسني أنه لا بد من مراجعة هذا الحكم، إذ "لا يتعرض من ولي قضاء من قبله إلا في الجور البين، وقد ثبت جوره بما اقتضاه السؤال من ثبوت ذلك"⁶². وتحدث أبو الربيع سليمان بن عبدون السريفي عن "تجوير القاضي المتولي لذلك"⁶³. وأقر أبو الضياء مصباح بجور القاضي على والد البنت⁶⁴، واعتبر الفقيه أبو فارس عبد العزيز بن محمد القيرواني ما وقع في هذه المسألة من "من الأمر الشنيع، والفعل القبيح، فرأينا فيما احتوت عليه وجوها اقتضت كلها فساد النكاح وجريانه على غير سنن الشريعة ودلت على الانحراف عنها"⁶⁵.

تكشف هذه القضية إذن عن شطط في استعمال السلطة من قبل القاضي، أبرز مظاهره ما تذكره النازلة عن منعه لوالد الفتاة من التوجه إلى فاس وإرغامه على الموافقة على تزويج ابنته من ابن الترجمان من خلال تعنيفه "بالسياط والسجن"⁶⁶، وربما تلفيق التهم له والتشهير به وبابنته لتسهيل سحب ولايته عليها، إذ لم تتأكد مسألة تعذيبه لها، بل وتؤكد مدى زيف ادعاء العضل، وكذا إنكار الشهود لمسألة شهادتهم عن تعذيب الفتاة وعضلها، كما ثبت زيف منطلق القاضي في انطلاق مجريات القضية، إذ بقدر ما دبح رسالته بأن

⁵⁸ - الونشريسي، المعيار، ص، 63.

⁵⁹ - المصدر نفسه، ص، 77.

⁶⁰ - المصدر نفسه، ص، 64 - 65.

⁶¹ - المصدر نفسه، ص، 80.

⁶² - المصدر نفسه، ص، 66.

⁶³ - المصدر نفسه، ص، 67.

⁶⁴ - المصدر نفسه، ص، 63.

⁶⁵ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁶⁶ - المصدر نفسه، ص، 77.

ذ. حميد تيتاو

السبب في نظره في القضية هو لجوء الفتاة إليه تشكو تعذيب والدها لها، بقدر ما تبين حتى من خلال روايته أن السبب هو محاولة إرغام الأب على تزويجها من ابن الترجمان. وفي كل هذا ما يكشف عن وجه من وجوه تدبير العلاقة بين السلطة والمجتمع في المدن المغربية خلال العصر المريني من خلال إحدى أهم مؤسساتها وهي القضاء، على أنه لا بد هنا من تأكيد صعوبة تعميم مثل هذا الاستنتاج، فالحالة التي لدينا تدخل في الظرف المرتبط بحدث معين لا ببنية سياسية مستمرة.

إلى جانب الشطط في استعمال السلطة، تكشف هذه القضية عن استغلال للنفوذ من قبل ابن الترجمان، لم يتمكن من إثبات مصدره، وعما إذا كان مرتبطا بجاه وقرب من السلطة ومنها القضاء، أم بمال وسطوة أم بهما معا⁶⁷. أما ما يثبت هذا النفوذ، إلى جانب ما ثبت عن إصرار القاضي تزويج الفتاة منه، فقول أحد الفقهاء ممن أجاب على النازلة بعد أن علم برفض القاضي الجديد النظر في القضية أنه "يجب على كل من له القدرة على تغيير المنكر، التعرض لهذا الداهية بفسخها إن جعل له ذلك، أو بإنهائها إلى من لا يخاف إلا الله ويرجو عظيم ثوابها وهو السلطان أيده الله ونصره"⁶⁷، وتأكيد القاضي أبي الضياء مصباح أن "على القاضي الجديد النظر في القضية وأن لا يأبى ذلك، وإلا رفع الأمر لمن له سلطان الحكم نصره الله، وأقام فقيها فاضلا لا تأخذه في الله لومة لائم"⁶⁸.

ثالثا : عود على بدء، احتياط منهجي جديد لا بد من مراعاته :

لنعد الآن إلى منطلق هذه القضية، ولنتذكر ما علق في أذهاننا باعتبارنا باحثين في التاريخ بعد استعراض تفاصيلها، فنحن أمام قضيتين لا قضية واحدة :

1- قضية الفتاة المعذبة حد السادية من قبل أبيها والمحتجزة والممنوعة عن الزواج ورأي الشرع والقضاء فيها، وهي التي قدمها القاضي الترجماني لشيخ الشورى بفاس قصد إبداء رأيهم فيها، فأكدوا حكمه بناء على المعطيات التي ضمنها سؤاله، ومنها استلهمنا معلومات تاريخية تخص بعضا من قضايا التاريخ الاجتماعي والأسري لمدينة تازة.

2- قضية الأب المشتكي من شطط في استعمال السلطة واستغلال للنفوذ من قبل قاض وقريب منه، وهي التي قدمها القاضي الجديد لشيخ الشورى أنفسهم، لكن هذه المرة

⁶⁷ - الوشنريسي، المعيار، ص، 67.

⁶⁸ - المصدر نفسه، ص، 69.

ذ. حميد تيتاو

بمعطيات جديدة، تراجعوا من خلالها على مصادقتهم على حكم القاضي، وأنكروا عليه جوره، ومنها استقينا معلومات تاريخية تخص جانباً من علاقة السلطة بالمجتمع من خلال مؤسسة القضاء.

لكن المشكلة هنا تكمن في صحة ما استنتجناه، فإذا اعتمدنا ما ورد في القضية الأولى، طبعاً بعد النقد والتمحيص، صح ما استنتجناه من خلالها، وسقطنا في خطأ التقدير في استنتاجاتنا من القضية الثانية، والعكس صحيح أيضاً. وبمعنى آخر، لو اعتمدنا القضية الأولى، فنحن أمام حالة اجتماعية تخص جانباً من تدبير العلاقات الأسرية في المجتمع المغربي خلال العصر المريني، ولكن سنكون قد وقعنا في الخطأ عندما تحدثنا عن شطط في استعمال السلطة واستغلال للنفوذ. ولو اعتمدنا تفاصيل القضية الثانية فإننا سنكون أمام جانب من تاريخ القضاء المغربي، وأمام حالة تورط هذا القضاء في أخطاء الشطط واستغلال النفوذ وتزوير الحقائق، ولكن ستسقط بذلك كل الاستنتاجات الأولى وسنكون قد أخطأنا في الحديث عن تعذيب الأب للفتاة وما تبعه.

نتساءل إذن : ماذا لو سكت الطرف الرئيس في هذه القضية؟ ماذا لو رضي الأب إبراهيم العنبكي بحكم القاضي وظلمه له ؟ ماذا لو تكتّم مدون النازلة عن هذه التفاصيل ؟ ماذا لو لم يوفر لنا في تدوينه للنازلة مظلمة الأب للسلطان والنسخة الأخرى للقضية المثبتة لدى شيوخ الشورى في فاس، واكتفى بصيغة السؤال الذي بعث به القاضي الترجالي ؟ فالمعروف في النوازل الفقهية أن مدونها في الغالب يختصر السؤال لأن هدفه هو أن يرتقي به من الخاص إلى العام حتى يستفيد منه المطلع إذا ما تشابهت النازلة المطروحة مع أخريات ومن ثمة يقف على رأي الشرع فيها، حيث تبدو النازلة التي اشتغلنا بها مميزة عن غيرها بالتفاصيل المرافقة لها. أكيد أن الجواب سيكون هو تأكيد الاستنتاجات التي وثقناها في بداية هذه المداخلة وذلينا بها الوجه الأول للقضية، عن حدث ظريفي وحالة شاذة في علاقة بين والد وابنته وصلت حد السادية. أما الآن، فقد بات واضحاً أن المعلومات الجديدة تكاد تعصف بتلك النتائج، إذ لو ثبت بالفعل جور القاضي، فتفاصيل التعذيب والعضل والاحتجاز لن يكون لها أي وجود في الواقع إلا في مخيلة القاضي وابن الترجمان، فكيف نأخذ بها لنستخلص مادة تاريخية تخص التاريخ الاجتماعي.

ذ. حميد تيتاو

القضية إذن هي قضية مصداقية تفاصيل النازلة وأحداثها المدونة حين يضعها الباحث في التاريخ أمامه لاستخراج ما يحتاج من معلومات، وهنا لابد أن نشير أن من حسن حظ الباحث في التاريخ المشتغل بالنوازل الفقهية أن هذه الأخيرة ليست دائماً بهذا التعقيد، فالمعروف أن بعضها كان يطرح على شكل فتاوى تخص مختلف جوانب الحياة العامة من عبادات ومعاملات، دون أن يكون لها إلزامية التطبيق بعد إبداء الرأي. إذ الهدف من طلب الفتوى هنا هو معرفة رأي الشرع دون أن يكون للمفتي أية سلطة لتطبيق الحكم، وهنا يصعب الحديث عن إمكانية تزوير الحقائق. أما بعضها الآخر، ومنها هذه النازلة، فقد كانت عبارة عن دعاوى تطرح أمام القضاء، ومنها أساساً نوازل الخصومات، لمعرفة رأي القاضي الذي قد يكون مفتياً وقد يستتجد برأي المفتي القريب منه بهدف الوصول إلى حكم يكون ملزماً للطرفين. وفي هذه الحالة، فالنازلة المعروضة على القاضي قد تشوبها أحداث وروايات وتفاصيل لا علاقة لها بالواقع، بل استعملت لاستمالة رأي القاضي أو توجيه حكم معين، أو استعملت من قبل القاضي نفسه لتوجيه حكمه بالشكل الذي يخدم مصلحته، مثل الحالة التي درسناها. مثلما قد يتغاضى مدون النازلة، اختصاراً منه للسؤال، عن تفاصيل مهمة تؤكد أو تنفي ما جاء في الدعوى، أو يقدم وجهاً معيناً للنازلة دون أن يكشف وجهها الآخر ما دام أن ما يهمه هو رأي الشرع في السؤال لا غير.

تكمن المشكلة التي نسعى لتوضيحها في هذا الصنف الثاني والمتعلق أساساً بالقضايا المطروحة في مجالس القضاء، ودونت في كتب النوازل فيما بعد. ولتأكيد هذا الاستنتاج، يكفي أن نقدم نموذجاً من النازلة نفسها المعروضة في هذا المقال، فقد ذكر القاضي الترجالي في معرض طرحه للقضية على شيوخ الشورى بفاس، أنه بعد شكوى الفتاة ضد والدها واتهامها له بما سبق عرضه، وطلب القاضي له تزويجها ورفض الأب وشهادة الشهود ضده، أرسل طلبته بهذه المعطيات إلى الفقيه المفتي أبي محمد عبد الله البطوئي لاستصدار فتوى منه، طالباً منهم أن يعرضوا عليه القضية، فإن رأى عقد النكاح عليها وأفتى به، فاعلموني لأعقده فرغبت والدها في أن يمشي إليه، وهو يقول ما تفعله هو ذلك ولا تحتاج لأحد (...). فمضوا إلى المفتي فوجدوه عنده استفاضة الضرر لمریضاً، وقال لهم إنكاحها صلاح وسداد لما ثبت من الضرر والعضل وأفتى بذلك، فرجعوا عنه وكانوا ستة من خيار الطلبة، فكلفتهم عقداً بما أشار به المفتي، فكتبوه وشهدوا فيه⁶⁹. مما يعني أن التحريف الذي قام

⁶⁹ - الونشريسي: المعيار، ج3، ص، 60.

به القاضي للقضية انطلى على الفقيه المفتي فأجاب بالإيجاب، بل إن شيوخ الشورى أنفسهم، قبل أن تعرض عليهم القضية من قبل القاضي الجديد ومن قبل الأب المتهم نفسه، وافقوا على حكم القاضي الترجالي وأكدوه اعتمادا على المعطيات المغلوطة التي قدمها لهم.

ولنتساءل الآن، وهذا هو الغرض من هذا المثال، أليس من الممكن أن نصادف في كتب النوازل نازلة بهذا الشكل: "سئل الفقيه المفتي أبو محمد عبد الله البطوئي سنة 736 هـ من قبل القاضي الترجالي عن أب يضرب ابنته بسبب تهمتها بالزنى، فجلبها من ظهر جمعة إلى قرب العشاء مكشوفة العورة..." إلى آخر النازلة، ثم يعقبها جواب المفتي المذكور أن "إنكاحها صلاح وسداد لما ثبت من الضرر والعضل وأفتى بذلك". ثم أليس من الطبيعي أن يعتمد الباحث في التاريخ على هذه النازلة ما دام أن الاحتياطات المنهجية المفروض مراعاتها قد توفرت. والحال غير ذلك كما رأينا، بعد أن ثبت تزوير القاضي للمعطيات وتوجيهها بالشكل الذي يخدم مصلحته.

إذا كان من الممكن التقليل من حجم هذا التخوف من خلال القول بفردية هذه النازلة وصعوبة تعميم ما توصلنا إليه على القضايا الأخرى المبثوثة في كتب النوازل، إذ ليس من الواقع في شيء الاعتقاد دائما بإمكانية تزوير المعطيات من قبل القاضي أو الطرف المدعي في تلك القضايا، فإن تورط القضاء أحيانا خلال العصر المعني بالدراسة في قضايا فساد ثبت فيها جور القاضي أو خضوعه لنفوذ ذوي الجاه والسلطة⁷⁰، يجعلنا نستحضر هذا الهاجس المنهجي كلما رمنا الاستفادة من المعلومات التاريخية التي يوفرها هذا النوع من القضايا. ومن الأمثلة الدالة على تورط القضاء في قضايا فساد خلال العصر المدروس ما قيل عن الفقيه المفتي البخاري موسى المصمودي الهسكوري الذي "صار يعث في دين الله كيف يشاء لا يبالي ما صنع. وأكد هذا كله مخالطة أولي الأمر من القضاة والحكام ذوي الجاه والسلطان تلبسا منه على العامة أيضا، فزاد عليها صولة، فصارت العامة تهابه لذلك، وعرف ذلك منهم فصار يضربهم في المعاملات"⁷¹. ومن ذلك أيضا المريني الذي "أقر بالقتل في مدة السلطان أبي الحسن، فصالح السلطان الأولياء عنه. فقال القاضي: بقي لي أن نضربه مائة

⁷⁰ - يُنظر للتفصيل، محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع هـ/ XIV - XV م، مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي (العامة - الخاصة) (الطبقة - المرتبة). أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1999 - 2000 م، ص، 140 - 144.

⁷¹ - المنشريسي، المعيار، ج 4، ص، 506.

ذ. حميد تيتاو

ونسجنه سنة. فقليل للمقر : أنكر إقرارك. فأنكر، فتركه القاضي حينئذ⁷². بل إن بعض أهل الجاه حاولوا التصل كلية من جرائم القتل التي كانوا يتورطون فيها⁷³، حيث أرفد ابن مرزوق⁷⁴ كلامه عن واحدة من هذه الحالات بقوله : "ومن هذا كثير".

ومما يؤكد تفشي هذه الظاهرة في جسم القضاء، لجوء بعض أفراد المجتمع إلى السلاطين لتقديم شكاوى في هذا المجال، من مثل أبي محمد بن الملق قاضي طنجة الذي عزله السلطان أبو الحسن بعد أن نبه أهلها إلى عدم التعرض له بسوء، وأجرى عليه مرتبا⁷⁵. والقاضي محمد بن عبد الرزاق الذي اضطر السلطان أبو عنان إلى عزله لأنه كان يوسط ابنه في أخذ الرشاوي. بل إن السلطان كان قد غض الطرف عن أفعال القاضي تلك لمدة غير محددة قبل أن يقدم على عزله، لأنه كان يتوصل بهدايا منه⁷⁶.

يبدو أن استفحال فساد القضاء أو على الأقل تفاض بعض القضاة عن ظلم ذوي النفوذ والجاه حفز بعض السلاطين على ممارسة الفصل بين الناس بشكل مباشر ضمن خطة المظالم⁷⁷، التي كانت تفصل في قضايا غالبا ما تتجاوز اختصاصات القضاء الشرعي، أو نتيجة لتظلم من حكم قاض من مثل القضية التي درسناها. غير أن هذا الإجراء ظل محدودا في الزمان والمكان، ناهيك عن صعوبة وصول كل قضايا الرعايا المظلومين من قبل القضاة أو ذوي الجاه إلى الخطة المذكورة نتيجة توفر هؤلاء على وساطات أهل المخزن⁷⁸، وما كان يرافقها من هدايا ورشاوي، إضافة إلى الإجراءات التي وضعت لاستقبال الشكاوى، والتي سمحت للجهاز المخزني بالتدخل في طبيعة وحجم القضايا التي كانت ترفع إلى السلطان⁷⁹. ومن ذلك ما جرى على عهد السلطان أبي الحسن المبريني؛ حيث أصدر أوامره

⁷² - الوثنيسسي. المعيار، ج 2، ص، 324.

⁷³ - ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص، 143.

⁷⁴ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁷⁵ - ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص، 307.

⁷⁶ - ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، ص، 50 - 51.

⁷⁷ - عرفت خطة المظالم على عهد السلطان أبي الحسن بقية العدل، وعمم هذه الخطة لتشمل مدنا أخرى كسبتة والمنصورة تحسبا في ما يبدو لتقلاته. ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص، 173. وكان يسهر بنفسه على التوصل مباشرة بشكاوى الناس، وعين من يتوجه لتفقد أحوال الرعية في كل البلاد، وكان يرسل من يراقب هؤلاء المعنيين، كما كان يهيب بالقضاة والخطباء أن يرفعوا إليه ما كانوا يتوصلون به من شكايات. نفسه، ص، 174 - 175. وكان السلطان أبو عنان يخصص يوم الجمعة لسماع شكاوى الرعية. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص، 669. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، هامش 46، ص، 143.

⁷⁸ - محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، ص، 143.

⁷⁹ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ذ. حميد تيتاو

لكي يجتمع في كل بلد بعد صلاة الجمعة قائدها ووالي قصبته وخطيبها والعدول لتلقي الشكايات⁸⁰. ويبدو أن هذا الإجراء أسهم في الحد من فعالية خطة المظالم، حيث أصبح الجهاز المخزني المحلي من جديد، وبقرار سلطاني، يتحكم في مجريات الأمور، وأضحى هو الخصم والحكم في آن واحد لكون أغلب القضايا التي كانت تعرض على السلطان تتعلق بتجاوزات الحكام المحليين بالدرجة الأولى⁸¹.

يبدو إذن أن هذه الدراسة ستضيف احتياطا منهجيا جديدا، لم يسبق أن أشير إليه، في تعامل الباحث في حقل التاريخ مع صنف النوازل الفقهية، إذ أعتقد أنه إلى جانب الاحتياطات المنهجية التي ذكرت بها في بداية هذا البحث، والتي تخص التمييز بين الظريف والبنوي، ثم الافتراضي والواقعي في النازلة الفقهية، وتأطيرها زمانيا ومكانيا، سيكون من الضروري على الباحثين الانتباه إلى المشكلة المنهجية الجديدة التي تجلت من خلال هذه القضية: فإذا كانت النازلة التي اعتمدناها سمحت لنا بالاطلاع على تفصيلاتها ونسخها ووثائقها وأحداثها، وإذا كان الطرف المتهم هنا قد رفض الانصياع للحكم فواصل دفاعه، مما سمح بالكشف عن ثغرات لم نكن لنطلع عليها لو قبل بالحكم ورضي به، فقد أصبح ضروريا أن نتساءل عما إذا كانت كتب النوازل الفقهية توفر في مجملها هذه الإمكانية؟ فالمطلع على معظمها يكشف عن وجود صوت واحد، في أغلب الأحيان، يتمثل في الطرف المتضرر أو المدعي الذي يطلب رأي المفتي أو حكم القاضي لإنصافه، في حين يختفي صوت الطرف الآخر المتهم أو المدعى عليه، مما يخفي جانبا مهما من الحقيقة قد يعصف أحيانا، لو توفر، بكل المعلومات المستخلصة من النازلة، ويعرضنا نحن الباحثين عن المعلومة التاريخية لمأزق الخطأ في التقدير، بل قد يقودنا إلى استنتاجات لا تمت إلى الواقع التاريخي، الذي نبغي الاقتراب منه، بأية صلة.

⁸⁰ - ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص. 174.

⁸¹ - محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، ص. 144.

حاجة كثير من الكتب المطبوعة إلى التحقيق أمس من بعض المخطوطات

ذ. عبد الواحد عبد السلام شعيب

كلية الآداب جامعة طرابلس - ليبيا

من الإجحاف العلمي والخلل المنهجي أن يتصدى بعض ذوي الثقافة المتواضعة، والخبرة المحدودة، أو من تشغلهم المشاغل والأعباء من الباحثين، إلى اقتحام مجال تحقيق المخطوطات، والنصوص التراثية، من أجل أن يكون لديهم قصب السبق في تحقيقها ونشرها، أو ربما من أجل أن تزدان تلك المؤلفات والمصنفات العلمية بأسمائهم وألقابهم دون أي اعتبار للدراية والدربة في هذا الميدان الشائك الطويل.

كما أنه في الوقت نفسه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نستثني من هذا النقد أصحاب الباع الطويل والتجربة الواسعة في عالم التحقيق على بعض الانزلاقات أو الهفوات التي وقعوا فيها أثناء قيامهم بهذا العمل المضني، والتي يعتبر التنبيه عليها واستدراكها عملاً علمياً متمماً لجهودهم الجبارة في تحقيق ونشر العديد من النصوص والكتب التراثية الجادة، حيث إن أعلامنا الأوائل عندما كانوا يؤلفون تأليفهم ومصنفاتهم العلمية، كثيراً ما يقوم معاصرون لهم أو ممن أتوا بعدهم بتأليف كتب على منوالها، أو بتذييل لها أو بتعليق عليها، وذلك لاستدراك ما قد وقع فيها من أخطاء أو أوهام، أو لسد ما اعتورها من تقصير أو نقص.

على هذا الأساس فإن التحقيق في وطننا العربي والإسلامي، يجب ألا يكون مقصوراً على التراث المخطوط وحسب، بل يجب أن يشمل أيضاً الكثير من الكتب المطبوعة، التي لم تحظ بتحقيق علمي جيد، إذ أن ما أصابها من تحريف، أو أغلاط، أو تشويه، لا يقتصر ضرره على عمل المحقق نفسه، وإنما سيصيب الباحثين والدارسين الآخرين، من خلال اعتمادهم على بعض الأحكام والنتائج الخاطئة عند أمثال هؤلاء، التي ستجرهم بدورها إلى نتائج سلبية وأحكام غير صحيحة أيضاً.

ذ. عبد الواحد عبد السلام شعيب

يضاف إلى ذلك أن التحقيقات الهزيلة لأمّهات تراثا الإسلامي الزاخر ومصادره، فيها في الوقت نفسه مساس بالمؤلفين من العلماء والشيّوخ أنفسهم، ممن بلغوا الشأن في العلم والسؤدد، والذين لم يريدوا لمؤلفاتهم ومظانهم أن تصل إلى القراء والدارسين بهذا المستوى من التدني والاضطراب، وإنما كانوا حريصين كل الحرص أن تكون في الغاية من الدقة والإتقان، وهو ما يتماشى اليوم مع منهج علم التحقيق وإحياء التراث.

هكذا وبناء على هذه الفرضية، فإن هذا البحث سيسعى إلى حل إشكال تصحيح ما وقع في بعض الكتب المحققة من أخطاء وأوهام وأغلاط وتصويبها واستدراكها، أو ما افتقرت إليه من جوانب الشرح والتفسير والتوضيح لبعض النصوص الأصلية المحققة، والتي لم تعط العناية الكاملة من الدراسة والتقصي، الأمر الذي جعل منها أشبه بطلاسم مغلقة، أو نصوصا صماء، لا تشفي غليل الباحث في فهم متون هذه المصادر العلمية القيمة ومضامينها لأعلامنا الأفاضل الذين دبجوها طوال فترة ازدهار حضارتنا العربية الإسلامية إبان الحقبة الوسيطة.

وقد ارتأيت في هذا البحث مراجعة تحقيق بعض المصادر الأمّهات في تاريخ الغرب الإسلامي نماذج لما أسلفت قوله، وهذه المصادر هي :

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض السبتي (ت544هـ).

- كتاب الصلة لابن بشكوال (ت578هـ).

- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس لأحمد الضبي (ت599هـ).

- التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار البلسي (ت 658 هـ).

- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشي (ت 703 هـ).

- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (ت 776 هـ).

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب لأحمد المقرئ التلمساني (ت1041هـ).

وعليه فلما كان هذا البحث لا يستوعب الإتيان بالأعداد الكثيرة من الأمثلة والشواهد لجوانب النقص في تحقيق هذه الكتب القيمة، أو ما تخلل ذلك من بعض الأخطاء أو الأوهام، فإني سأجتزئ نماذج منها أذكرها على سبيل التمثيل لا الحصر وذلك في العناصر الآتية :

أولا : الأغلاط التاريخية الواردة في متن المخطوط بعد الطبع :

جاء في ترجمة القاضي عياض ليحيى بن زكرياء بن قطام في كتاب المدارك بتحقيق الأستاذ محمد بن شريفة ما نصه : "طليطلي تقدم ذكر أبيه وعمه، كنيته أبو زكرياء، لم تكن له رحلة، سمع بقيا، وجل أخذه عنه، وسمع من غيره، وولي قضاء طليطلة وصلاتها، إلى أن قتل سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، قال الرازي : قتل يحيى بن قطام ومحمد بن إسماعيل، وأيوب بن سليمان بطليطلة في هذا التاريخ"¹.

وهنا نجد أن هذا التاريخ الذي ورد في المتن لوفاة ابن قطام وهو سنة 393هـ غير صحيح لا يتناسب مع الواقع التاريخي، وذلك لأن المؤرخ والجغرافي الأندلسي الكبير أحمد بن محمد الرازي لم يدرك هذا التاريخ إذ كانت وفاته في سنة 344هـ على أيام عبد الرحمن الناصر، كما أشارت إلى ذلك المصادر الأندلسية الموثوقة، مثل : الزبيدي في طبقات النحويين واللفويين² وابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس³ والحميدي في جذوة⁴ والضبي في البغية⁵.

إذن، في هذه الحالة، لم يتنبه المحقق إلى هذا التاريخ الخاطئ في هذا النص : خاصة وأنه ذكر في الهامش أن إحدى نسخ المخطوط التي قام بتحقيقه قد وردت فيها وفاة ابن القطام سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، ومع أنه رجح التاريخ الأول أي سنة 393هـ فاعتمده في المتن، وجعل الرواية الثانية في الهامش وهي سنة 373هـ، إلا أنه مع ذلك فإن كلا التاريخين خطأ ولا ينسجم مع تاريخ وفاة المؤرخ الذي أمدنا بهذا النص.

¹ - القاضي عياض: ترتيب المدارك وترتيب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج5، تحقيق: محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المغرب "د.ت" ص232.
² - الزبيدي : طبقات اللغويين والنحويين، ص 302، رقم 273.
³ - ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، 95/1، رقم 135.
⁴ - الحميدي: جذوة المقتبس، 168/1، رقم 157.
⁵ - الضبي: بغية الملتبس 194/1، رقم 331.

أما في ترجمة القاضي أبي بكر بن السليم فجاء في متن النص المحقق وهو كلام صاحب المدارك طبعاً : "قال الرازي : وفي ليلة الإثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة خمس وستين وثلاثمائة، أمر القاضي ابن السليم أئمة الفرض بالجامع بأن يصلوا الوتر ثلاثاً، لا يفصلون بينها بتسليم، كما يفعل قبل، وذلك أن بقي بن مخلد كان يأخذ به، فاتبعه عليه بعض الأندلسيين، وهو مذهب أهل العراق"⁶.

وهكذا فإن هذا التاريخ الذي ورد في هذه الترجمة هو الآخر لا يمكن أن يكون برواية أحمد الرازي أيضاً، الذي توفي كما أسلفنا سنة 344هـ، ولكن ربما قد يكون هذا التصحيح من الناسخ غير أن المحقق لم يفتن إليه، فبقي على ما هو عليه.

وفيما يتعلق بكتاب بغية الملتبس للضبّي (ت599هـ) الذي حققه الأستاذ إبراهيم الأبياري، فإنه قد ورد في ترجمة الفقيه الشهير أبي الوليد بن رشد الجد ما نصه: "محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد، أبي الوليد، قاضي الجماعة بقرطبة ... توفي سنة ثلاثين وخمسمائة بقرطبة، وصلى عليه ابنه أبو القاسم، ودفن بمقبرة ابن عباس"⁷.

وهذا التاريخ غير صحيح أيضاً؛ لأن وفاة ابن رشد الجد كانت سنة 520هـ حيث يقول فيه تلميذه وعصريه القاضي عياض في فهرسة شيوخه الغنية: "زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب ومقدمهم، المعترف له بصحة النظر وجودة التأليف ودقة الفقه، وكان إليه المفزع في المشكلات ... وإليه كانت الرحلة للفتحه من أقطار الأندلس مدة حياته إلى أن توفي رحمه الله في ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة"⁸.

وفي كتاب الإحاطة لابن الخطيب الجزء الثالث، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، جاء في التعريف بالعالم المفسر أبي محمد عبد الحق بن عطية⁹ صاحب المحرر الوجيز: "وكان عبد الحق فقيهاً، عالماً بالتفسير والأحكام والحديث والفقه، والنحو والأدب واللغة، مقيداً

⁶ - القاضي عياض : المدارك، 283/5.

⁷ - الضبّي : بغية الملتبس، 74/1.

⁸ - القاضي عياض : الغنية، ص 122، 123، كما جعل ابن بشكوال وفاة ابن رشد سنة 520هـ، أيضاً مثلما ذكرها القاضي عياض، ينظر ابن بشكوال : الصلة، 840/3. وكذلك وفيات ابن قنفذ، ص 270، والمرقبة العليا، ص 99.

⁹ - ينظر في ترجمته : ابن بشكوال : الصلة 563/2، 564، ابن خاقان : قلائد العقيان، ص 525، ابن سعيد : رايات المبرزين، ص 85، النباهي : المرقبة العليا، ص 109، وفيات ابن قنفذ، ص 279.

ذ. عبد الواحد عبد السلام شعيب

حسن التقييد ... توفي في الخامس والعشرين لشهر رمضان سنة ست وأربعين وخمسمائة بمدينة لورقة¹⁰.

غير أن هذا التاريخ غير صحيح ؛ لأن وفاة ابن عطية كانت في سنة 541 هـ ، إذ أن معظم المصادر التاريخية قد أجمعت على ذلك ، ما عدا صاحب الصلة الذي جعل وفاته سنة 542 هـ.

وعن أبي عبد الله محمد بن يحيى بن الحذاء التميمي الأندلسي ، فإن ياقوت الحموي يقول في كتاب معجم الأدباء : "ورحل إلى مصر فأخذ بها عن الحافظ عن الغني والجهري وغيرهما ، ثم رجع إلى الأندلس فولي القضاء ببلنسية وغيرها ثم رحل في فتنة البربر فاستوطن سرقسطة إلى أن مات بها سنة عشر وأربعمئة"¹¹.

وهنا نجد الأستاذ إحسان عباس محقق كتاب "معجم الأدباء" لياقوت الحموي ، قد علق على هذا التاريخ في الجزء السادس بالهامش رقم واحد قائلا : "ترجمة ابن الحذاء في بغية الملتبس رقم "319" وجعل وفاته سنة 416 هـ أما في الصلة فقد جعل وفاته كما ذكر ياقوت"¹² ، لكن من خلال الرجوع إلى الصلة لابن بشكوال وجدنا أنه لم يوافق ياقوت الحموي ، بل بالعكس ذكر أن وفاته كانت في سنة 416 هـ كما أشار إلى ذلك الضبي في البغية وليس كما ورد عند ياقوت ، حيث يقول ابن بشكوال عن ابن الحذاء هذا : واستقر بالثغر الأعلى واستقضي بمدينة تطيلة ، ثم نقل عنها إلى قضاء مدينة سالم ، وحدث هناك ، ثم صار إلى سرقسطة ، وتوفي بها يوم السبت قبل طلوع الشمس لأربع خلون من شهر رمضان سنة ست عشرة وأربعمئة"¹³.

ثانيا : التصحيف في رسم أسماء بعض التأليف أو الأعلام :

لعل من أمثلة ذلك ما جاء في ترجمة ابن الأبار في التكملة ضمن الجزء الثالث تحقيق عبد السلام الهراس ، لعمر بن أحمد بن خلدون الحضرمي ، التي جاء فيها : "من أهل أشبيلية ، يكنى أبا البقاء ، أخذ عن مسلمة المرجيطي ، وكان مشهورا بعلم الهندسة والنجوم والطب"¹⁴.

وهنا نجد المحقق قد علق في الهامش على كلمة المرجيطي بقوله : "يقال فيها أيضا المرجيطي"¹⁵.

10 - ابن الخطيب : الإحاطة ، 539/3 ، 541.

11 - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، 2676/6.

12 - المصدر نفسه ، 2676/6.

13 - ابن بشكوال : الصلة ، 742/2.

14 - ابن الأبار : التكملة ، 150/3.

15 - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

لكن الصحيح هو ما ذكره في الهامش أي مسلمة المجريطي، وليس المجريطي، التي أكد عليها في المتن، وذلك نسبة إلى مدينة مشهورة في الأندلس هي مدينة مجريط التي تحمل اليوم اسم مدريد، ولذلك يقول الحميري في وصفها : "ومجريط مدينة صغيرة وقلعة منيعة، وكان لها في زمن الإسلام مسجد جامع، وخطبة قائمة، وهي بمقربة من طليطلة"¹⁶.

وفي كتاب "الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة" لابن عبد الملك المراكشي، السفر الثاني، القسم الثاني، تحقيق الأستاذ محمد بن شريفة، جاء في ترجمة أبي الحسن يحيى بن عيسى بن أحمد المعروف بابن الصيقل، قوله : "روى عن أبي علي بن سكرة وأكثر عنه، حدث عنه أبو الفضل في المعجم"¹⁷.

على ضوء هذا النص تدخل المحقق فأوضح في الهامش أن المقصود بأبي الفضل هو القاضي عياض السبتي، وهذا صحيح.

ثم أراد تفسير وتوضيح عبارة "حدث عنه في المعجم" فقال : "انظر الحديث في معجم أصحاب الصديف"، وفي هذه الحالة لم يجانب المحقق الصواب؛ لأن المقصود بكلمة حدث عنه، أي درس عنه الحديث، ولم يرو عنه حديثاً معيناً ذكر في معجم أصحاب الصديف لابن الأبار البلسني الذي وصل إلينا، ولكن ابن عبد الملك المراكشي قصد من عبارة "حدث عنه في المعجم" أي أن القاضي عياض قد خصه بالتعريف والترجمة في مؤلفه الذي ألفه في شيوخ شيخه أبي علي الصديف ابن سكرة شهيد وقعة قتندة سنة 514هـ والذي سماه المعجم في شيوخ أبي علي الصديف ابن سكرة.¹⁸ وهذا الكتاب هو الذي ذيله ابن الأبار البلسني بكتابه المعجم في أصحاب القاضي الصديف، لأنه يقول في مقدمته : "ومُنَاغِيَا أبا الفضل ابن عياض في جمع شيوخه وحصرهم، ولا غرو فتحوه في المعجم الذي صنع نحوت، وفوز قدحي بإخلاص كدحي رجوت، ليكون هذا لذلك تتمه، وليهون الوقوف عليه مؤتمين وأئمة"¹⁹.

وفي كتاب الإحاطة لابن الخطيب الجزء الرابع، تحقيق محمد عبد الله عنان ورد تصحيف في المتن في أسماء بعض مؤلفات القاضي عياض أثناء ترجمة ابن الخطيب له، ومنها

16 - الحميري: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار، 180.

17 - ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ص 8/2 ص 412، 413.

18 - ينظر: أبو عبد الله محمد ولد القاضي عياض: التعريف بالقاضي عياض، ص 117، ابن الأبار: التكملة، 14/3.

19 - ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الصديف، ص 13.

ذ. عبد الواحد عبد السلام شعيب

كتاب المستبطة على الكتب المدونة والمختلطة²⁰ وكتاب الرايد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد²¹.

وهكذا فالاسم الصحيح للكتاب الأول هو: التبيهاات المستبطة على الكتب المدونة والمختلطة²²، والثاني هو: بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد²³.

كما وردت عند ابن الخطيب في حديثه عن القاضي عياض عبارة: "من كتاب ولده في مآثره، وهو كناش نبيه ..."²⁴.

ولكن لكي يستقيم المعنى يجب أن تكون العبارة هكذا "وهو كناش نبيل" وليس "نبيه"؛ لأن ابن الخطيب قد نعت به ذلك في ذكر حاله، حيث قال: "قال ولده في تأليفه النبيل"²⁵.

ومن الأمثلة على ذلك أيضا ما تضمنه كتاب التكملة لابن الأبار تحقيق عبد السلام الهراس الجزء الثالث، في التعريف بعلي بن العزيز الزناتي، حيث يقول ابن الخطيب: "من أهل قرطبة، يكنى أبا الحسن، روى عن أبي إسحاق بن ثبات سمع منه الاستيعاب في أسماء الصحابة وأبي عمر بن عبد البر، وكان سماعه منه في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة"²⁶.

فهنا عبارة "سمع منه الاستيعاب في أسماء الصحابة وأبي عمر بن عبد البر" حدث فيها تصحيف، ولا تؤدي أي معنى بهذه الطريقة، لكن الصحيح أن تكون على هذا النسق: "وسمع منه الاستيعاب في أسماء الصحابة لأبي عمر بن عبد البر".

وكتاب ابن عبد البر الحافظ هذا هو المعروف باسم الاستيعاب في معرفة الأصحاب أي في تاريخ الصحابة رضي الله عنهم، وهو من كتب ابن عبد البر المشهورة مثل كتاب التمهيد ولذلك وصفه ابن خير بأنه "كتاب جليل حافل طابق اسمه معناه"²⁷.

20 - ابن الخطيب: الإحاطة، 228/4.

21 - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

22 - أبو عبد الله محمد: التعريف بالقاضي عياض، ص 116.

23 - المصدر نفسه، ص 117.

24 - ابن الخطيب: الإحاطة، 222/4.

25 - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

26 - ابن الأبار: التكملة، 188/3.

27 - ابن خير: فهرسة ابن خير، 262/1.

ومن الطريف هنا أن اسم حافظ المغرب الشهير أبا عمر بن عبد البر قد ورد فيه شيء من التصحيف أو التحريف في متن كتاب بغية الملتبس للضبي في الجزء الأول بتحقيق إبراهيم الأبياري، إذ جاء في ترجمته لأبي محمد بن محمد بن أبي دليم قوله: "ذكره الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النميري"²⁸ بتشديد النون وضمها، وبياء بعد الميم، غير أن لقبه الصحيح هو "النمري" وليس النميري، ومما يؤكد هذه النسبة قول العلامة ابن حزم في جمهرته: "ودار بني النمر بن قاسط بالأندلس: حصن وضاح من عمل ربه"²⁹.

وحدث لبس على محقق كتاب نفح الطيب لأحمد المقرئ التلمساني وهو الأستاذ إحسان عباس، بالنسبة لأعلام المؤرخين الأندلسيين مثل أحمد بن محمد الرازي (ت344 هـ) وابنه عيسى بن أحمد الرازي (ت379 هـ)، حيث يقول في ترجمة الأول في الجزء الأول من النفح ص 129 هامش رقم 7: "أحمد بن محمد بن موسى الرازي، من كبار المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين في الفترة الأموية وهو جد عيسى الرازي الذي يعتمد ابن حيان في المقتبس"³⁰.

ويبدو أن الأستاذ إحسان عباس قد اختلط عليه الأمر هنا بين محمد الرازي جد عيسى الرازي وبين ابنه أحمد والد عيسى، ولتوضيح هذه المسألة نعود إلى ابن الأبار الذي يقول في ترجمة عيسى الرازي هذا: "عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى بن بشير ... يعرف بالرازي، من أهل قرطبة وأصل سلفه من المشرق، وجده محمد بن موسى هو الداخل إلى الأندلس وقد تقدم ذكره، أخذ عيسى هذا عن أبيه أبي بكر أحمد بن محمد وغيره وكان عالماً بالآداب والأخبار"³¹.

ومن اللافت للانتباه أن الأستاذ إحسان عباس الذي جعل من عيسى الرازي حفيداً لأحمد الرازي في تعليقه هنا في نفح الطيب قد اهتدى في تحقيقه لكتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، السفر الخامس، القسم الثاني، إلى جعل أحمد الرازي هو والد عيسى الرازي وليس جده، حيث يقول في التعليق على ترجمة ابن عبد الملك لعيسى في هذا السفر: "وهو المؤرخ المشهور وكذلك والده أحمد، فإن له مؤلفات في التاريخ وفي خطط قرطبة، وفي الأنساب، أما عيسى فهو عمدة من جاء بعده من المؤرخين"³².

²⁸ - الضبي: بغية الملتبس، 68/1.

²⁹ - ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص 302.

³⁰ - أحمد المقرئ: نفح الطيب، 129/1، هامش رقم 7.

³¹ - ابن الأبار: التكملة، 4/4، كما ترجم له ابن عبد الملك المراكشي بمثل هذه الترجمة في الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الثاني، ص 491.

³² - ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، ص 491/2/5.

د. عبد الواحد عبد السلام شعيب

ومما تجدر ملاحظته كذلك في بعض الكتب المحققة، ورود بعض الأخطاء أو التحريفات في نسبة الأعلام إلى مدنها أو بلدانهم التي نشأوا فيها، مثال ذلك ما جاء في الجزء الخامس من كتاب المدارك للقاضي عياض تحقيق الأستاذ محمد ابن شريفة أثناء ترجمة أبي محمد عبد الله بن أحمد بن موسى الأنصاري المعروف بابن ملول، إذ يقول القاضي عياض حسب النص المطبوع: "أندلسي الأصل، وشقة، وسكن مصر، وسمع الصموت والفرغاني، وأبا بكر بن داود البغدادي، واعتنى بالتاريخ والخبر"³³.

فهنا عبارة "أندلسي الأصل وشقة" لا تعني شيئاً، ولكن الصحيح أن تكون هكذا "أندلسي الأصل وشقيّه" أي من مدينة وشقة³⁴؛ لأن هذا المصطلح كان متداولاً عند أصحاب التراجم من الأندلسيين والمغاربة، فهاهو ابن الخطيب يقول في التعريف بالقاضي عياض: "القاضي الإمام المجتهد، يكنى أبا الفضل، سبتي الدار والميلاد، أندلسي الأصل بسطيه"³⁵ أي نسبة إلى مدينة بسطة الأندلسية³⁶.

ثالثاً: الإتيان بالتعريفات والتراجم المبثورة في الهوامش:

إذا كانت مهمة المحقق في المقام الأول هي العمل على إخراج النص المخطوط بالصورة التي كان يأمل صاحبه إيصالها للقراء والدارسين، بأن تكون في منتهى الدقة والوضوح والإتقان، وإذا كانت لغة وثقافة علمائنا الذين دبجوا تلك الأعداد الجمة من الكتب والنصوص المخطوطة زمن ازدهار حضارتنا العربية الإسلامية، تختلف اختلافاً كبيراً عن لغة عصرنا الحاضر وثقافته، فإنه يتوجب على المحقق أن يضطلع بإعطاء تعريفات وتراجم وافية لكل ما يراه مناسباً، مما يتضمنه متن النص المخطوط من أعلام أو مدن أو مواقع أو غيرها حتى يسهل بذلك فهم مضامين هذه الكتب والمطازن القيمة واستيعابها.

³³ - القاضي عياض: المدارك 283/5.

³⁴ - وشقة: مدينة بالأندلس، لها سوران من حجر، بينهما وبين سرقسطة خمسون ميلاً، وهي كريمة التربة ويحيط بها من جهاتها جنات معروشة، وحدائق من الثمار ملتفة، وفيها تعمل الدروع والبيضات الرشيقة، وهي دار صنعة. الحميري: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار، ص 194، 195، أبو بكر الزهري: كتاب الجغرافية، ص 82.

³⁵ - ابن الخطيب: الإحاطة 222/4.

³⁶ - بسطة: بالفتح مدينة بالأندلس من أعمال جيان، وهي مشهورة بالمياه والبساتين، وبها كانت طرز الوطاء البسطي من الديباج، الذي لا يعلم نظيره، وبها جبل يعرف بجبل الكحل، ما يزال ينقر منه كحل أسود، يزيد بزيادة القمر، وينقص بنقصانه. ياقوت الحموي: معجم البلدان 422/1، الحميري: صفة جزيرة الأندلس ص 44 و45.

على الرغم من حرص الكثير من المحققين على توخي هذا النهج وتطبيقه، فإن البعض من هؤلاء لم يول الأمر عنايته ومن ثمة أضحت أعمالهم في هذا الشأن في حاجة إلى سد هذا النقص لكي تعم الفائدة، ولو أدى ذلك إلى إعادة تحقيقها من جديد.

ومن أمثلة التعريفات المبتورة التي لا تقي بالغرض، ولا تسهل على القارئ فهم فحوى النص الأصلي للمخطوط، ما ورد في الجزء الأول من كتاب "بغية الملتبس" للضبي تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري في حديثه عن فتح الأندلس حين يقول: (إن موسى هو الذي وجه طارقاً بعد مدخله الأندلس إلى طليطلة، وهي في النصف فيما بين قرطبة وأربونة)³⁷.

وعلى أثر هذا النص تدخل المحقق للتعريف بمدينة أربونة فقال: (أربونة بفتح أوله ويضم ثم السكون، وضمّ الباء الموحدة، وسكون الراء ونون وهاء)³⁸ معجم البلدان 190/1.

وهكذا فإن هذا التعريف المبتور لهذه المدينة لم يفد القارئ شيئاً؛ لأنه لم يحدد له حتى موقع المدينة في أي مكان من العالم، في حين أن صاحب "معجم البلدان" الذي استقى منه المحقق هذا التعريف الهزيل قد أجمل لنا القول في التعريف بهذه الحاضرة الأندلسية حيث قال: "أربونة بفتح أوله ويضم، ثم السكون وضمّ الباء الموحدة، وسكون الواو، ونون وهاء: بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس، وهي الآن بين الإفرنج، بينها وبين قرطبة على ما ذكره ابن الفقيه، ألف ميل، والله أعلم"³⁹.

ومنها أيضاً التعريف الذي خص به الأستاذ الأبياري بلد الزلاقة وذلك في تحقيقه لكتاب "الصلة" لابن بشكوال، الجزء الثاني، حيث عرفها في الهامش بقوله: "الزلاقة بفتح أوله وتشديد ثانيه، وقاف، أرض بالأندلس قرب قرطبة"⁴⁰.

وتعتبر الزلاقة هذه أشهر من نار على علم بالنسبة لبلاد الأندلس؛ لأنها هي التي وقعت فيها المعركة الشهيرة بين المرابطين الذين هبوا لنجدة إخوانهم في العدو الأندلسية بقيادة أميرهم يوسف بن تاشفين وبين ملك قشتالة وليون ألفونس السادس سنة 479هـ / 1086م، والتي انتصر فيها المرابطون انتصاراً ساحقاً على القوات القشتالية، الأمر الذي أمد في عمر الوجود الإسلامي بالأندلس قروناً أخرى⁴¹.

³⁷ - الضبي: بغية الملتبس 28/1 - 29.

³⁸ - المصدر نفسه، ص 29.

³⁹ - ياقوت الحموي: معجم البلدان 140/1.

⁴⁰ - ينظر: ابن بشكوال الصلة 678/2، هامش رقم (2).

⁴¹ - ينظر عبد الواحد شعيب: دور المرابطين في الجهاد بالأندلس، ص 55.

على أية حال، فلو رجعنا إلى تعريف ياقوت الحموي لبلد الزلاقة في "معجم البلدان" لتبين مدى ضالة هذا التعريف الذي أتى به المحقق، وعدم جدواه؛ لأنه لا يبلغ المعنى، ولا يوقفنا على تلك الأهمية التي يحظى بها هذا الموضوع بالنسبة للمسلمين عامة.

ولكي نقارن بين نص المحقق المختزل ونص ياقوت الأصلي، فإنه قد جاء في معجم البلدان قوله: "الزلاقة، بفتح أوله وتشديد ثانيه، وقاف، أصله من قولهم مكان زلق أي دحض، وزلقت رجله، تزلق زلقا، والزلاقة الموضع الذي لا يمكن الثبوت عليه من شدة زلقه، والزلاقة بأرض الأندلس بقرب قرطبة، كانت عندها وقعة أيام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مع الأذفوش ملك الإفرنج مشهورة"⁴².

وفي ترجمة الضبي لمحمد بن أبي الحسام طاهر القيسي المعروف بالشهيد، الذي شهد مع الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر فتح مدينة قلمرية بغرب الأندلس، يقول الأستاذ إبراهيم الأبياري في تحقيقه لكتاب "البغية" معرفا بقلمرية هذه: (قلمرية: بضم أوله وثانيه، وسكون الميم، وكسر الراء، وتخفيف الياء، مدينة بالأندلس)⁴³.

فهنا أيضا لا نعرف من خلال هذا التعريف أين موقع هذه المدينة من بلاد الأندلس، وما هي أقرب المدن إليها وبماذا تشتهر، وهل هي مدينة داخلية أم قريبة من البحر إلى غير ذلك.

وعليه فالمحقق هنا اعتمد على ياقوت الحموي دون غيره من الجغرافيين الآخرين، وبخاصة من الأندلسيين والمغاربة، وأهل مكة أدري بشعابها، فكان عليه أن يعود مثلا إلى البكري في المسالك والممالك أو أبي بكر الزهري في كتاب الجغرافية أو ابن سعيد في كتاب الجغرافيا أو الإدريسي في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق أو الحميري في الروض المعطار في خير الأقطار أو الرشاطي في اقتباس الأنواب أو العذري في ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان أو ابن غالب في فرحة الأنفس وغيرها.

على هذا الأساس لو تم الرجوع إلى أحد هذه المصادر لأمكن الحصول على تعريف شاف لهذه المدينة الأندلسية، ولنأخذ مثلا نص الحميري الذي يقول في وصفها: "قلمرية، بالميم، بالأندلس من بلاد برتقال - أي البرتغال الحالية - بينها وبين قورية أربعة أيام، وهي على

⁴² - ياقوت الحموي : معجم البلدان 146/3

⁴³ - ينظر الضبي: بغية الملتبس 116/1.

ذ. عبد الواحد عبد السلام شعيب

جبل مستدير، وعليها سور حصين ولها ثلاثة أبواب، وهي في نهاية من الحصانة، وهي صغيرة متحضرة عامرة، كثيرة الكروم والتفاح والقراسيا، ... وهي على نهر عليه أرحاء، وبين قلمرية وشنترين ثلاث مراحل، وبينها وبين البحر اثنا عشر ميلاً⁴⁴.

رابعاً: الإحجام عن التعريف ببعض الأعلام أو التأليف أو نحوها:

إن الترجمة لبعض الأعلام أو التعريف ببعض المؤلفات أو المواقع في عملية التحقيق قد تكون ضرورية ولازمة أحياناً؛ لأن بدونها قد يتعذر على القارئ فهم ما ورد في متن المخطوط، لا، بل إن مثل هذه التراجم أو التعريفات قد تزيل جانب اللبس، في بعض الحالات عندما تتشابه أسماء وألقاب عدد من الأعلام أو عندما يكون هؤلاء الأعلام من أصحاب الاهتمام أو التخصص الواحد.

ويمكن أن نسوق بعض الأمثلة هنا للتدليل على ما نقول:

- جاء في ترجمة القاضي عياض في "المدارك" الجزء الخامس تحقيق الأستاذ محمد بن شريفة، لعبد الله بن أحمد بن بكير قوله: "وذكره أبو عمرو المقرئ في كتاب طبقات القراء وقال: إنه مشهور ثقة مأمون، روى القراءة عن القاضي إسماعيل وأحمد بن علي الحرار وابن قتيبة... وتوفي بعد ثلاث وثلاثين وثلاثمائة"⁴⁵.

المقصود هنا بأبي عمرو المقرئ هو أبو عمرو الداني⁴⁶ الذي جمع بين علوم الحديث وعلوم القرآن، وكان أحد الأئمة في علوم القرآن ورواياته وتفسير معانيه وطرقه وإعرابه، وكانت له رحلة إلى المشرق، حيث أخذ بمكة المكرمة ومصر والقيروان، وكان أصله من قرطبة، ولكنه سكن مدينة دانية فاشتهر بها، وكانت وفاته سنة 444هـ⁴⁷.

أما كتاب "طبقات القراء" للداني الذي ورد في نص المدارك فاسمه كاملاً « تاريخ طبقات القراء والمقرئين»⁴⁸. من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الخالفين إلى عصره على حروف المعجم⁴⁹.

44 - الحموي: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار، ص 164.

45 - القاضي عياض: المدارك 17/5.

46 - ينظر ترجمته في: الحميدي: جذوة المقتبس 483/1، 484، ابن بشكوال: الصلة 592/2، 593، الضبي بغية الملتبس 583/2.

الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، ص 228، 226، سير أعلام النبلاء 77/18 - 83.

47 - ينظر الحميدي: جذوة المقتبس 484/1، ابن بشكوال: الصلة 593/2، المقرئ: نفح الطيب 136/2.

48 - ينظر ابن خير: فهرسة ابن خير 90/1، ابن الأبار: التكملة 263/1، حاجي خليفة: كشف الظنون 1105/2.

49 - ابن خير: فهرسة ابن خير 90/1.

ذ. عبد الواحد عبد السلام شعيب

وفي كتاب التكملة لابن الأبار تحقيق الأستاذ عبد السلام الهراس، جاء في ترجمة عمر ابن أحمد بن خلدون الحضرمي: "وكان مشهورا بعلم الهندسة والنجوم والطب، ذكره صاعد القاضي وقال: توفي سنة 449هـ"⁵⁰.

وهكذا من خلال هذا النص توجب الترجمة لصاعد القاضي هذا، وبخاصة أنه أمدا بمادة تاريخية مهمة.

إذن، فهو صاعد بن أحمد الطليطلي⁵¹، وكان أحد تلامذة العلامة ابن حزم، وكان لصاعد هذا عدة اهتمامات علمية، فهو فقيه ومؤرخ، فضلا عن درايته بعلم الجغرافيا والفلك وغيرها، وقد وصفه ابن دحية بأنه "الفقيه المؤرخ المتقن"⁵².

ومن أهم كتبه: كتاب طبقات الأمم⁵³ وكتاب جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم⁵⁴ وإصلاح حركات النجوم⁵⁵ وغيرها.

وفي كتاب التكملة لابن الأبار أيضا تحقيق الأستاذ عبد السلام الهراس ورد النص التالي في ترجمة يعيش بن زغل بن سعيد الكزني البلوطي: "من أهل قرطبة، يكنى أبا سليمان، وهو ابن أخي القاضي منذر بن سعيد، روى عن عمه، ووقع ذكره في فضائل منذر من جمع أبي عمر بن عبد البر"⁵⁶.

ولفهم محتوى هذا النص، أصبح من الضروري معرفة ماذا يقصد المؤلف بفضائل منذر، وما علاقة ذلك بأبي عمر بن عبد البر؟

لذلك نقول إن فضائل منذر هو اسم الكتاب الذي ألفه حافظ المغرب الشهير أبو عمر بن عبد البر، في قاضي الأندلس منذر بن سعيد البلوطي⁵⁷ (ت355هـ) وسماه أخبار القاضي منذر

50 - ابن الأبار: التكملة 150/3.

51 - ينظر في ترجمته: ابن بشكوال: الصلة 370/1، ياقوت الحمري: معجم الأدباء 2857/6، الضبي: بغية الملتبس 417. حاجي خليفة: كشف الظنون 240/1، بالنشأ: تاريخ الفكر الأندلسي ص 239، 240.

52 - ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، ص 169.

53 - يسمى هذا الكتاب كذلك "التعريف بطبقات الأمم" ينظر صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص 207.

54 - ينظر صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص 60 و142، وهذا الكتاب ما يزال مفقودا.

55 - المصدر نفسه، ص 56.

56 - ابن الأبار: التكملة 234/4.

57 - ينظر في ترجمته: أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص 138، الحميدي: جذوة المقتبس 555/2 - 557.

ابن سعيد البلوطي⁵⁸ وقد نقل عن هذا الكتاب ابن الأبار في التكملة حيث يسميه تارة أخبار القاضي منذر بن سعيد وتارة أخرى فضائل منذر بن سعيد⁵⁹.

وكان القاضي منذر هذا، قد عرف بفصاحة اللسان والشجاعة في الحق، ولذلك يقول عنه الحميدي في الجذوة: "ولي قضاء الجماعة بقرطبة في حياة الحكم المستنصر، وكان عالما فقيها، وأديبا بليغا، وخطيبا على المنابر وفي المحافل مصقعا، وله اليوم المشهور الذي ملأ فيه الأسماع، وبهر القلوب، وذلك أن الحكم المستنصر كان مشغوبا بأبي علي القالي يؤهله لكل مهم في باب، فلما ورد رسول ملك الروم، أمره عند دخول الرسول إلى الحضرة أن يقوم خطيبا بما كانت العادة جارية به، فلما كان في ذلك الوقت، وشاهد أبو علي الجمع، وعان الحفل، جبن ولم تحمله رجلاه، ولا ساعده لسانه، وفطن له أبو الحكم منذر بن سعيد، فوثب وقام مقامه، وارتل خطبة بليغة على غير أهبة، وأنشد لنفسه في آخرها:

هذا المقال الذي ما عابه فند لكن صاحبه أرزى به البلد

لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا لكنني منهم فاعتالني النكد

لولا الخلافة أبقي الله بهجتها ما كنت أبقي بأرض ما بها أحد⁶⁰

بالإضافة إلى بعض الأعلام أو الشخصيات التي قد تفرض الضرورة العلمية والمنهجية الترجمة لها في الهامش أثناء عملية التحقيق والتي أتينا ببعض الأمثلة منها، فإن هناك أيضا بعض المدن أو البلدان، أو المواقع التي ترد في النص المخطوط، والتي هي الأخرى ينبغي أن يهتم المحقق بتحديدتها والتعريف بها كلما أمكن لاستيضاح الفكرة التي أراد المؤلف الأصلي أو صاحب المخطوط إيصالها وإبلاغها، لمن أراد قراءة أو دراسة عمله هذا.

ولعل من الشواهد على ذلك ما ورد في كتاب "المدارك" للقاضي عياض، الجزء الخامس، تحقيق الأستاذ محمد بن شريفة أثناء ترجمته لأبي الحسن التلبناني التي جاء فيها: "قال أبو الوليد الباجي: فهو فقيه معروف، قال الفرغاني: وكان من أهل إقريطش، قد كتبوا إلى أهل مصر يسألون أن يوجه إليهم من يفقههم ويتقلد حكمهم، فوقع الاتفاق عليه، فخرج إليها، وأقام بها إلى أن دخلها الروم، واستحوذوا عليها"⁶¹.

58 - ابن الأبار: التكملة 1/152.

59 - المصدر نفسه، ص 234/4.

60 - الحميدي: جذوة المقتبس 2/555، 556.

61 - القاضي عياض: المدارك 5/276.

فهل هذا النص يا ترى حري بأن يفك غموضه، وذلك للتعريف بهذا الصقع ألا وهو إقريطش الذي كان تحت السيادة الإسلامية، ثم ما لبث أن سيطر عليه الروم البيزنطيون؟

هكذا فالمقصود بإقريطش هنا كما يقول ياقوت الحموي: "إسم جزيرة في بحر المغرب، يقابلها من بر إفريقية لوبيا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى، وينسب إليها جماعة من العلماء... وقيل فتحت بعد 250 هـ على يد عمرو بن شعيب المعروف بابن الغليظ، وكان من أهل قرية بطروح من عمل فحس البلوط من الأندلس، وتوارثها عقبه سنين كثيرة"⁶².

وجزيرة إقريطش التي عرفت عند الجغرافيين المسلمين بهذا الإسم هي جزيرة كريت الحالية الواقعة في بحر إيجه من بلاد اليونان.

ومن الطريف أن الذين فتحوا هذه الجزيرة هم الأندلسيون الذين ثاروا على الأمير الأموي في الأندلس الحكم بن هشام، في ثورة الربض الشهيرة سنة 212 هـ/818م، بعد أن طردهم الحكم هذا من بلادهم والذي أصبح يعرف بالربضي بسبب ذلك، إذ مكثوا في الإسكندرية حتى سنة 212 هـ/828م حيث تمكنوا بعدها من افتتاح هذه الجزيرة وإقامة دولة إسلامية فيها إلى سنة 350 هـ/961م عندما استولى عليها الروم البيزنطيون بقيادة نيقفور فوقاس⁶³.

ومن أمثلة النصوص التي يكتنفها شيء من الغموض، وتحتاج إلى ضرورة قيام المحقق ببعض التعريفات والتعليقات؛ كي يتسنى توضيح الفكرة التي يسعى المؤلف إلى توصيلها للقراء والدارسين، هو ما ذكره ابن الأبار البنسي في الجزء الثاني من كتاب التكملة لكتاب الصلة تحقيق الأستاذ عبد السلام الهراس في حق أبي عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري، بأنه "من أهل بلنسية وصاحب خطة الرد والمظالم بها... وأدرسته فتة القنبيطور الرومي المتغلب على بلنسية، وهو يتولى خطة الرد والمظالم، وكان ابتداءها في سنة 485 هـ، ودخول المدينة صلحا يوم الخميس منسلخ جمادى الأولى سنة سبع وثمانين، فتم حصاره إياها عشرين شهرا"⁶⁴.

⁶² - ياقوت الحموي: معجم البلدان 236/1.

⁶³ - ينظر: أمين توفيق الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ص 20، 21.

⁶⁴ - ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة 247/2.

ذ. عبد الواحد عبد السلام شعيب

والمقصود بالقنبيطور الرومي الذي استولى على بلنسية، ذلك المغامر القشتالي المعروف بالسيد القنبيطور وإن كان اسمه الحقيقي رودريجو دياث دي بيفار نسبة إلى قرية بيفار التي تقع إلى الشمال من مدينة برغش، والذي تسميه المراجع العربية باسم "لذريق" أو "رذريق" أو "الطاغية روذريق"⁶⁵.

وقد انشق السيد القنبيطور هذا عن ملك قشتالة النصرانية وأخذ يعمل لحسابه الخاص فعات فسادا في بلاد شرق الأندلس بعد وقعة الزلاقة الشهيرة سنة 479هـ / 1086م في نهاية عصر الطوائف بالأندلس، ومقدم المرابطين إليها.

وانتهى الأمر بالقنبيطور إلى فرض حصار خانق على مدينة بلنسية الأندلسية استمر عشرين شهرا كما ذكر ابن الأبار وغيره أي من سنة 485هـ إلى سنة 487هـ⁶⁶، حيث أذاق أهلها سوء العذاب.

ولذلك يقول عنه ابن بسام: "وقوي طمع رذريق في ملك بلنسية فلزمها ملازمة الغريم، وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم، ينتسف أقواتها، ويقتل حماتها"⁶⁷.

وعلى أثر هذا الحصار الشديد استطاع السيد القنبيطور احتلال مدينة بلنسية من سنة 487هـ وحتى وفاته سنة 492هـ / 1099م⁶⁸، وإن لم يستطع المرابطون استتقاها من أيدي القشتاليين حتى سنة 495هـ / 1102م⁶⁹.

وقد فقدت بلنسية في هذه المحنة الكثير من سكانها إما بالموت أو المجاعة أو الهجرة، كما تركت مأساتها المروعة وقعا سيئا في نفوس المسلمين بالعدوتين الأندلس والمغرب، ولذلك يقول فيها شاعرها ابن خفاجة:

عاشت بساحتك العدا يا دار ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد في جنبك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار

⁶⁵ - حسن مؤنس : السيد القنبيطور وعلاقاته بالمسلمين، ص 42.

⁶⁶ - ينظر ابن الأبار: التكملة 2/247، ابن الكردبوس ص 103، المقرئ: نفح الطيب 2/577.

⁶⁷ - ابن بسام: الذخيرة 3/97.

⁶⁸ - ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص 195.

⁶⁹ - ابن عذاري: البيان المغرب 3/306.

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان في عرصاتهما لا أنت أنت ولا الديار ديار⁷⁰

بالإضافة إلى ما سبق فإن هناك مسألة أخرى جد مهمة في برنامج تحقيق الكتب والنصوص التراثية ألا وهي ضرورة الاهتمام برفع مناحي اللبس والتشابه سواء في رسم بعض الأعلام أو الألقاب، كذلك ما يتعلق بتبيين أوجه التشابه في أسماء بعض الكتب والمصنفات التي قد تحمل نفس المسمى، أو تشترك مع بعضها في جزء من العنوان على الأقل؛ لأن بدونها لا يمكن تحديد من هو المعني بهذا العالم أم ذاك الذي يشترك معه في الاسم أو اللقب، وكذلك الحال بالنسبة للتأليف التي تتوافق مع بعضها في العنوان.

فعلى سبيل المثال لا الحصر يتضمن النص الذي خصه القاضي عياض في الجزء الخامس من "المدارك" في التعريف بأبي عبد الله أحمد بن بقي بن مخلد قوله: "قال أبو عبد الملك بن عبد البر: كان أحمد بن بقي حكيما عاقلا، وقورا مسمتا، لنا هينا، يصلب في بعض أحيانه، غير أن اللين أغلب عليه، لم يكن بالأندلس قاض يقارنه في الوقار والسكينة"⁷¹.

ففي هذه الحالة يستوجب التعريف أو الترجمة لهذا المؤرخ ألا وهو أبو عبد الملك بن عبد البر؛ لأن هناك مؤرخا أندلسيا آخر يحمل نفس اللقب، وهو أبو عمر بن عبد البر الحافظ، وعلى الأخص أننا نجد عند بعض المؤرخين عبارة "ذكره ابن عبد البر في تاريخه".

فالمؤرخ الأول هو أبو عبد الملك أحمد بن عبد البر⁷²، إذ إن اسمه أحمد، وكنيته أبو عبد الملك، ويرد في الكثير من المصادر بدون كنية، أي أحمد بن عبد البر مباشرة، وكان فقيها ومؤرخا ومحدثا، وقد ألف عدة كتب في فقهاء وقضاة قرطبة وتوفي سجيناً بها زمن عبد الرحمن الناصر سنة 338هـ/949م.

⁷⁰ - ابن بسام : الذخيرة 100/1/3 ، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي "عصر الطوائف والمرابطين" ص 187.

⁷¹ - القاضي عياض: المدارك 200/5.

⁷² - ينظر في ترجمته: ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس 88/1، 89، والقاضي عياض: المدارك 122، 121/6، الحميدي: جذوة المقتبس 112، 111/1، والضبي: بغية الملتبس 122/1، ابن الأبار: الحلة السراء 208، 207/1، إسماعيل باشا: هدية العارفين 61/1.

أما المؤرخ الثاني فهو أبو عمر يوسف بن عبد البر الحافظ⁷³، وهو من أعلام القرن الخامس الهجري أي عصر الطوائف بالأندلس، وكان عالما موسوعيا إذ جمع بين عدة علوم مختلفة كالفقه والحديث وعلم القراءات والتاريخ والأنساب والأدب وغيرها، وله مؤلفات كثيرة في هذه العلوم، وكانت وفاته سنة 463هـ/1070م.

أما فيما يختص بالتشابه بين أسماء المؤلفات أو عناوينها، والتي قد ترد في النص المخطوط من غير أن تحظى بتعريف أو تعليق عليها في الهامش من قبل المحقق، لإزالة هذا الغموض أو اللبس، فإننا سنذكر هنا مثالا واحدا للاستدلال عما نقول.

لقد جاء في ترجمة القاضي عياض في "المدارك" الجزء الخامس لمحمد بن هشام بن الليث اليحصبي قوله: "قال ابن عفيف في كتاب الاحتفال: وكان من أهل العلم والحفظ للمسائل، مع الفقه والسياسة، وولاه القاضي ابن أبي عيسى بقرطبة الأعباس فأحسن القيام بها مدة"⁷⁴.

فابن عفيف الذي يقصده القاضي عياض في هذه الترجمة هو: أبو عمر أحمد بن عفيف⁷⁵ وكان من أهل مدينة قرطبة، وقد كانت له عناية بالفقه وعقد الوثائق والشروط التي اشتهر بتبريزه فيها، بالإضافة إلى درايته بالتاريخ، حيث صنف في أخبار القضاة والفقهاء بقرطبة كتباً اعتمد عليها بعض المؤرخين الذين جاءوا من بعده⁷⁶.

وبالنسبة لكتاب الاحتفال فهو الاحتفال في علماء الأندلس الذي كان من بين مصادر القاضي عياض في موسوعته ترتيب المدارك.

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه هنا كذلك أن هناك مؤلفاً أندلسياً آخر في التاريخ يحمل هذا الاسم أيضاً ألا وهو كتاب الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال للمؤرخ أبي الحسن بن مفرج القبشي⁷⁷ (ت بعد 450هـ/1038م).

⁷³ - ينظر في ترجمته: الحميدي: جذوة المقتبس 586/2 - 588، ابن بشكوال: الصلة 973/3، 974، القاضي عياض: المدارك 127/8 - 130، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب 407/2، 408، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص 302، ابن خاقان: مطمح الأنفس ص 294 - 296، ابن خلكان: وفيات الأعيان 66/7 - 72.

⁷⁴ - القاضي عياض: المدارك 140/5.

⁷⁵ - ينظر في ترجمته: ابن بشكوال: الصلة 74/1، 75، القاضي عياض: المدارك 9، 8/8، الحميدي 631/2، ابن فرحون: الديباج المذهب 176، 175/1.

⁷⁶ - ينظر مثلاً المدارك: 30/1، ج 140/5، ج 105/6.

⁷⁷ - ينظر في ترجمته: ابن بشكوال: الصلة 223/1، 224، ابن الأبار: التكملة 198/2، ياقوت الحموي: معجم البلدان 306/4، ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة 83/1.

خامسا : عدم ذكر مناسبة الأبيات الشعرية الواردة في المتن أو إيرادها مكسورة:

من ذلك ما ذكره ابن الأبار في كتابه التكملة الجزء الرابع، تحقيق الأستاذ عبد السلام الهراس، أثناء ترجمته لسراج بن عبد الله العثماني التي يقول فيها: كتب عنه القاضي أبو سليمان بن حوط الله وأنشدنا ببلنسية، قال: أنشدنا أبو الحسن هذا للقاضي أبي محمد بن عطية :

وإذا لثموا بالريط خلت وجوههم

أزاهير تبدو من فتوق كمائم

وإن قنّوا بالسابرية أبرزوا

عيون الأفاعي في جلود الأرقام⁷⁸

فالذين يقصدهم هنا الفقيه والمفسر والأديب أبو محمد عبد الحق بن عطية (ت541هـ) هم المرابطون الصحراويون الذين هبوا لنجدة إخوانهم من مسلمي الأندلس زمن ملوك الطوائف، وانتصروا انتصارا باهرا على ملك قشتالة وليون ألفونس السادس في وقعة الزلاقة، وتوحيدهم على أثرها للعدوتين المغرب والأندلس.

ولذلك يقول شاعر آخر في هؤلاء المرابطين:

قوم لهم شرف العلا من حمير وإذا انتموا صنهاجة فهم هم

لما حووا احراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا⁷⁹

ويُنسب لابن عطية هذا أيضا البيتان الشهيران اللذان قالهما في وصف العاصمة الأندلسية قرطبة ومعالمها وهما:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة

منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان ثتان والزهراء ثالثة

والعلم أعظم شيء وهو رابعها⁸⁰

78 - ابن الأبار: التكملة 128/4، 129.

79 - ينظر: عبد الواحد شعيب: دور المرابطين في الجهاد بالأندلس، ص 14.

80 - المقرئ: نفع الطيب 616/1.

ذ. عبد الواحد عبد السلام شعيب

ومن أمثلة الأبيات الشعرية التي ورد بعضها مكسورا، تلك الأبيات التي ذكرها الضبي في "البغية" لأمير الأندلس عبد الرحمن الداخل في الحنين إلى وطنه الأول بلاد الشام والتي جاء فيها:

أيها الراكب الميمم أرضي أقر من بعضي السلام لبعضي

إن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض

قدر البين فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمض⁸¹

فالبيت الثالث هنا جاء مكسورا بهذه الكيفية؛ لأن كتابته الصحيحة يجب أن تكون هكذا:

قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمض

وختام هذه الأبيات هو البيت الذي يقول فيه:

قد قضى الله بالفراق علينا فغسى باجتماعنا سوف يقضي⁸²

وهكذا فإن هذا البيت الأخير قد جعل العباسيين يتوجسون خيفة من نوايا وأطماع الأمويين في الأندلس، وذلك من إمكانية تفكيرهم في العودة ثانية إلى موطنهم الأصلي ببلاد الشام، والذي أقاموا فيه خلافتهم الأموية ردحا من الزمن، حتى سقطت على أيدي أعدائهم العباسيين هؤلاء.

نتائج البحث:

في ختام هذا البحث أمكن الوصول إلى النتائج الآتية :

1- أثبت البحث أنه على الرغم من الجهود المضنية، والمعاناة الشديدة، التي يبذلها أصحاب الباع الكبير، والدربة الفائقة في ميدان تحقيق الكتب والنصوص التراثية، فإنهم قد

81 - الضبي: بغية الملتمس 1/32.

82 - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

يقعون أحيانا في بعض الأخطاء، أو الانزلاقات التي تستلزم منهم ضرورة العمل على استدراكها وتصويبها، خدمة للعلم وطلابه.

2- يجب ألا يتقحم ميدان التحقيق من الباحثين، إلا من يملك ثقافة واسعة، ولغة رصينة، وتجربة مريرة، في فن التأليف والتصنيف العلمي والمنهجي.

3- إنه من الأهمية بمكان أن يتصدى أصحاب الكفاءة العالية في علم التحقيق، إلى إعادة تحقيق بعض الكتب والمصادر المهمة، التي لم تحظ بتحقيق علمي جيد، من أجل أن تؤدي أكلها على أكمل وجه، وأجمل صورة.

4- يستوجب على من يقوم بتحقيق كتب التراث، أن يستعين بأصحاب الخبرة في التخصصات المختلفة، كعلوم الفقه والحديث، واللغة والتاريخ والأدب والجغرافيا وغيرها، لمراجعة عمله وتنقيحه مما قد يعتوره من الأخطاء والشوائب.

5- على القائمين بالتحقيق أن يتبهاوا إلى أن تكون تراجمهم أو تعريفاتهم في الهوامش أو الحواشي، شاملة ووافية، حتى يتسنى من خلالها للقارئ فهم محتوى النص المخطوط واستيعابه.

6- يتعين على المحقق أن يتدخل لإزالة ما يطرأ في المتن، من بعض جوانب اللبس أو مناحي التشابه في أسماء بعض الأعلام أو ألقابهم، أو للتعريف ببعض المؤلفات التي تشترك فيما بينها في العناوين والمسميات، حتى لا يحدث هناك خلط أو تداخل، يبعد القارئ عن جوهر الحقيقة العلمية.

7- إنه من الأمانة العلمية أن يحرص المحقق كل الحرص على إخراج نصه المخطوط في منتهى الدقة والكمال، مثلما كان ينوي صاحبه الأصلي له، إذ إن أي قصور أو نقص في ذلك، قد يسيء، ولو بطريقة غير مباشرة إلى الكتاب المخطوط، وإلى مؤلفه أيضا، الذي كان يتجلى بمكانة سامقة ومنزلة رفيعة، بين كبار رجال عصره من العلماء والشيوخ.

8- إن عملية ترك الكثير من الصفحات المحققة دون أية تعليقات أو توضيحات في الهامش، تدل على عدم اكتراث المحقق بعمله، وعلى هشاشة تحقيقه، الأمر الذي يجعل منه كما ثقيلًا ومملولًا لدى الباحثين والدارسين.

من ضوابط تحقيق الكتاب المخطوط

ذ. إدريس الزعري المباركي

جامعة القرويين - فاس

لا جدال في أن تراثنا العربي المخطوط يمثل حضارة من أرقى الحضارات الإنسانية، وأن هذا التراث - حسب علمنا - هو أضخم تراث مخطوط عرفت البشرية؛ لأنه يمتد على مدى حقبة تزيد على أحد عشر قرنا من الزمان، تبتدئ منذ عرف العرب الكتاب والكتابة، وتستمر حتى دخول الطباعة إلى العالم العربي مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، ولأنه فضلا عن ذلك يمتد على رقعة جغرافية شاسعة، هي تلك التي انتشر فيها الإسلام ومعه لغة القرآن، هذا القرآن الذي إليه يرجع الفضل في هذه الظاهرة الفريدة في تاريخ البشرية؛ فهو الذي أتاح لهذه اللغة أن تصل إلى كل شبر بلغته دعوة الإسلام في الشرق أو في الغرب.

وإذا كان القرآن الكريم هو الذي حافظ على هذه اللغة وأمدّها بمقومات البقاء والاستمرار على مدى تلك القرون المتعاقبة، فإن تأخر ظهور الطباعة في عالمنا العربي قد أطال عهد المخطوطات وأعطاه امتدادا في العصور الحديثة، يضاف إلى هذا العمق التاريخي البعيد.

لذلك فلا غرابة أن تتفق كلمة الدارسين على أن ما تركه العرب من المؤلفات المخطوطة لا تكاد تجد له نظيرا أو مثيلا عند أي أمة من الأمم الأخرى؛ إذ يربو عددها - بحسب تقدير المختصين من أهل هذا الشأن - عن ثلاثة ملايين مخطوط.

لكن هذا التراث المخطوط الذي يتجاوز عدده اليوم في العالم ثلاثة ملايين موزع في أقطار الأرض، موزع في المتاحف والمساجد والزوايا والجامعات، فضلا عن مراكز البحث والمكتبات العامة والخاصة، وما زال الشطر الأكبر منه مجهولا لوجوده في مكتبات غير مفهرسة، فكثيرة هي المكتبات التي تضم مخطوطات عربية ما تزال - إلى يوم الناس هذا - قلاعا مغلقة وحصونا منيعة أمام الباحثين الذين لا يعرفون السبيل إلى ولوجها واستخراج كنوزها.

فلا غرابة إذن إذا قيل : إن هذا التراث ما يزال الكثير منه مجهولا لا يعرف عنه شيء نتيجة سوء الاهتمام بجمعه وفهرسته.

كما أن المهتمين بتحقيق المخطوطات ما زال الكثير منهم يعاني من قلة الوسائل التي تعينه على معرفة الكتب المخطوطة الصالحة للتحقيق، وتعرف أماكن النسخ الموجودة منها، وتحديد الموجود والمفقود أو المحجوب من تلك المخطوطات العربية التي وصلت إلينا أخبارها.

ولا يخفى أن من أهم ما يتطلبه التراث المخطوط عموما بعد تجميعه وصيانته، عملية فهرسته وتصنيفه، والتعريف بأماكن وجوده، فهذه العملية هي خطوة أساسية في سبيل الإفادة من هذا التراث والانتفاع به. فالفهرس بالنسبة للخزانة هي مفتاح كنوزها ومعبّر الوصول إلى مقتنياتها ومحتوياتها، ومن هنا فإن الفهرسة بهذا المعنى هي حلقة الوصل بين الباحث والمخطوط...¹

وإذا كانت عملية فهرسة المخطوطات وإعداد قوائمها خطوة أساسية في سبيل الإفادة من التراث المخطوط والانتفاع به، فإن هذه العملية ليست بالأمر الهين، فهي تحتاج إلى دراية وخبرة بأنواع الخطوط، ومهارة بأنواع الرموز والمصطلحات، وإلمام بكل الجوانب العملية للملامح المادية للمخطوط التي عليها تؤسس فهرسة المخطوطات، كما أنها تحتاج إلى خبرة بالمؤلفات التي عنيت بذكر عناوين الكتب وأسماء المؤلفين، هذا فضلا عن إدراك لمناهج الفهرسة، ومهارة بأساليب الوصف وطرق التصنيف.

وعلى الرغم من عدم وجود إجماع أو اتفاق حول مناهج أو طرق الفهرسة والتصنيف، فإن الفهرس المثالي - في نظر الباحث - هو الذي يقدم صورة واضحة ووصفا كاملا للمخطوط، ويمكنه من أن يقرر - في اطمئنان تام - مدى صلاحية ذلك المخطوط أو عدم صلاحيته لبحثه، انطلاقا من البيانات التي يقدمها ذلك الفهرس.

ويمكن توزيع هذه العملية إلى قسمين متكاملين :

- الأول : يعنى بالجانب الشكلي : وفيه يتم تعيين الملامح المادية للمخطوط، وهذه الملامح تشتمل على : البيانات المتعلقة بالورق ونوعه ومقياسه طولاً وعرضاً، والخط ونوعه،

¹ - يراجع: عبد الستار الحلوجي : فهارس المخطوطات : الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوراقية (الببليوغرافيا) والتوثيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية، دمشق، وزارة التعليم العالي، 1392 هـ/1972م، ص 285.

ذ. إدريس الزعري المباركي

والمسطرة أو عدد سطور الورقة الواحدة منه، وكذا عدد أوراق الكتاب المخطوط، وما إليها من البيانات والملاحح المادية التي تتميز بها المخطوطة الواحدة عن غيرها.

- ويعنى القسم الثاني بالجانب الموضوعي : وفيه يتم تحديد عنوان المخطوطة، واسم مؤلفها، وناسخها، وطبيعة موضوعها، ومضامينها وكل ما له صلة بفهرسة محتوياتها العلمية.²

وعلى الرغم من الصعوبات التي قد تعترض فهرس الكتاب المخطوط، الناجمة عن خصوصياته المادية، وما تتطلبه هذه الفهرسة من جهد ووقت، فإن عملية الفهرسة هاته تبقى خطوة ضرورية لا مناص منها في التعريف بالتراث المخطوط والإفادة منه والانتفاع به.

وإذا كنا - جميعا - نؤمن بوجوب العناية والاهتمام بالكتاب المخطوط، فإن تلك العناية وذاك الاهتمام مستويان غير متفاوتين في مرحلة الفهرسة والتصنيف، ولكنهما متفاوتان فيما يتعلق بالدراسة والتحقيق اللذين يقتضيان فيما يقتضيان انتقاء الأجود واصطفاء الأنسب من هذا المخطوط رعا لمبدأ الأولويات ؛ فما كل مخطوط يستحق العناية نفسها والاهتمام ذاته، كما هو معلوم لدى المحققين من أهل هذا الشأن.

وقبل الحديث عن القواعد أو الضوابط العامة لتحقيق الكتاب المخطوط وبيان ما تتطلبه إقامته من جهود علمية وعملية، يجدر التذكير في هذا المقام بحد التحقيق ؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره كما يقولون.

إن المتتبع لمادة (ح. ق. ق.) في معاجم اللغة يجدها مستعملة في اللسان العربي بأبنية واشتقاقات متنوعة، يكاد يدور المراد فيها حول معنى عام هو : "إحكام الشيء وصحته"³ يقال أحققت الأمر إحقاقا: إذا أحكمته وصحته، والتحقيق تفعيل مشتق من الحق والحق نقيض الباطل ؛ يقال : "حق الأمر يحق حقا وحقوقا: ثبت وصار حقا... وفي التنزيل ﴿لقد حق القول على أكثرهم﴾ أي ثبت وصار حقا لا شك فيه، ويقال : "ثوب محقق إذا كان محكم النسج، ويقال : حققت الأمر وأحققته أي كنت على يقين منه".⁴

² - يراجع محمود الشنيطي ومحمد المهدي : قواعد الفهرسة الوصفية للمكتبات العربية، ط 2، القاهرة، دار المعرفة، 1973، ص 7.

³ - مقاييس اللغة، 15/2.

⁴ - نفسه، 17/2، 19.

د. إدريس الزعري المباركى

ويطلق التحقيق ويراد به في الاستعمال العادي البحث بهدف الوصول إلى الحقيقة، كما يطلق في الاصطلاح العام يراد به "إثبات المسألة بدليها"⁵.

وأما في الاصطلاح الخاص بالتحقيق "بذل عناية خاصة بالمخطوطات حتى يمكن التثبت من استيفائها لشرائط معينة"⁶.

والتحقيق بهذا المعنى مظهر علمي من مظاهر العناية التي يتطلبها الكتاب المخطوط، بل إنه أمر لا غنى عنه في نشر تراثنا المخطوط، لأن نسخة المؤلف غالبا ما تكون مفقودة، وكثيرا ما تتجمع لدينا من الكتاب الواحد نسخ متعددة تتفاوت فيما بينها تفاوتاً شديداً، ويصبح نشر أي منها على حاله أمراً قد يكون مقبولا من الناحية التجارية ولكنه مرفوض من الناحية العلمية؛ فكل نسخة من نسخ الكتاب الواحد - مهما تعددت - لها سماتها وخصائصها، وكل نسخة لها ميزتها وقيمتها الذاتية؛ لأنها كثيرا ما تتميز عن غيرها من النسخ في نصها، ومدادها وحجمها وتاريخ نسخها ونوع ورقها، وبما قد تحمله من التملكات والسماعات والمقابلات وغيرها من مظاهر توثيق النص.

وإذن فأحكام النص وإخراجه على وجهه الصحيح هو المهمة الأولى للمحقق، وهي تستلزم بالضرورة التثبت من عنوان الكتاب واسم مؤلفه. ولهذا يعرف الأستاذ عبد السلام هارون الكتاب المحقق بأنه: "الذي صح عنوانه واسم مؤلفه ونسبة الكتاب إليه، وكان متته أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه"⁷.

وإذا كانت الغاية المتوخاة من عملية تحقيق النصوص هي إقامتها وتقديمها كما وضعها مؤلفوها، ضبطا وإحكاما وتوثيقا وتكشيفا، فإن الكتب المخطوطة بهذا الاعتبار تنقسم إلى أقسام ثلاثة:

1- الكتب التي لم تطبع بعد.

2- الكتب التي سبق طبعها من غير تحقيق أو نقد، ومن دون تذييل بالفهارس والكشافات العلمية التي تيسر الاستفادة منها.

⁵ - التعريفات للجرجاني، ص 55.

⁶ - منهج البحث وتحقيق النصوص: د. يحيى الجبوري، ص 128.

⁷ - تحقيق النصوص ونشرها، ط2، القاهرة، مؤسسة الحلبي، 1965، ص 39.

ذ. إدريس الزعري المباركي

3- الكتب التي نشرت بعد أن حققت بطريقة نقدية، وتنقسم هذه الكتب أيضا إلى قسمين : قسم منها يمكن أن يعتبر تحقيقه نهائيا لأن محقيقه استفادوا من جميع النسخ الموجودة منه، وقسم آخر حقق أيضا تحقيقا جيدا إلا أنه بعد طبعه كشف عن نسخ مخطوطة أخرى ذات أهمية لم يطلع عليها محقق الكتاب، يستفاد منها في تصويب وإصلاح ما تم نشره. لذلك فإن أمام المهتمين بتحقيق النصوص، سواء من الأفراد أو الهيئات والمؤسسات العلمية، ثلاثة متطلبات أو واجبات :

1- تحقيق الكتب القيمة التي لم تنشر بعد.

2- تحقيق كتب التراث التي طبعت من غير تحقيق.

3- إعادة طبع النصوص المحققة التي ظهرت لها نسخ نفيسة لم تُطلع عليها سابقا⁸.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه مع بداية الاشتغال بالتحقيق لم يكن ثمة منهج معلوم يمكن أن يلتزم به المحققون، وإنما كان لكل منهم طريقته ومنهجه، وقد استمدت بعض هذه الطرق من مناهج العلماء المسلمين في توثيق النصوص، واستمد بعضها الآخر من مناهج المستشرقين في نشر التراث المخطوط. ومع مرور السنين بدأت تتراكم الخبرات، وبدأ التفكير في تقنين هذه العملية ووضع القواعد الضابطة لها.

لهذا فلا غرابة إذا قيل هنا إن الضوابط التي سيرد ذكرها - وشيكا - والتي يلزم مراعاتها عند تحقيق النصوص، ليست وليدة اليوم، وإنما هي مدونة في كتب السلف الصالح من العلماء المحققين، ومستفادة منها في تجارب الباحثين الأعلام الذين كان لهم فضل السبق في هذا المجال.

وتتمثل أهم المرتكزات أو الضوابط العامة التي يلزم مراعاتها عند تحقيق المخطوطات فيما يلي :

⁸ - ويتأتى ذلك من خلال الإفادة من كتب فهارس المكتبات من مثل : تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، وتاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين - وفهارس المكتبات التي لم يتح لبروكلمان الاطلاع عليها أو للفترات التي لم يصل إليها كتاب سزكين بعد - وكذا كتب نفائس أو نوادر المخطوطات العربية والأعمال الببلوغرافية لتراثنا المخطوط.

أولا : ضرورة الإحاطة العامة بنسخ الكتاب المخطوط المراد تحقيقه :

تعد مرحلة جمع نسخ الكتاب المخطوط من أهم المراحل التي لا يجوز للمحقق أن يغفل عنها، فهي ذات أهمية قصوى لا تنفك عنها عملية التحقيق. ويرتكز العمل خلال هذه المرحلة على السعي إلى معرفة جميع نسخ الكتاب المختلفة الموجودة منه داخل الوطن وخارجه، وذلك بغية حصر نسخ الكتاب من جهة، وتحديد قدر وقيمة كل واحدة منها من جهة أخرى.⁹

وفي جميع الأحوال لا يستطيع باحث أو محقق أن يدعي وبالأحرى أن يجزم أنه عثر على كل نسخ الكتاب الذي هو بصدد تحقيقه، اعتبارا لما سبق ذكره من أن شطرا كبيرا من تراثنا المخطوط ما زال مجهولا، لا نعرف عنه شيئا لوجوده في مكتبات غير م فهرسة، ولعل هذا هو ما يفسر لنا ما نلاحظه. أحيانا من إعادة تحقيق بعض الكتب التي سبق تحقيقها، حين يتم العثور على نسخة أو أكثر من الكتاب المحقق لم تكن معروفة وقت تحقيقه للمرة الأولى.

ويلحق بجمع النسخ مسألة تحديد منازلها، فليست كل النسخ الخطية من المؤلف الواحد سواء في أقدارها بل هي متفاوتة من حيث قيمتها؛ فمنها ما لا قيمة له أصلا في تصحيح نص الكتاب، ومنها ما يعول عليه ويستند إليه في توثيق النص المخطوط، ووظيفة المحقق هي أن يقدر قيمة كل نسخة من نسخ الكتاب ويفاضل بينها وفق قواعد الانتقاء الآتية :

- النسخ الكاملة أفضل من النسخة الناقصة.
- النسخ القديمة أفضل من الحديثة.
- النسخ التي قبولت بغيرها أحسن من التي لم تقابل.
- أحسن النسخ المعتمدة هي تلك التي كتبها المؤلف نفسه¹⁰.

وفي هذه الحالة على المحقق أن يعرف ما إذا كان المؤلف قد ألف كتابه دفعة واحدة أو على مراحل تترى، للتأكد من أن النسخة التي بين يديه هي النسخة لما كتب قبلها، وأنها

⁹ - يراجع : هلموت ريتير : "مخطوطات تاريخية عربية في مكاتب إستانبول لم تطبع بعد"، في كتاب "ما ساهم به المؤرخون العرب في المائة سنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربي وغيره"، بيروت، الجامعة الأمريكية، 1958، ص 160 - 161.

¹⁰ - ويطلق عليها حينئذ النسخ الأم.

ذ. إدريس الزعري المباركى

ليست المسودة أو التأليف الأول للكتاب الذي زاد فيه وأضاف وغير، وسبيل ذلك الإفادة مما يذكره القدماء عن الكتاب، ونقولهم منه، ومقابلته بسائر نسخ الكتاب إن وجدت.

وبعد النسخة الأم تأتي النسخة التي قرأها المؤلف أو قرئت عليه أو أثبت بخطه أنها قرئت عليه.

- ثم نسخة نقلت عن نسخة المؤلف أو عورضت بها وقوبلت عليها.
- ثم نسخة كتبت في عصر المؤلف عليها سماعات العلماء¹¹.
- ثم النسخ المتأخرة المنسوخة عن نسخة المؤلف رأساً أو من نسخة من عصر المؤلف.
- وإذا لم يتحقق أحد هذه الشروط يفاضل المحقق بين النسخ المتوفرة لديه من الكتاب ويعتمد على ما يثق في أصالته وقيمته.
- ولا يجوز نشر الكتاب عن نسخة واحدة إذا كانت له نسخ أخرى معروفة، كما أن قدم النسخة ليس وحده مبرراً لتفضيلها.
- وإذا توفرت للكتاب الواحد نسخ خطية كثيرة، يتم ترتيب النسخ المتجانسة إلى فئات، وتتم المقابلة بينها على هذا الأساس.
- وإذا كانت النسخة أمّاً كتبها المؤلف بخطه تثبت كما هي، حتى لو تخللتها أخطاء إملائية أو نحوية أو أخطاء في الرسم، ويثبت الصواب في الهامش؛ لأنها دليل على ثقافة المؤلف وتعبير عن عصره.

ثانياً : ضرورة التحقق من صحة عنوان الكتاب وصدق نسبته إلى مؤلفه :

هذه الخطوة - بحسب المحققين - لا بد أن تكون مصحوبة بالحدز وخاصة إذا تعلق الأمر بالكتب المغمورة التي ليست ذات شهرة، إذ "ليس يكفي أن نجد عنوان الكتاب واسم مؤلفه مثبتين في ظاهر النسخة أو النسخ لنحكم بأن المخطوطة من مؤلفات صاحب الاسم المثبت، بل لا بد من إجراء تحقيق علمي يطمئن معه الباحث "إلى صحة عنوان الكتاب وصدق نسبته إلى

¹¹ - السماع : رواية الكتاب عن مؤلفه، أو بالسند المتصل إليه، أو أن يقرأ الكتاب على المؤلف بحضوره من يسمع.

ذ. إدريس الزعري المباركي

مؤلفه، لذا وجب عرض هذه النسبة على المصادر الببليوغرافية كالفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة وذيوله، وكتب التراجم والطبقات التي ترجمت للمؤلف، وكذا نقول المتأخرين عنه، وغير ذلك من الوسائل العلمية. وتعد الاعتبارات التاريخية من أقوى المقاييس في تصحيح نسبة الكتاب أو تزيفها .

ثالثا: العمل على إقامة المتن المحقق وبذل غاية الوسع في ضبطه وتوثيقه وأدائه كما وضعه مؤلفه كما وكيفا بقدر الإمكان :

ويتأتى ذلك من خلال الخطوات الآتية :

1- مقابلة نسخ الكتاب المختلفة بعد اعتماد إحداها أصلا وإثبات نصها في المتن، وإعطاء رموز لسائر النسخ يشار إليها في الهامش لتحديد الاختلافات والفروق بين النسخ والتصحيح والتحريف والخطأ، مع الاستغناء عن ذكر أوهام الناسخ¹².

2- ضبط النص وشكله وخاصة الأعلام والمواضع والمصطلحات الحضارية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والأبيات الشعرية، وغيرها مما يفتقر إلى الضبط.

3- تحديد مصادر المؤلف ومعارضة النصوص التي نقلها بأصولها، مع الإشارة في الهامش إلى ما فيها من زيادة أو نقص. وإذا لم يشر المؤلف إلى مصادره وتمكن المحقق من التعرف عليها يشير إلى ذلك أيضا، وهذا من شأنه الاطمئنان إلى صحة النص.

4- كل إضافة يوردها المحقق للنص أو للمتن المحقق يجب أن توضع بين قوسين أو بين معقوفتين.

5- تقسيم الكتاب إلى فقرات ووضع علامات الترقيم ؛ من نقط وفواصل وأقواس وعلامات تنصيص وتعجب واستفهام، ورسم الكلمات بقواعد الإملاء الحديث.

¹² - يقتضي ذلك من المحقق دراسة اختلاف روايات النصوص واستخراج الصحيح منها، وكذلك إثبات شجرة نسب النسخ حتى يتبين كيف حدثت الأخطاء في هذه النسخ، وبالتالي تحديد النسخة أو النسخ التي يمكن الاستغناء عنها، أي أن المحقق لا يجب أن يهتم فقط بنص الكتاب بل وبتاريخ النص أيضا فكثير من النسخ الحديثة لبعض الكتب هي أقوم وأقل خطأ من النسخ القديمة للكتاب نفسه لأنها منقولة عن أصل أكثر قدما وأدق توثيقا.

رابعاً: العمل على خدمة النص المحقق بما يقتضيه من التعليقات والهوامش :

تظهر شخصية المحقق ويظهر معها الجهد العلمي الذي يدل على ثقافته ويميز بينه وبين محقق آخر، من كتابة الهوامش والتعليقات، فتحقيق النصوص علم وصناعة ومراس ودربة، من شأنها المفاضلة بين محقق وآخر.

وتختلف كتابة التعليقات والهوامش والاستدراكات باختلاف موضوع الكتاب ومجاله العلمي ؛ فالتراث العربي متنوع بين التفسير والحديث والكلام والتاريخ والجغرافيا والفقه والأصول والأدب واللغة والشعر والعروض والفلسفة والطب والكيمياء والصيدلة والفلك ... إلخ.

وإذا كان ضبط النص وتأديته لا يختلف كثيراً بين كتاب وآخر، فإن التعليق على التراث العربي يختلف من فن إلى آخر ومن موضوع إلى آخر وفقاً لنباهة المحقق وثقافته ودرايته بالمكتبة العربية وإطلاعه على مصادرها.

ويستحسن في مجال تحقيق النصوص الفصل في هوامش الكتاب بين هامشين اثنين : يخصص أولهما للمقابلات والفروق بين النسخ وتوثيق النقول، ويفرد الثاني للتعليقات والاستدراكات العلمية¹³.

خامساً: وضع الفهارس التحليلية أو ما يسمى بالكشافات العلمية :

بعد الانتهاء من جمع الكتاب وتصنيفه، يقوم المحقق بإعداد الفهارس التحليلية للكتاب، فكتب التراث الخالية من الفهارس هي كنز بلا مفتاح ؛ ذلكم أن الفهارس من شأنها تيسير الاستفادة من الكتاب وجعل ما فيه في متناول الباحثين.

¹³ - حقيقة أن هناك أشياء يجب اتباعها عند تحقيق أي كتاب مثل التعريف بالأعلام والمواضع والبلدان خاصة المغمورة منها، بما يعين على فهم النص، والأبيات والشواهد الشعرية وتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وشرح المصطلحات الغربية مع الإشارة إلى مراجع التعليق، إلا أن كل كتاب يتطلب طريقة في التعامل معه يفرضها موضوعه ؛ فالمكتبة التي يعتمد عليها محقق كتب الحديث مثلاً تختلف عن المكتبة التي يعتمد عليها محقق كتب التاريخ أو الطب أو الفقه أو الأدب.

ذ. إدريس الزعري المباركى

وتختلف الفهارس وأنواعها باختلاف موضوع الكتاب مثلما يختلف التعليق على النصوص باختلاف موضوعاتها، فهناك فهارس عامة لكل كتاب محقق، وهناك فهارس خاصة منبثقة من طبيعة الكتاب نفسه، حسب خصوصية موضوعه، وأهم هذه الفهارس هي :

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية والآثار.
- فهرس الأعلام.
- فهرس المواضع والأماكن والبلدان.
- فهرس القبائل والأمم والفرق.
- فهرس الأمثال.
- فهرس الأشعار.
- فهرس عناوين الكتب الواردة في النص المحقق.
- فهرس المصطلحات.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس المحتويات.

ثم نضع لكل كتاب الفهارس أو الكشافات المناسبة له تبعا لموضوعه، فكتاب أدب يتطلب فهرسا للقوافي، وكتاب فقه يتطلب فهرسا للمسائل والمصطلحات الفقهية وهكذا.

أخيرا : مقدمة التحقيق :

بعد الانتهاء من تحقيق المخطوط، يقوم المحقق بكتابة مقدمة مركزة ومناسبة للكتاب يقدم فيها النص ويضمنها العناصر الآتية :

- أهمية الكتاب وبواعث أو دواعي تحقيقه ونشره.
- موضوع الكتاب ومكانته بين الكتب التي ألفت في موضوعه، ومدى استفادة المؤلف منها أو اطلاعه عليها، والجديد الذي أضافه إليها.

- نقول المتأخرين من الكتاب، ومدى معرفتهم به واستادهم إليه.
- التعريف بمؤلف الكتاب : بحياته وبيئته ونشأته وثقافته ومكانته العلمية ومؤلفاته ووفاته ... مع ذكر أهم المصادر التي ترجمت له.
- الوصف المادي للمخطوطات التي اعتمدها المحقق، مع الإشارة إلى أماكنها وأرقامها، وناسخها وتواريخ نسخها، وما عليها من سماعات أو إجازات أو تمليكات أو توقيفات، والعنوان المثبت عليها، وتحديد النسخة التي اعتمدها أصلا ورموز سائر النسخ التي قابل عليها، مع إثبات صورة الورقة الأولى والورقة الأخيرة من النسخة أو النسخ المعتمدة.
- بيان المنهج الذي اتبعه في إخراج النص وضبطه والتعليق عليه.

وأخيرا : "ينبغي لمن يتصدى للتحقيق أن يكون على مستوى علمي وثقافي ولغوي مميز، خاصة في الموضوع الذي يحققه، ملما بعلمه، خبيرا بمصطلحاته، مطالعا على مكتبته ومصادره، متمكنا من ناصية اللغة ملما بأساليبها، ضابطا لقواعدها، عارفا بالخطوط وأنواعها، ذا دراية بالورق وأنواعه، متمرسا بقضايا التصحيف والتحريف ... ولكل علم ثقافته وخبرته وأدواته التي تعين على فقه نصوصه وفهم مضامينه ومصطلحاته¹⁴، مستحضرا أن "التحقيق نتاج خلقي، لا يقوى عليه إلا من وهب خلطين شديتين : الأمانة والصبر، وهما ما هما"¹⁵.

خاتمة :

ختاما فإن هذه الكلمة لا تزعم أنها قد وفّت الموضوع حقّه وأحاطت بمختلف جوانبه، فإن ذلك لا سبيل إلى إدراكه ... وإنما حسبها أن تفتح الطريق لاستكمال البحث في الموضوع في فترات لاحقة إن شاء الله تعالى .

¹⁴ - يراجع: منهج البحث وتحقيق النصوص، د. يحيى الجبوري، ص 159.

¹⁵ - تحقيق النصوص ونشرها لعبد السلام محمد هارون، ص 47.

محاور الأعداد المقبلة

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاور الآتية:

1. الخطاب القرآني بين التصورات الشرعية والتصديقات الحقوقية

2. إمارة المؤمنين والبعد الإفريقي

3. أصول الفتوى في المغرب الأقصى

4. السيرة النبوية في الكتابات المعاصرة

5. العقيدة الأشعرية ومنظومة القيم الحضارية المغربية

6. جهود المغرب في تكوين القيمين الدينيين

7. العمران المغربي: فقه وفن وتنمية

8. الرحلة والرحالة المغاربة

9. الأدب المغربي: تاريخ وأعلام

شروط النشر بالمجلة

تتشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

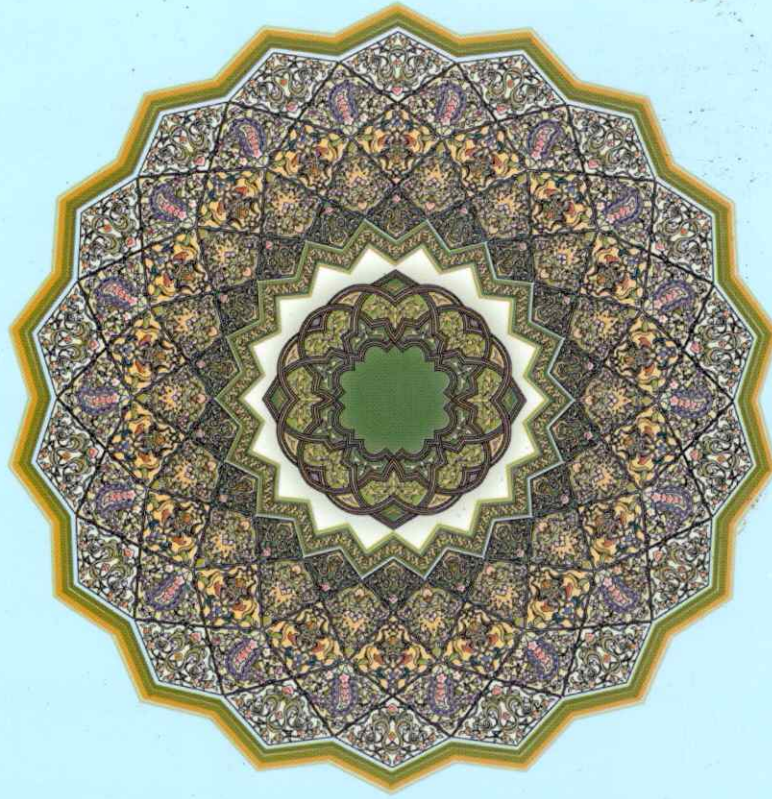
- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلماً من بحث جامعي أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.

- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 15 صفحة من حجم A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

فهرس العدد

افتتاحية

- 1- النداء التاريخي للسلطان سيدي محمد بن يوسف 9 ذ. بهيجة سيمو
- 2- انتفاضة طنجة 30 مارس 1952 17 ذ. محمد العمراني
- 3- المؤسسة الملكية وعلماء المغرب 27 ذ. عبد المجيد معلومي
- 4- اهتمام جلالة السلطان محمد الخامس بالتعليم 39 ذ. أحمد بلخيري
- 5- البعد الاجتماعي للتنمية البشرية في فكر جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه 53 ذ. عبد العزيز تيلاني
- 6- بيعة المدن والعواصم على عهد الدولة العلوية 59 ذ. أحمد الأزمي
- 7- السلطان مولاي اسماعيل ودعوة ملوك أوربا إلى الإسلام 67 ذ. رامي ربيع عبد الجواد
- 8- تشجيع السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن 75 ذ. محمد المغراوي
- لطلبة العلم بمدينة القصر الكبير
- 9- المسرح في خدمة إمارة المؤمنين 89 ذ. رشيد بناني
- 10- النوازل الفقهية وضوابط البحث التاريخي 99 ذ. حميد تيتاو
- 11- حاجة الكثير من الكتب المطبوعة إلى التحقيق 121 ذ. عبد الواحد عبد السلام شعيب
- 12- من ضوابط تحقيق الكتاب المخطوط 143 ذ. ادريس الزعري المباركي
- 13- محاور الأعداد المقبلة وشروط النشر 155
- 14- فهرس العدد 157



دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والفكر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية



مطبعة دار الكرامة